

عبد اللطيف شارة

الحجج



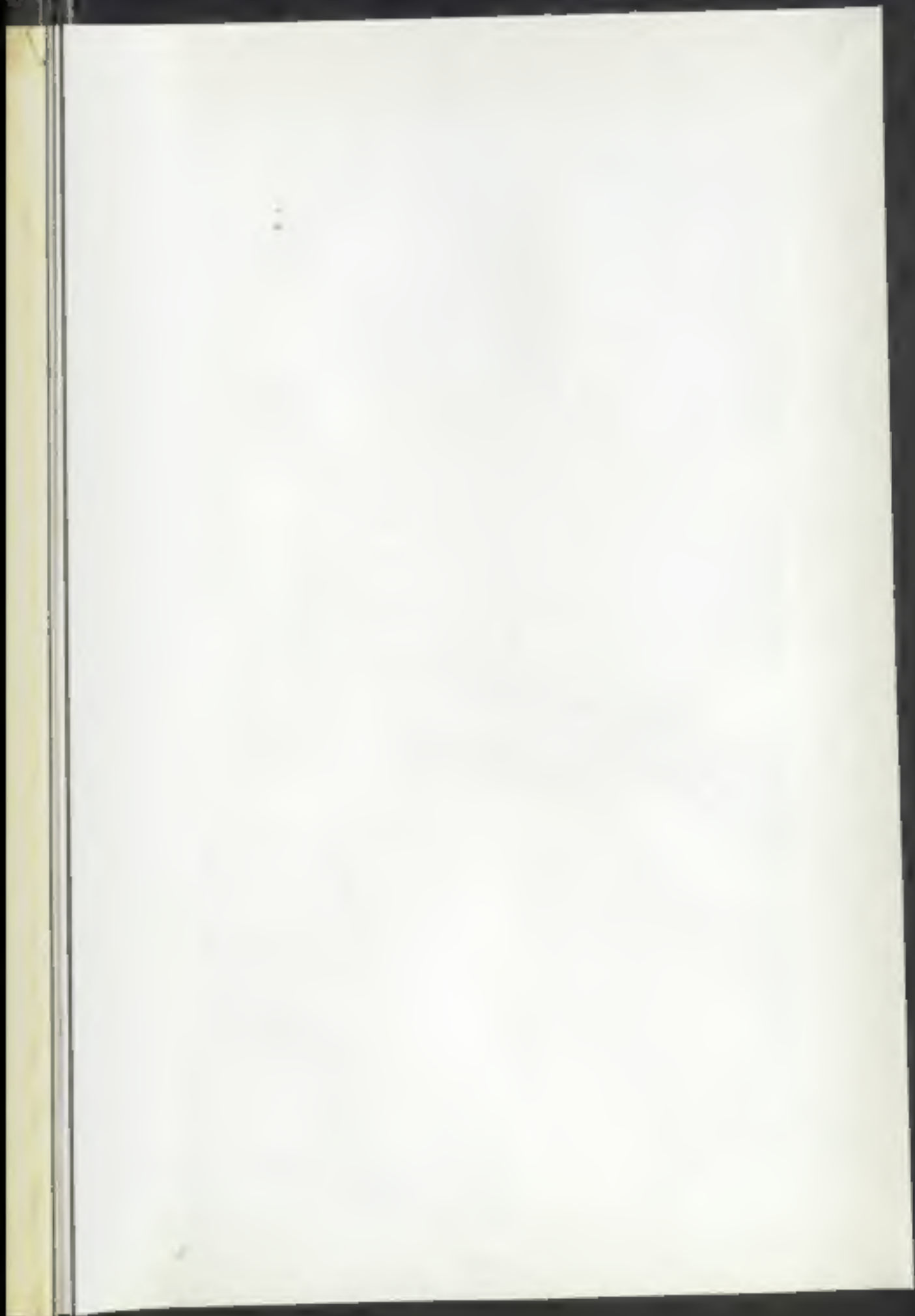
منشورات دار المكشوف

A.U.B. LIBRARY

AMERICAN
UNIVERSITY OF
BEIRUT



A.U.B. LIBRARY



8002

عبد اللطيف شرارة

923.5567
H454shA
C.1

الحجج
طاغية العرب

منشورات دار المكشوف

الطبعة الاولى ، بيروت - لبنان ، اذار ١٩٥٠
جميع الحقوق محفوظة لدار المصنف

اهداء

الى ارواح الشهداء الأبرياء الذين استهوتهم الحربه
فقاتوا دفاعاً عنها ،

الى ضحايا الظلم والظلميان في مشارق الارض ومناياها ،
الى المذبذبين والمذبذبات الذين اغلقت في وجوههم
ابواب العدالة ،

اهدي كتابي هذا .

للمؤلف

روح العروبة المكتبة المصرية - ميديا
المرأة في حياة ادغار بو دار المكشوف - بيروت

في الاعداد

في دنيا الجن
حالات السابعة (قصص)
اجواء واحاديث
من الاماكن (شعر)

مقدمة

قصة الصراع بين الوثنية والايان اروع ما في تاريخ النوع
البشري من قصص لانها 'تجبل' نقطة الانسان يوم افاق على
انسانته ووعاها ، يوم ادرك في لحظة نيرة باهرة انه غير
الحيوان ...

كانت اروع قصة ولا تزال ، وستمر اروع وأبقى وأزكى
وأسمى قصة يمكن الانسان ان يعيشها في نفسه ، وفي بيئته ، وفي
عصره .

أعجل فأوضح اننا ، أعني ابناء هذا العصر من كل جنس
ورقة وبلد ، لم نوفق بعد الى تركيز فكرة قوية ثابتة عن
الوثنية الصحيحة ، ولا عن الايمان الصحيح .

لا تزال نؤخذ ، إزاء هذا الموضوع خاصة ، بالمظاهر الخلافة .
لا تزال نكتفي بالكلمات الرنانة . لا تزال تتأثر بالصورة الخارجية
والألوان الزاهية الصاخبة وربما نظر في الحقائق الفاعلة العميقة
المؤثرة التي توجه سلوك الافراد وتحرك الجماعات .

وعلى هذا ، نحن لا نعرف الايمان ، ولا تفهمه ولا نستشعره
في اعمقنا تجاه دين ، ولا مبدأ ، ولا فكرة ، ولا مذهب ، ولا
كلمة من الكلمات التي ندعي اننا نعمل من اجلها ، او تناضل في
سبيلها . نحن وثنيون في الحقيقة ، وإن كنا ننفي هذا الوصف

عن أنفسنا ، وننتكر لمن يجرؤ على وصفنا به .

ذلك بأن الوثنية ليست ضرباً من العبادة مارسه الأقدمون ،
وفرح من أمره المحدثون . الوثنية فلسفة حية أصيلة في كليات
كل إنسان لم يمهّد في التخلص من حيوانيته . وكل من لم يستيقظ بعد
على حياة يلوّها الرفق والحب والعدل والصفاء كان وثلياً وإن
عاش عمره ناسكاً في المسجد ينلو الأوراد ، أو راهباً في الدير
يتعبّد آناً الليل وأطراف النهار . الوثنية طريقة في التفكير ،
وأسلوب في العمل ، وانجاء في الشعور ، ينسب ما هي اعتقادات
خرافية ، وطقوس صيدانية ، وأحكام اعتبارية على الأشخاص
والحوادث والأشياء . وهي ، إلى ذلك ، وحدة متماسكة منسجمة
الاجزاء ، لا تنقسم على نفسها ، ولا تضطرب في تناول الحياة
مهما تألبت عليها الكوارث ونازلتها الأقدار .

والوثني مخلوق يستعيل عليه أن يفهم الحياة إلا أنها تنازع
على البقاء ، والسياسة إلا أنها خضوع لمقتضيات الظروف ، والسعادة
إلا أنها جباذة أكبر كمية من وسائل الرفاهية المادية ، والعظمة
إلا أنها تصفيق أكثر عدد من الجماهير ، والحرية إلا أن يعمل ما
يشتهي ، والحب إلا أنه عمل جنسي محض إن في بواعثه
وإن في أهدافه . أما التضحية والنزاهة والنبل فهذه معان لا
يُظن لها في ذهنه ، بله حياته ، وإذا تحدث عنها غيره لوى
جيده هازئاً متعشياً عليه من الضحك .

تلك هي مفاهيم الوثني لقضايا الحياة الكبرى ... وهي مفاهيم
أساسية ، لا سبيل إلى رفع مستوى الإنسان إلا حين ينشأ في نفسه
صراع مع نفسه فقد تغيرها وتحوّلها عن وضعها الوثني الأصلي .

أما إذا بنى شخصيته على أساسها فلا يفيد معها أن يكون مسيحياً ،
أو أن يعتد نفسه مسيحياً ، لأنه في واقع موقفه الانساني والاحلاقي
« وثني مسيحي » . وهو « وثني مسلم » حين يحتفظ بتلك المفاهيم
في أساس كيانه الروحي ، وإن سجل على نفسه أنه يعتقد
الاحلام .

أعود بعد هذا إلى فكرة الايمان التي أحسبها نقيض الوثنية :
تأمل نجدة ، من غير غناء ، أن سقراط الذي شرب السم دفاعاً
عن آرائه لا يختلف في كثير ولا قليل عن غاليلو الذي سئلوا
عنه وعلقوه على المشقة ولم يتنازل عن فكرته في دوران
الأرض ، وسقراط وغاليلو لا يختلفان عن أي مسيحي أحرقه
نيرون ، ولا عن أي خارجي قتله الخجاج .

المهم في الانسان ، كي يصبح انساناً ، أن يؤمن ، وأن
يسخر حياته لما يؤمن به . ولا فرق بين وجهات الايمان ، وطنية
كانت أو فلسفية أو علمية أو دينية . ومتى آمن الفرد بفكرة ما ،
وكان إيمانه من الحرارة والعمق والشمول بحيث يحمله على التضحية ،
فذاك يعني أنه انتقل من طور الحيوانية ، وأصبح ذات قية لا
تعدّها قية ! أصبح وله « محور » لوجوده يستلته من منطق حياته
ويفرضه على العالم فرضاً ! أصبح بطلاً يتحدى الواقع وينتصر
على ترهاته !

وسر هذه البطولة ، التي لا تعدى لأحد عن إكثارها ، أن
الايمان حركة إيجابية تنطلق من انماق النفس لتتشي وتبني دون
أن يكون لها غاية حيوانية تشهدى بلوغها . أما الوثنية فطلب
مطلق ، أو هي جمود مطلق ، لا تتحرك من تلقاء ذاتها في معارضة ،

ولا تنود من اجل مبدأ او فكرة ، ولكن المؤمنين هم الذين
يصادون بها في تحركاتهم وانطلاقاتهم نحو اهدافهم المثلى ، ومن صدامهم
بها تدب في الحركة . بيد ان حركتهم عمياء وعناء تحطيمها
مهما ، ونشل ، دأب في ، فاعلية الاذن .

ذلك ما جرى للصراعية بدء عهد ان اندفع الرسل يدعون
الى عالم جديدة من شأها ان تقض على الملوك مداجعهم ، وتحرم
ذوي الفصول وخراري والامم امية . اولهم ومداتهم . ولوف
تذهب الى فان المروث من لم رجع من اديب التواء والعروش
حداً كف هذه .

في هذه الملاحظة الخامسة من تاريخ الانبياء والديون . وفي
جوان هذا الصراع بين المسيحية الدالة والوثنية الفظة ، ظهر جرون
على مسرح العلم .

ثم ... ثم انشأ معركة بين هؤلاء القوم . ان الوثني وطلوع
الاذان المسيحي راحل التاسع وثلث مع الابه ، واستمرت ثلثة
رؤساء ملوك الربعة فرون عبيد تحسن حلاله الانبياء الاول
من صنوف الاضطهاد . وأوزن العذب وحروب الطرد والاعف
والتشكيل من لا قبل لاحد من هذه عدا العصر ، ان يتصور
تحملة ، او يدرك مرارته . فلما خفي الوثنيون ذرعا ، ونسوا ان
اضطهادا حركة الدشة يزيدتها قوة وحدة ، عمدوا الى التمسك بها
واينسها ، واتخذوا من انهم حرة . وحينئذ هذا الصراع .

ولكن تعذب الصراعية ، نتيجة السياق الاميد . الوثنيون في
ليارها وتقيم عداوتها ، جعلها تسيطر على حياة الانبياء
سيطرة امية لا فعية ، مضيرة لا جوهرية ، ولا تعقدت مع

الأيام جنوة المؤمنين المخلصين ، ولم يبق له من محال ثوري
تتحرك فيه ... ثم ما كادت ترمه السيطرة حتى أخذت تنفك ،
وتتألمب آراء ومثقفين ، وتضطرب اجتهادات أعلام ، في أن
تلك الوثيقة من السندرة مستطاب المعنى على النفوس ، تحت
منار كفيف من الأيقون المسيحي ، لم يثبت أنه رقي ونهض ، بل
أولى أفرد الزمن عشر على حركته حتى مرقى في كثير من الأفق ،
وسدت الوثيقة عن وحيه في حبه من المحدث والعقل ...
ذلك هي حكاية الوثيقة مع ذلك المسيحي .

وحكاية الوثيقة مع الإسلام ليست أقل روعة ومعرفة من
مابقيا ، غير أنها ليست من أوصوح غفلة ذات ، ولا سجين
فيها إلى التبع المناسبات ، لا فهي على حركه كثير من المصير ،
والحق من آثارها ما يجعل موقف عن ترميم .
وقد نجم هذا التعميم لأن الإسلام نشأ في بيئة عبقة الزمان ،
ملية الحرية ، شديدة التماس ، فكانت تحكي هذه الشدة قومي
الشكينة ، حارة حمسة ، في أود بحول جولانها الأولى في حركاته
مع الوثيقة ، حتى ظهرت مقومة الوثيقة بغير مذبح ، وتصدعت
جدرانها في الداخل ، داخل الجزيرة العربية ، وشكل لم يبق منهم
من يومه ، ثم بعد ذلك إلى بفسفور الإسلام . وهكذا كانت ... ثم
هكذا فصحى على تاريخهم ومحتسهم وآثارهم فصدت دعاء .

وحدثت الوثيقة العربية بعد روعة الرسول العربي أن تمتص
على الإسلام ، وراحت تتجمع وتتضمن غرائبا من السمات التي
لقاه الدين الجديد على عقب ، موقف من الحليفة الأولى بالمرصاد .

واحلام حروية يسبب المؤرخون «حروب الردة» لم تقم بعدها
لوثيين قذرة... وسارت اخذت لعمدة في موكب اسلامي صرف
ليس المتحلفين عنه غير الحري والدمر.

وهذا جيل الوثنيون الذين واكبوا الحركة الاسلامية بانصامهم
لا بدواهم، بل انهم لا يفهمون - جأوا الى المظاهر والعناوين
الاسلامية بضمونهم، ويدافعون عنها، في انتظار الساعة التي تمكسهم
من الحكم والسيطرة باسمهم. وذا كانوا قد نخلتوا عن جهاد
المؤمنين، ودانهم بغيرهم الذين يسفرون منها، فلن تقوتهم
نعمه المالك والسيطرة والفتوة، ولن يسبحوا لها ان تقوتهم، بل
ان يتحركوا المؤمنون فرحة بزعيمهم فيها عليهم. واذ روجعوا،
فلنكن حدث حديث...

ولم يطل موعدا الموقف المتقلب فقد اقبل في اقل من نصف
قرون بعد نشوء الحركة الاسلامية. اقبل والوثنيون ينظرونه،
ولكنهم في هذه المرة مسلمون، فلن تتعرف عنهم الجاهل، ولن
يتابع لاعداهم من المؤمنين ان يحاربهم بسلاح لا يملكونه...
وعند ذلك دب الانقسام، وتشتت مسالك الآراء، وكثرت
الاجتهادات، واضطرب الامن وحادت الفوضى.

ونقدت الوثنية المسلمة من هذه الثغرة الى تحقيق احلامها في
المالك. وما هي الا جولة او جولتان حتى سيطرت على مقدرات
الحكم، واصبح بيدها الامر، فنع من نشاء وتعطي من نشاء.
ورجع المؤمنون الى تضامهم، ولكل مؤمن رأيه وفلسفته،
وامتد الصراع وامتد... بشكل جنوني رهيب لما يرسب في
اغواره، لدى العريقين المتنازعين، من أحقاد وثرات ودماء.

ثم مرت فترة أو شئ مما لا يمكن أن يتذكر ، وتنازل بالوثنية
الربيع ، وأفلح ، وراحت تنعش في سكونها ، تنهض مرة وتكبر
أخرى .

في هذه اللحظة الحاسمة ، وحس الصراع في أعلى درجاتها ،
أطلقت الوثنية العربية فتى يشق كل ما في روحها من عنف ،
وقدفت به في المترك الحدم ينافع عن حذرها ، وبمنعبد سلطتها ،
وينفهم ما من أعدائها ، فكان الحجاج . . .

... والحجاج ، ككل شخصية تاريخية اشرت في معاصرها ابلغ
التأثير ، ونحوه في آخر أيامه ، ثم بعد هلاكه ، الى « اسطورة » تصور
البطش والظلم والقسوة .

لا بد للمؤرخ اذن من السير ، في مثل هذه الحال ، على فصل
« الاسطورة » وأجزاء المخلوطة ، عن « الشخصية التاريخية » لدى
كل حادثه او خبر او رواية او تعليق ، لينتقل من إعطاء وقائع
ثابتة يفيد منها العلم في توجيه الحجة الانسانية ، ويبني على أساسها
أحكامه ، وإلا فقد البحث التاريخي فيسه ، وأقضى الى حرب من
التهويل والتعصب الخفيف .

بيد ان موقف المؤرخ هنا أدق من الاستقراء ، وأعمق من
تعبير الوثائق ، وأخرج مما يتصوره العالم الذي يكتفي بملاحظة
وتشهي مبعثه عند عرض ملاحظاته والكشف عن تنقياته . وذلك
لان الاسطورة لا تتلبس بشخصية ما إلا تعبراً عن حقيقة فاعلة
مؤثرة لم يجد الجمهور سبيلاً الى إيضاحها وتوضيح أثرها في حياته إلا
باستعمال الخيال واستعانة المبالغة .

على هذا النحو تشكلت أسطورة عشرة من شداد ، وحيث كانت
أسطورة مجنون ليلي ، وأنثى البنت سيرا أكثر الصالحين والعاجزين
والفاسقين ... والأسطورة أن تحاك حول شخصية طفت عليها
صورة معينة ، وانتشرت في الناس عن فكرة معينة .

ثم ينبغي أن نلاحظ ناحية مهمة في نشأة كل أسطورة ، هي
أن الجمهور لا يتحكم ، ولا يستطيع أن يتحكم بالأساس الذي تبنى
عليه الأسطورة ، أي أنه لا يتأثر ، بعارة أوضح ، نوع الفكرة
التي تنتشر عن الشخصية الأسطورية ، ولا يرسم خلوها الأولى
وإن كان يضعه ويؤيد في ألوان ويختار فوق طاعتها من مغربات
نفسانية . ففهم الطائي لم يصبح أسطورة الكرم عن رغبة واعية
في التمجيد لتعظيم ذاته بالذات ، وعشوة لم يصبح أسطورة العروسة
إكراماً لأخواله الحاميين السود ! وإنما هي الحقيقة ، حقيقة هؤلاء
الأشخاص ، تسبغ وتثقل وتثقل وتثقل ، وتنبؤ أخيراً في أسطورة .

... وفي ناحية أخرى من تميز الخلق وفصلها عن الدواب
والأراجيف والبهائم ، وهي أن لكل شخصية تاريخية بدرجة
أفداء وأجدة ، وه في الناس ، في الأجيال منهم ، من يشجب
سلوكها ، ومن يحبده . فكيف يكون موقف المؤرخ ؟

الرأي الكلاسيكي القديم ، وهو الرأي السائد ، يقول بوجوب
الاحتياط ، والحياد ، في مثل هذه الأبحاث والدراسات . ولا
أدري ما هو المقصود بالضبط من كلمة « حياد » في عرض سيرة
أمرئ من الناس ، كأنما من كان ، وكأنه ما كانت سيرته ، لأن
وراء كل موقف أخلاقي يتخذه الإنسان - والحياد موقف أخلاقي -

غاية بحققها ، أو يهدف الى تحقيقها ، بمجرد اتخاذها . والعلايات
تختلف وتعدد وتنوع حسب الأمانة والامانة والأشخاص .
فالحياد في البحث التاريخي معنى عامق مبهم لا يتصع مدلوله إلا
بوضوح الغايات التي يسهدها .

غير اني أستطيع ان اعرض هنا موقفى ، دون ان اطيل
البحث ، فأضع هذا السؤال بين يدي القارىء : اذا حدث لك ان
تقف مرة حكماً بين العدل والظلم ، بين الحرية والعبودية ، فمن
اي جانب تقف ؟

الحياد يقتضى ، في مفهومه العام ، ان لا تنحاز الى احد الفريقين
المتنازعين . اما انا فلا أستطيع ، في هذه الحالة واشباهها ، ان
اسكت وانا قادر على الكلام ، وهل اقل من الكلام في مثل
هذا المقام ؟

ثم ان الحياد اذاً اي صراع ينشب بين الحق والباطل ، بين
الاثرة والايثار ... لا يكون ، في جوهر معناه ، إلا قضية
الفكر عن وعي جمالات الحياة ، والاستمتاع بما يختزن قلبها من
افراح ومسررات ، ان لم يكن جنباً بشل نشاط الروح ، وبحملها
على الانطواء في اطار حيواني محض ، تعيش به كما يعيش الضب
في وجاره ، والحلزون في فوقته .

ولكن استعالة الحياد في الممارك التي تخوضها الحرية ضد الطغيان
او الايمان ضد الوثنية ، او الفضيلة ضد الرذيلة ، لا تقتضى الى
استعالة الانصاف ، لان الانصاف ممكن ، وبالتالي واجب ، في
جميع الاحوال والظروف . وعلى مؤرخي السيرة وكتابها خاصة

ان يلتزموا جانب الانصاف كلما عرضوا لشخصية تاريخية مهما يكن شأنها واتوا في الحياة .

بيد ان الانصاف عملية مركبة متشابكة . وهي ، الى تركيبها وتشابكها ، اقرب لان تكون ذاتية من ان تكون موضوعية لانها ليست عمل فكر محض ، ولا عمل عاطفة محض ، ولا عمل اطلاع محض . انها عملية انتخاب ، اعني انتخاب الظواهر والاشجار والافكار والروايات والتفاصيل ، ومزجها في وحدة مناسبة تبرز بها الصورة الحية الصريحة . والانتخاب عمل الذوق والارادة . لذلك ، لا يستطيع المؤرخ ان يكون منصفاً الا حين يعمد الى ايضاح جملة العوامل والظروف التي تعاوتت على إيجاد جو معين تثبت فيه وتمش شخصية معينة ، حتى اذا تناول هذه الشخصية بالدرس القى النور على محرركاتها الذاتية وبواعث العمل عندها ، ليخلص الى تغيير ما تخصص به مما شارك فيه سائر الناس . وهذا ما حاولت ان افهم به في دراستي هذه ...

عبد اللطيف شراره

بنت جيل ، ١٩٠٠ شاذ ١٩٥٠

مخوارج

١ - ملتقى المطامع

كل حركة اجتماعية شاملة مختلف وجوه النشاط الانساني ، رامية الى قلب الاوضاع العامة ، تؤدي ، بعد ان تبلغ اهدافها المرسومة ، الى فوضى ، ثم الى طغيان .

وذلك لان الحركات الانقلابية تجهد ، اول ما تجهد ، في تحطيم الانظمة القائمة ، وتهديم العادات والتقاليد المتوارثة ، حتى اذا تم لها ما تريد ، ووافقت الى القضاء على الماضي - وهي لا توفق الى محوه محوآ تماماً مطلقاً - واجتهدت عندئذ هدفأ ابعد من الاول ، وأصعب منالاً ، وأعسر ميلاً ، ألا وهو البناء - على اس جديدة ، وتركيز واقع جديد ، في شئ القضايا العامة ، والشؤون الحيوية الهامة .

لقد كان من امر الثورة الفرنسية الكبرى ، مثلاً ، ان افضت الى سلسلة ثورات ، وأصبحت في جوهر مبادئها بعدة نكسات من تحكم الثائرين انفسهم كروبيبيير ومارا ، الى دكتاتورية عسكرية امروا أقس من عبد الملوك جعلت نابليون امبراطوراً ، وأرغقت الامة الفرنسية بالحروب ، وانخسراً الى وجوع الاسرة المالكة للحكم ، وكانت الثورة قد اندلعت لاقصائها عنه ، فكانها دارت

ودارت ، ولم تخرج من دائرتها إلا بعد آلام وصكوارث ، حتى
استقرت ، بعد لأي ، في ظل الجمهورية .

وكان من أمر الثورة الإنكليزية التي شنت على يد كروموويل عام
١٦٥٣ - وكانت تستهدف حربة النظام البرلماني - أنه انتهت إلى
عكس أهدافها ، وانحجب رعبها عن استبداد مطلق ، تحول معه
النظام النيابي إلى العوبة بيد كروموويل نفسه ، فاند الثورة وحامل
لوائها !

أما الحركة الإسلامية - وهي حركة انقلابية أعم وأشمل من مائر
الحركات - فقد وقف لدى دي يده إلى فرض نفسها ، وشكت
من توحيد العرب وجمع شملهم داخل الطروقة العربية ، ودمعت
هم ، بعد أن انتقدوا في صفهم واتجاهها ، إلى الفتح والسلطان ،
حتى إذا أخذوا في انقطاع النور ، عدوا سيوفهم الأولى ، وانقسمت
الحركة على نفسها ، ودب إليها التعديع ، وراحت تنمخ وتنمخ
حتى آلت إلى م آلت إليه من وهن وجور ...

غير أننا هنا ، أي في صميم الحركة الإسلامية ، نجاء مشكلة
أساسية كبرى ، هي أن الرسول العربي وضع أسس دين ، ولم
يضع أسس دولة ، ودعى إلى مبادئ وتعاليم روحية ، نظم بها
علاقات الأفراد ، جميع العلاقات وجميع الأفراد ، لجميع أهل
الأرض ، للناس كافة ، ولم يدع إلى مبادئ سياسية معينة تحدد
السلطة بحدود ، وتحدوها بدستور ، على نحو ما شهد التاريخ عند
السامية واللاتين ، لأنه لم يكن يعتبر نفسه غير رسول ، فقد
خلت من قبله الرسل ، فليس عليه إلا أن يبلغ رسالته ، وقد
بلغها ...

ولكن النبي كان ، اى صفته صاحب رسالة او حامل رسالة ،
 ذا «سلطة زمنية» و«امعة» تمت له بعد بعثته نبياً ، واجتمعت
 له عراملها بما انزل عليه من وحي ، وما خاص من مبادئ النضال ،
 وما اظهر من قوة وتفوق في عمله ومواقفه ، وما اوتي من
 جليل الصفات وعظيم الاخلاق ، فمن يحمله بعد وفاته ؟

هذا هو السؤال الذي واجهه العرب المنهوت بعد وفاة
 الرسول ، وراح كل واحد يجيب عليه بحواب يختلف عن جواب
 الآخر ، ويؤيد رأيه بما انتهى اليه عليه ، وتوافرت لديه حجيجه .
 واغرب ما في هذه المشكلة ان احداً لم يفرح ذلك السؤال على
 الرسول قبل وفاته ، ولا فكر فيه احد أثناء حياته تفكيراً
 واضحاً تنجلي به الشبهات وينقنع معه دابر الفضول والتغرصات !
 واكبر الظن ان ذلك «السؤال» ، الذي شغل الدنيا عما بعد ،
 واقام الحوادث واقعه ، كان غير وارد في عهد الرسول ، وهو
 لم يكن وارداً لجملة اسباب وظروف ، كلها منطقي ، وكلها معقول :
 منها ان النبي كان منصرفاً الى توطيد المبادئ التي دعا اليها ،
 باذلاً همه واهتمامه في تركيزها وتشكيكها من نفوس العرب ،
 مستغرفاً في الاحتياط لها وتديم بنائها . ومنها ان اصحابه كانوا
 يخوضون معركة حامية لا يضمن احد فيها حياته ، فلهذا ترجح لهم
 من الراحة والفراغ ما يحملهم على النظر في هذا الامر بشكل
 مطمئن هادئ . ومنها ان الرسالة ذاتها تنطوي على تعاليم وافية ،
 لا يضير الامة من بعدها شيء ، اذا احدثت في تطبيقها ووعيتها وعيا
 كاملاً ...

وليس هذا كل ما هنالك ، فان موقف الرسول نفسه كان

- كي نفهمه اليوم - من الذقة والخرج في منزلة لا سبيل معها الى « إثارة » مشكلة الخلافة ، اذ كان يجب دوماً ان وقتها لم يكن بعد حتى يوفاه الله ووفتها لم يكن ... ولا يبعد الحد ان يكون قد افصاها ، نتيجة اجتهاد سياسي ، عين دائرة جهوده ، ونعاه عامداً منعيداً من وفاته وتفكيره ، لان في الحيا هذا حكمة لا يرفى اليها شك ، ولا يصح تجريده !

فأول انما لو أنبرت في عهد لأمت حتم ان السجود حنطة ، ولعكرت عليه صفاء الجو الذي ألقى فيه في إيجاده ، ولراحت تصطره الى إهمال الشؤون الكبرى ، لتيرة في الداخل ، داخل الجزيرة العربية ، من اضطرابات وقلاقل كان يجهد في تخفيفها ، وكان يغفل امر الخلافة اول اسباب ذلك النحشي ...

بيد ان هذا كله لا يمنع انه كان لدى في الوقت نفسه وأبه الخاص في الاشخاص الذين تعاون معهم ، وأعانوه على اداء الرسالة التي جاء بها ، وسامحوا في انتصاره وانتصارها ، فمن اين لنا ان نعرف ذلك الرأى ، وهو لم يستعان في وثيقة صريحة ، ولا بدا للناس في وضوح دامع ؟

الظاهر ... الظاهر مما يؤخذ من سجل السير والاحاديث والنواريخ انه كان « يبيل » الى تفصيل الامام علي بن ابي طالب على غيره من الصحابة والتابعين ، ولكن علناً صريحاً وان عمه ، فلا يملك ان يفرضه على الناس فرضاً . وادراكاً في رسالته ان يجاهد من اجل « الحق » او « الاعتقاد » فان مجاهدة الناس من اجل « شخص » بت اليه بشكل اوامر القوي ، نجعل المتأخرين - وما استكرم في عهده ! - في سعة من الارجاف ، وثقتهم

فوتة مضمونة يباحون به كل ما اثنوا واثام .

لذلك آثار التلميح على التصريح ، ولجأ الى الرمزية في اظهار
ميله ، الا انها رمزية شفاقة ، لا تنفع عن السر ولكنها تكدر ،
وتستخدم الاجزاء ولكنها لا نبوح ، وتستعمل في الاعمال ولكنها
تتعامس الافعال ، حتى ادركها كل من لازمه وخالفه ، فما كان
احد بشك ان الامر سيكون خارج علي .

إلا ان الطامحين الى السلطة من وجوه القبائل وأشرف العرب
والانصار ، رأوا في هذا الموقف القمض - وسلكهم هو الباعث
على تموضه الى حد بعيد - منفذاً واحداً لطماعهم ، وثغرة
يسلكون منها الى اجزاء والسلطان . فقرت بهم الرتي هور وفساة
الرسول على اصطلاح صورة لتشوري ، فاجتمعوا دون ان يكون
لهم يد او علم باجتماعهم ، وادبوا بالكر والخلافة ، وفضي الامر
الذي فيه يختلفون .

ورأى الامام ان القضية الكبرى مصونة على يد الذين انضبوا
في عهده ، فوقف الى جانب الشورى يتابع كل ما يجري في
محيطها ، ويوجهه ، ويخطط ، ويعمل كل ما يعود على الامة بالخير ،
ويدوا عنها عادة الشقاق .

ولكن الشورى ذهبت المروح القبلية وشوائبها اعدامة كل
الابواب التي اوحدها الاسلام من تنابذ بالاثاب ، الى التحول في
رعاية الشؤون العامة ، الى عصبة هوجاء في تقدير الاعمال والاشخاص ،
الى تذبذب بين المعسكرات المتشقة . فما ان استتب الامر لعثمان
حتى نشطت الاحقاد القبلية من عقابها ، وفامت الاطباع الى جيشائها ،
واستعلت العداوات والحصومات اخيراً في الفتنة التي ذهبت بالخليفة

الثالث ، كما استعانت شهوات الحكم والبطان في الحوادث العارمة
التي حدثت بعد مقتل عثمان ، واذا بكل امرئ ، يريد ان يكون
والياً ، واذا بجماعات تقسم وتتفصكك ، وانساب حول شخص
وعسكرة ، واذا لكل فكرة مؤيدون ومارضون ، واذا لكل
معاوضة فلسة ، ولكل تأييد فلسة .

في هذا الجو المكفهر ، في هذه القمرة الخائفة من الشهوات
والمطامع والاحتداد والاضرام ، يبيع الامم علي بالخلافة ، فوجد
نفسه بين امرين لا ثالث لهما : إما ان يولي طليبات الطامعين بالولاء
والحكم ، الرامين الى السيطرة والاثراء - وكانوا اكثر من ان
يحصيهم عد - وإما ان يقيم حدود الشريعة التي تافع دورها ، فلا
يخضع مال الأمة هدرًا ، ولا ينفق إلا في السبل التي امر الله
ان ينفق فيها .

كان عليه ، أدن ، حين اولى السلطة ، ان يختار واحداً من هذين
الامرين . بيد انه لم يعمكر قدمه في الامر الاول ، ولا يحظر عليه
ان يحفظ بالخلافة ، فوجه جهده واهتمامه الى الارتضاع بقومه نحو
الحياة العادلة الخيرة التي تصارت بها حقوق الناس ، ونشأ عنها
الانظام ، وان كد فيها عبقرية الدين الجديد ، وينضج بنعنتها مائة
نمطين من جماله وقوته وميموه .

غير ان الامم كان في واد والناس من حوله في واد آخر دونها
تحييز او تفريق بين انصاره واحداً ، بل ان انصاره اظهروا فيها بعدد
من الشبهة عليه ، والعناد في آرائهم ، ما حده على مكافئتهم ، والزمه
جانب التضييق عليهم ، واكرهه على اخذهم بالعنف ، بعد ان اخفقت
محاولاته في ارجاعهم الى حظيرة الصواب وافساعهم بالمنطق ، حتى

استشهد أخيراً نتيجة مؤامراتهم ومذابحهم ...

وأحدث قتل الأمام علي يومئذ مراثاً هائلاً في سكان العالم الإسلامي ، واختل بمقدسه النوازين الاجتماعية والروحي الخلالاً مريعاً إذ لم يبق لغة من مرجع موثوق يرجع إليه في تنوير ما افوج من الأخلاق ، وتهدد من زلت من الخس ، وإصلاح ما فسد من حال ، وتزوت المطامع من كل حذب وحسوب ، وتالت بعضها على بعض ، لتتسحر في حذب ، وتتصدد في حذب ، وتتطارب جانباً بجانب ، إلى أن التقت جميعها ، وأملك حافة ، عند نقطة واحدة : الخلافة .

هذا ما أفنى إليه الأخذ بيد الشورى في سنة لم نعرف بعد التمرد الصحيح الثقافي من عصية القليلة ، وعذمتها الدرجية ، ولكن عذمتها الضامح التي ألزمت سياسة الخليفة الثالث ، والتي بلغت ذروة جوحها في مقتل الأمام علي ، وأحدثت لتهدد وريداً وريداً فهو الهدوء ، حتى سكنت أخيراً ، ولكن حمراً تحت رماد ، في ظل معاوية الأول الذي أنشأ دولة قسبة أموية في دمشق .

٢ - أساس الدولة الأموية

معاوية بن أبي سفيان ، الخليفة الأموي الأول ، هو الذي أسس الدولة الأموية . ولكن المهم أن يعرف كيف أصبح معاوية خليفة ، وما هي الطرق والوسائل التي مكنته في الأرض ، وجعلته يتغلب على غيره من المطامعين .

لا مشاحة أن معاوية لم يرق منصة الخلافة نتيجة شوري ، ولا

وصل اليه عن طريق الوراثة . فهذا مما لا حاجة الى بيانه وتفصيله .
وكل ما في الامر ان ظروفنا ملائمة واتته ، فأحسن تفهيمها واتقن
اسفلافه . فبلغ سدة الحكم .

إلا ان حكاية وصوله الى الخلافة ، وما تقدمه من حوادث ،
ونهبته له من اسبابه ، تنقي الثور على اساس الدولة الاموية مسن
جهة ، وتكشف اسرار الاحداث التي رافقت قيامها وأفضت اخيراً
الى ورثتها ، من جهة ثانية .

كان معاوية عامل الحليفة الثاني على الشام ، عاش فيها اعداً
ينعم بخيراتها آمناً مطمئناً ، لا يرجو اكثر من ان تصان ولايته
عليها . فله ولي عثمان شدة أزره واطلق يده ، الى ان انتهت
بينه وبين الشاميين مودة عميقة ، فوثقوا به ووثق بهم ، وأصبح
الى حد بعيد واحداً منهم ، يشر معهم ، ويشمرون معه في كل ما
يفتاهم وينتاه . وكان لثقله الشامي ، ورواعته في الافادة من ذلك
والثقل ، اثر فعال في اجتذاب السكان اليه وتعاضدهم معه . فما
أقام على ذلك مدة خلافتي عمر وعثمان حتى تحولت حياته ، كما يبر
شامي ، الى حاجة ، حيوية لا غنى له عنها . ولا غنى للشاميين
عنه .

ولكن حدث ما لم يكن في الحسبان ، هو قتل عثمان ومبايعة
علي ... وهذا خبر مضى ان أيام معاوية في الولاية تمت معدودة ،
وان مركزه في الشام امس متقللاً ، اذ يستحيل ان يرضى بسبه
الامام علي عاملاً ، والامام هو من هو في حزمه وشده . أضف
الى هذا ، ذلك العداء بين الهاشبيين والامويين الذي يرفى به الزمن
الى الجاهلية ، الى بدء الحركة الاسلامية ، الى خلافة ابي بكر ، الى

حمر ، واخيراً الى عثمان . فكيف السبيل لانتقاد الموقف واتقاء
الكارثة ؟

إنه ان يقتنع علي ببقائه في الحكم ، فهذا ما لا طبع له
فيه ، وإنما ان يدرك الخليفة الجديد قبل ان يستفد آخر ما لديه
من وسائل العصيان ، أي كانت وسمة العصيان ، فهذا مما يتناقض
مع كبره القليل وشخصيته المتوترة للزعامة والتحكم والسيطرة .
فقد التفت على المقاومة حتى النهاية ، وغرر رأيه على استنحاع القوى
والاسباب التي تهيء له الغلبة ، ثم استغلال جميع الظروف والملازمات
التي كانت تحيط بخصمه !

وكان مقتل عثمان - وهو من اقاربه - أولى تلك الملازمات
وأغناها بلا فكار والخواطر الابلية . لن يبايع اذن علياً لاسبب
واضح ومعقول ، هو التهمة التي يمكنه ان يلقيها عليه في مصرع
الحيلة الثالث ، ولن يعدم بعد ذلك وسيلة تتبع له إقامة البرهان
على هذه التهمة . المهم إيجاد مورد للعصيان ، وقد وجدته ! ثم لم
يكف به كعبور ، وإنما أوغل في استغلاله ، وراح يصور علياً
لاهل الشام ظالماً سفاكاً مغتصباً . فما هم القلة المجرمون بسرحدون
ومبرحون على مرأى منه ومسمع ، ومنهم من اندس في صفوف
جيش وحمل اوائمه . وإذا فمني ليس الامام الذي تصح مبايعته .
ذاك ما شاع في الشام ، وثاققه اهلها ، واضطربت لهوله جموعها .
وهكذا ... وسخ في عقول القوم وأغشتهم ان الخليفة الجديد
مغتصب . ولم يحظر ثائب منهم ولا لثاب ان يعمل الفكر فيما
يلقى اليه من قول ، او ان ينظر لتقصية من زاوية غير هذه
الزاوية التي فتحتها لهم معاوية واعوانه ، بل هاجت النفوس وماجت

طلباً بدم عثمان ، المظنوم ، الشهيد ، وما كانت لتطلب بذلك الدم لو ان الامر انتقل الى غير علي ! اما وعلي هو الخليفة فلا صلح معه !

وتوالت الحوادث بعد ذلك ، وكلها في جملتها وتفصيلها تشد أزر معوية فيما ينبغي من ضعفة موقف علي ، وإثارة القلاقل عليه ، وتعكير الجو حوله ، إذ نكث طلحة بيعة حين لم يأت جانب الحزم من الامام وقبض من الميمنة . ونبه الزبير على الأثر بالخوف ذاته . ووقفت السيدة عائشة الى جانب هذين داعية في أقصى ضميرها الى اضطهاد عصفورين بحجر واحد : إبعاد علي عن السلطة أولاً ، وإزالة طلحة بإمرة المؤمنين ثانياً .

نلت الامام في هذه المعركة العظيمة فلم يجد غير ضامع نجيش ، وأحقاد تفور ، وشبهات تكاثف وبحجب النور عن الأبعاد . ما العمل ؟ أيسقبل ويرك الامر لغيره ؟ وإذا استقل ... هل نصلح الحال ؟

لا جرم انه سيبدع مخرجاً جديداً الى نهضة هذه العاصفة ، وينبذ عوامل الفوضى . ولكن هذه الفوضى ليست وليدة الساعة ، ولا هو عنها مسؤول ! إن جذورها شنت في أعماق أبعاد التاريخ : في عصية الجاهلية ، في الحركة الإسلامية وما رافقها من مؤروب وشجون ، في يوم السقيفة وما انتهى اليه من مبايعة أبي بكر ، في انتقال الخلافة الى الفاروق ، في الثوري التي أدت الى تولية عثمان . وهي تضرب في عرقها القريب بنسب واضح الى اسلوب عثمان نفسه في الإدارة . واسلوب عثمان الإداري يتلخص في كلمتين : لوهم والمحاباة . فقد وهن حتى أصبح خليفة اسماً ومروءات

المسلمين ، وحاربهم الله وشيخوته حتى تحركت الثغرات القبيصة ،
وشرت عليه الامصار وفشكت به !

اما وقد اتضح الموقف امام علي ، فلم يبق الا ان يتلافى نتائج
الاجطاء التي وقع بها سلفه ، وان يخلص في سياسة تربية حرمة ،
مهما امكنها من مصاعب ، وعاقب سبيلها من غلطات ، فاناس لا
يتقون الا به ، لما يعرفون فيه من صفات اظهرها عند عموم -
اظفاره الى يومه ذلك : من شجعة ، الى نزهة ، الى شدة في
الحق ، الى صبر على الشكره ...

غير ان سياسة الحرمة والعزافة التي تشدها المجموع ، في شخص
علي ، والتي اخذ علي في تطبيقها بعد البيعة ، جاءت دافعة ،
وانقضت على رؤوس الافراد ، فراحوا يقضون عهدهم فرداً
فرداً ، ويظهرون المعيبات واحدة تلو الاخرى ، ويقتوت حيث
يقبهم التعاقب الآلام الجهد ، ثم اكبره الامام على امتشاق الحسام ،
وناديب الناكبين والعاصين والمساكين ، فعرض اول معركة -
معركة الجمل - ولم يخلص علي ولايته ابام . وكانت هتحة -نسبة من
المعارك دامت تتلاحق - مستمرار الى ان جاء الخوارج بن يوسف ،
ورضع هذا حداً موقفاً به اظهر من عنف ، واعتمد من بطش ،
وسلكت من سبيل الاستبداد .

انتهت معركة الجمل بالشخص من طلحة والزبير وعائشة ، اي
ان علياً -هم - نامل شدة الافقدار وسير التاريخ - في نهاية الجور
لمعاوية بما بذلت من جهود في الغطاء على الضامعين بالملك من اهل
البحار ، لانهم كانوا يزاحمون ، في الوقت ذاته ، معاوية بما يراودهم
من احلام ، وينزعجون اليه من مضامع .

وجدت وعدة حروب بعد ذلك ، وانك حارب الامم نادياً
معاوية ، وانك ان يدبر فيهم لولا ... لولا الخيلة ، حيلة والاحكام ،
الي بفتح عي دهن عمرو بن العاص ، ان دفع جند معاوية المداحف
على رؤوس السيوف يستبدون جند علي الرجوع الى كتاب الله
والوصية ، حكاماً ، وكان من نتائج هذه الخيلة التي اعطت
على معسكر الامم ان دبر الشفق في جيشه ، وانصدت الجبهة
التي بقودها ، ونشأت فرقة والخوارج ، التي تشعب معاوية وعلى
معاوية ، وهكذا استمرت معركة مدح عن رغبة شبه امه لسلطة
الامام .

ولكن الامم لم يرضوا به ، بل رجع بحرب الخوارج
وهو اعداء معاوية ايضا - ليصرف من ثمة الى اعداء الكثرة على
معاوية ، فوقع له معهم عدة مواقع النصر فيها عليهم ، ونشأت
في شملهم ، واهمها معركة النهروان .

ومذ ايقن الخوارج ان لا خلاق لهم في مقاومة علي ، ان
جنداً من حرباً ، لجأوا الى التمسك فيها بينهم على معاوية وعلي
وعمر بن العاص ، فنجحت مؤامرتهم على الامام ، وانقضت في
الآحرين ، مما ادى الى طرد معاوية ، وحمله من ايسر السبل الى سدة
الخلافة ، ومنها الى اقامة الدولة الاموية .

فانما فكرت الآن في ما مر بك من حوادث ، وجدت ان
الدولة الاموية بنيت على اساس من الطمع والتخيل والخداع
والصدفة ، اي انها كانت في شأها شبيهة ، الى حد بعيد ، بدولة
اسرائيل التي نشأت في قلب البلاد العربية نتيجة الاطماع والحيل
والمصادقات وتخاذل العرب في عصره هذا ...

اما الطمع بذلك ، او الآثام ، او السيطرة ، فظهر انهم في
 تصرفات رجال ذلك العهد ، لا تستقر منهم احداً غير علي ومن
 حوله من الفقهاء والنسابة . وينبغي لك في سنوك الذين ابدوا
 الامام اول ما ابدوه كطلحة والزبير وفيس بن سعد ورياد بن ابيه
 واني موسى الأشعري والأشعث بن قيس ، ورهط الخوارج اجمعين
 الذين انشقوا فيما بعد على انفسهم ، وراحوا يشدون الحباله عن
 طريق الانتخاب ، ويقتنون عليها فيما بينهم . وهو اوضح واجلي
 في معسكر الامويين وانصارهم من عمرو بن العاص ، ابي المغيرة
 ابن شعبه ، ابي رباب بن ابيه الذي انحاز الى معاوية بعد قتل علي
 الخبيراً تاماً ، ابي بطانة معاوية وصحبه كعبد الرحمن بن خالد
 ابن الوليد ، والصعك بن قيس ، وشرحيل بن السبط الكندي
 وغيرهم ...

والخلاصة - وهو نتيجة الانسحاب المتزايدة المتعاقبة - تربي
 ايضاً فيها عاناه الامام من انقام جنده ، وتدخل اعدائه في
 الشؤون العسكرية لدى كل شاردة وواردة ، ثم فيما عاناه معاوية
 نفسه ، ولكن على صعيد ايجي ، من ارضاء الطامعين واسترضاء
 الساخطين ، وبأعين الحائزين على مدحهم ، وتعقب اهل الوجاهة
 والنفوذ واجندالهم بما يدل لهم من نفسه ، وأتسبب اليهم من انقياده
 ورعايته ، وأغدى عليهم من عطايا واموال ...

والخداع يطل عليك لاحب النعام في اركان الدولة الاموية
 الثلاثة : معاوية ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبه . فحيلة
 النعميم ، يوم رفع المصاحف هي التي ابقث على الامويين ،
 وصانث حياة معاوية . و « قبض عثمان » هو الخدعة الكبرى

التي التف حولها أهل الشام واستطاعت على حيوانهم . واللجوه ألى
 السم في قتل الحسن بن علي بعد عقد انصاح معه ، والتخلص
 من عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ، والقضاء على الاشر هو
 الذي مكث معاوية في العراق ومصر وسوريا بعض التكبير إن
 لم يكن كله .

بقي أثر المصادمة في قيام الدولة الاموية ، وآية مصادمة
 اسعد من ذلك التي سر بها عمرو بن العاص ومعاوية ، وذهب
 الامام فحبها وحده لا يلى ان المصادمات المؤقتة التي وقعت
 لمعاوية وحمت اليه الصريح لم تقع لرجل غيره في اكثر ما اعرف
 من حقب التاريخ كالحضرة التي احاطت ببعه علي ، الى ولاية
 الشام بالذات في تلك البرهة ، الى ذلك الجور الشامل من التفكك
 الاجتماعي والنخبط السياسي ، الى ما لا يسع لذكره المقام .
 وقد عطف معاوية ومعاوية ، من مؤيديه واعدائه ، على المواء ،
 الى اختلال هذه الامس التي قام عليها ملكه . فقد روى ابن
 الاثير ان معاوية خطب الناس بعد بلوغه نعي الاشر ، وهو
 الذي ارسل من دس له السم في العسل ، وقال : ... اما
 بعد ، فقد كانت لعلي بن ابي طالب يدان يمينان قطعت احدهما
 يوم صفين - يعني عمار بن ياسر ، واقطعت الاخرى اليوم - يعني
 الاشر . فلما بلغ الخبر معاص عمر بن العاص قال ساخراً :
 ان شئ جوداً من العسل !

وعطف معاوية نفسه - وكيف لا يعطفن ، وهو ادري الناس
 بما صنع وما كان يتوي ان يصنع - الى اختلال الامس في
 بنيانه ، فراح يدعمه من هنا وهناك ، ويحتاج له بكل ما

ملكته يدها من اسباب الاحتياط ، ويعتدل هذا ويقرب ذلك ،
يرغب مرة ويرهب اخرى ، ويعفو عن الخطاء ، ويتجاوز عن
سيئات ، ويؤزع الحقد في نفوس الشاميين على الامم علي ،
ويأمرهم بسبه من فوق المنبر ، ومردة هذا السلوك من الفة الى
ياته هو « الخوف » الذي كان بدأ اقطر نفسه .

انزل الى الاعماق وابحث عن اسرار هذا الخوف المتجمع الغريب ،
تجدها في يقين معاوية الحفي البعيد العميق ان هذا الملك ليس له ،
تجدها في شعوره بالجرائم التي ارتكبها ليحقق ما حقق من جاه
وسلطان ، بل ان معارضة الكبرى في اخذ البيعة لابنه يزيد ، وهو
ما يزال على قيد الحياة ، نشأت في نفسه عن خوفه من انقراض
امره ، واقدم عليها عن خوف ، لأنها اوشكت ان تذهب بهيبته
وتقتل نفوذه .

ومباينة يزيد نفسها تقضى صريع مبدأ الثوري الذي انبع في
استخلاف الراشدين ، وتخطى واضح شيئا مع الحسن بن علي .
واعنداء على مبدأ التحكيم الذي دعا هو اليه في صفين . ولما قضى
نخبه جاءت خلافة ابنه كخلافته مزعومة الاركان ، مضطربة الاسس
ورغم كل التدعيمات والاحتياطات التي اتخذها لنفسه وفاء .

واعاد التاريخ نفسه بين يزيد بن معاوية والحسين بن علي ، اذ
نشب صراع بينهما افضى الى غلبة يزيد لتناهب ظروف الحسين
بظروف والده ، وموقف يزيد بموقف والده ، ولكن على شكل
اغنف واحرج مع الفريقين المتصارعين .

بيد ان اختلال الاساس في بناء الدولة الاموية كانت يتسع
ويتضح كلما تقدمت الايام . فلما قضى يزيد ، وقف ابنه معاوية

الثاني ، وقد عرف الحنن ، وادرك ان لا طاقة لاحد على رآب
الصدع ، وصارح الناس بحقيقة قتلا في خطبة شهيرة : « ايها
الناس ! ان جدي معاوية نزع الامر اعله ، ومن هو احق به
منه اقربائه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو علي بن
ابي طالب . وركب بكم ما تعلمون حتى انته منته ، فصار في
قبوه رهيناً بذنوبه ، واسيراً بخطباه . ثم تقلد ابي الامر ، فكان
غير اهل لذلك ، وركب هواه ، واغلفه الامل ، وقصر به
الاجل ، وصار في قبوه رهيناً بذنوبه ، واسيراً بجرمه . »

ثم قال : « ان من اعظم الامور علينا بسوء مصرعه ،
وبئس منقلبه ، وقد قتل عشرة رسول الله ، واجح الحرم ، وخرب
الكعبة ، وما انا بالنقل ولا بالتعليل تبعاتكم ، فثانكم وامركم ... »
ودخل بعد هذه الخطبة منزله وتغيب حتى مات بعد ايام قليلة .
وفي رواية ان اعله دسوا له السم فخلصاً من صبره المستيقظ ،
وافكاره المرة العنيفة . ولا يبعد ان تكون صحيحة . فمعاوية اعاد من
السم اكثر من مرة في القضاء على اعدائه ومعارضيه .

ولكن الراعي في خطبة ذلك الخليفة ، وفي نزاله عن الملك ،
واختفاء آثاره بعد ذلك ، هو هذه : التفسيرات ، الفصيحة البليغة
عن احتلال الاحاس في بناء الدولة الاموية . فمن لا نستطيع ان
نصور او نصور هول الاجرام في سياسة معاوية الاول كما
صورها هذا : الانسان ، بخطبه ، وتخلبه عن العرش ومبنته
المنجعة .

وكانت نهاية معاوية الثاني واداناً بانهار العرش الاموي لولا
ان تطبل في عمره مصادفات ابقت على حياة مروان الذي استطاع

ان ينجو من الحذر - وكان قد دخل في طاعة عبد الله بن الزبير -
 ويصل الى دمشق في الوقت اللازم ، ويقع الامويين من الشقاق
 الذي دب فيهم ، ثم يستعطف من بعده ، عبد الملك الذي استعمل
 الحجاج على العراق ...

٣ - ارض الواقع

البلاء الشامية ارض الواقع !

ذلك يعني ان الشام ، شام ذلك العهد ، اقرب لان نيت ورجال
 واقعيين اكثر من ان نيت متاليين ، بل ان هؤلاء لا يفتشون
 فيها الا مادراً ، وندرتهم بالغة لدرجة لا يعدون معها ولا يدركون
 في خضم السواد الغالب ، واذا طهروا فلا يكون هم اي اثر في
 حياة الجماعة وتغيير طرائقها ، بل في العمل وبان في التفكير .
 والواقعي ، هنا ، هو الذي يتقبل الاشياء والحوادث دون ارجالة نظر
 او اجمال فكر ، فهو لا يصيف على الدنيا واحواها ومرورها
 شيئاً من عقله ونفسه ، وبأن يأخذ ما يعطى على انه هو ، الممكن ،
 وينفذ ما تأمر به السلطة ، ابناً كانت السلطة ، على انه هو والحق ،
 ويعيش هادئاً مطمئناً ما دامت اسباب الطمأنينة العادية موفورة له .
 ثم لا يتأمل ولا يتور إلا في حالة واحدة هي امتناع اسباب
 تلك الطمأنينة عليه ، فالسياسة الرشيدة عنده هي التي تؤمن له القوة
 وتقدمه باسباب الحرية الاقتصادية ، حتى يصبح في سعة من راحته ،
 وكلما فتحت امامه ابواب الرفاهية وبتمرت له مبلها - كانت
 تحقيقاً لمثل الأعلى ، اي كانت هي السياسة المثلى في نظره . والتأمل

القلبي عنده خرب من الخافة لا معنى وراءه ، ولا جدوى فيه .
 أما العفائل والنزعات الاخلاقية السامية فهو يعتبرها ذينة ، يمكن
 الاستغناء عنها ، وكثيراً ما يعجب كيف يصغي امرؤ من اجلها ...
 والادب والفن ليسا في حياء ، غير واثق لنهو وتزجئة الفراغ ،
 إن لم يكونا واثقاً للدعاية وبسط النفوذ هذا هو كيان « الشامي »
 في عهد الامويين .

لننظبع ، من على عهد هذا الكيان الروحي ، ان انفسه
 ملته من الظواهر السياسية التي ظهرت عهد معاوية ومنى لسلام
 من خلفه ، تلك الظواهر التي شغلت رجال الفكر والتاريخ من
 مرفعين ومستدرفين ، ولا تزال تشغلنا الى يومنا هذا .

نأمل الآن موقف معاوية بن يزيد الذي اثرنا اليه ، ثم نأمل
 موقف عمر بن عبد العزيز الذي شجب سياسة جميع الذين تقدموه
 من بني امية ، نجد ان الصغير الاموي كان يستيقظ بين فترة وفترة ،
 ولكن جوت الواقع الشامي منك على الامويين اقطار وعيهم ،
 وسقم في تيار العنف ، الذي افزع معهم اول مرة ، فانساقوا
 وهم لا يتناسكون .

هك ما يفوله الجاحظ : ... واهل الشام دور بلادة وحول
 وجود على رأي واحد ، لا يرون النظر ، ولا يسألون عن معيب
 الاموال ...

واسمع معاوية الاول يوصي ابنه يزيد ، وهو على فراش
 الاحتضار : ... ثم انظر اهل الشام فاجعلهم الشمر دون الدثار ،
 فان وابلك عن عدوك ريب ، فارمه بهم ، فان اظفرك انه به ،
 فأردد اهل الشام الى بلادهم ، ولا يقبوا بغير بلادهم ، فينادبوا

بغير ادب . .

وتقد كان معاوية يعتبر نفسه « مؤدباً » ، لشعبي خاصة ،
وكثيراً ما اظهر قيمة هذه النظرة او الفكرة في سيرته واقواله .
فقد اجاب حودة بنت عمار اهدانية عندما رغبت اليه ان يعدل
في الرعية كلها دون محبة او تفريق ، بقوله : « منكم ابن ابي
طالب الجرافة على المنطان مبطباً ما تظنتمون . » واجاب عكرمة
بنت الاطرش حين اقصته بها حليث اليه من حق : « هبت
يا اهل العراق ! ففبك عبي بن ابي طالب فكن تضافوا . » وقال
محمد بن الاشعث مؤيداً ، وقد تقدم هذا على الاحف بن قيس
في الدخول عليه : « ... وانا كما نلي اموركم ، كذلك نلي ادبكم . »
ومناط العجب في سيرة الشاميين مع خلفاء بني امية انهم
نادبوا بالآداب التي ارادهم هم معاوية ، فلم يكن هم ادنى يد
في توجيه الحكم ، ولا في سياسة الامصار التي اثمرت نفع
بالفق والتورات . فما وجد يزيد مثلاً ادنى معارضة شعبة حين
ا قدم على قتل الحسين بن علي ، ولا لقي عبد الملك بن مروان
ناصباً شامياً ينصحه بالرفق والثوية ، ولا اثم احمد من اهل
الشام لفضائع الخجاج في الجور والمراق ، بل كانت الشاميون
يطاعنهم العيباء لرؤسائهم وحكامهم كالعراقيين في نردم عليهم ،
اي اداة اضطراب وفنقلة : عملان متناقضان اقصيا الى نتيجة
سياسية واحدة .

ذلك هو القول الفصل في مجمل العهد الاموي ، وسيرة خلفاء
الامويين . فغير واجد في الشام من يحاسب الرؤساء على تصرفاتهم ،
والحكماء على تدابيرهم ، ويدرك عواقب الاعمال التي يقوم بها

الولاة ، ويرشدكم الى مناحي الخلل في اناليهم الادارية ، ويحذركم ،
 بما يبدي من فهم واستعداد للمصيان ، على الافادة والروية ، ثم لو
 وجد في العراق من يدعو الى الالفة والمحة وتوحيد القلوب ، ويوقف
 المصيبات الشخصية والفنية عند حد مقبول ، لما حدث ذلك الذي
 حدث من فجائع واهوال وكوارث لا تعد ولا تحصى ...

لكن هذا الافتراض او التمني غير وارد في كلا طرفيه .
 فالشام هي الشام ، والعراق هو العراق ولا تبديل للمواضع
 الطبيعية ! ونحن اذا نسوق هذا الحديث لايمح ما بهي ابصاحه
 من وجوه الاختلال في النوارن الاجتماعي بعد استتاب الامر
 لمعاوية ، ونشوء الدولة الاموية في ارض الواقع ، وعينها على
 تلك الأسس الواقعية التي نرحاها في الفصل السابق .

الامر الذي لا مندوحة عن ابرازه ونيانه وجلاته للقياس ،
 كي نصل الى ادراك سيرة الحجاج وفيه كظاهرة تاريخية او انسانية
 معتدة ، هو هذا : ان قيام الشام على رأس الامبراطورية الحديثة ،
 نتيجة مصادفات عابثة ، وهي لا تمكث - في نظر سائر الامصار
 - مؤهلات الرئاسة ، جعل الحجازيين والعراقيين يتربصون بها
 الدوائر ، ويضربون لها الضخائن . فمكان النور يشتد كما لجأ
 الامويون الى الضغط ، وكانت اثاثات والاحقاد تتكاثر وتتلافع
 كما سلك الامويون سبيل العنف والاكراه . ثم لم يكن في
 متناول الامويين غير البطش والارهاب ، بعد ان افلست المحبة
 ونالت الفتن ، والبطش لا يحمل على احترام البطاشين ، والارهاب
 لا يرفع من قبة المرعيين .

اسمع هذا الحديث بين الأحنف بن قيس وصاحب له في

صغين . قال الاحنف وهو يشهد سير المعركة وبشرف على تطوراتها:

- هلكت العرب .

- وإن غلبنا يا أبا بجر ؟ !

- نعم ! وإن كنا نحن الغالين .

- والله ما جعلت لنا مخرجاً .

- إنا إن غلبناهم لم نترك بالشام رئيساً إلا خربت عقبيه ،

وإن غلبونا لم يخرج بعدها وتيسر عن معصية الله أبداً .

وجاءت الحوادث بعد صغين تؤيد رأي الاحنف إذ لم يكن

يومئذ للعراقيين ولا للعبازيين أدنى ثقة بوؤساء الشام وفدتها

من وجهة اخلافة ، وكانت من قبل وجهة ديبية !

وإذا انت دقت النظر وجدت ان معاوية هو المسؤول عن

نشوء هذه الروح الاقليمية عند العرب ، وهو النافع في بوقها ،

ورأيت انه كان اول داعية لانتشارها ، فقد اجاب الامام عندما

دعاه الى الميافة بهذه الرسالة :

« سلام عليك ! اما بعد فلو اباعك الذين ذكرت وانت

بري . من دم عثمان لكنت كافي بكر وعثمان رضي الله عنهم

احمين ، ولكنتك اغريت بدم عثمان المهاجرين ، وخذلت عنه

الانصار ، فأطاعك الجاهل ، وفوي بك الضعيف . وقد أبى اهل

الشام الا قتالك حتى تدفع اليهم قتلة عثمان ، فان فعلت كانت

شورى بين المسلمين . وانما كان العبازيون هم الحكماء على الناس

واحق فيهم ، فلما فارقوه كان الحكماء على الناس اهل الشام .

ولعمري ما حبتك علي كحبتك على طلحة والزبير ، وانت

كانا بايعاك فلم اباعك انا . وما حبتك على اهل الشام كحبتك

على أهل البصرة ، لأن أهل البحرة اضطروك ، ولم يضعك أهل الشام .

واصح في هذه الرسالة ، الرائعة في دلالتها ، ان معدوبة جعل من فضيحه الشخصية البحتة ، قضية شامية ، عامة ، أفره عليها الشاميون ، ولم لا يقرؤنه وهي تمنحيت لأعمق ما يعيش في نفوسهم من مطمح واشواق ، ونظي أقصى ما يطمنون من رغبات ؟

غير أن نشوء قضية شامية ، أدنى بصورة عفوية تكاد تكون أوروبانية إلى نشوء قضية عراقية ، وأخرى حجازية . ثم راحت كل قضية من هذه القضايا الأقليمية تتلبس بثوب ديني خاص ، وترسم لنفسها مثابة فكرية خاصة (إيديولوجية) ، وتفيد من ملامات الظروف والأحوال مختلف التأويل الفقهية والشرعية ، وتندس على النبي من الأحاديث الموضوعة والأقوال المتناقضة ما يزيد وجهة نظرهما ، فكان الزبيريون في الحجاز ، والشيعية في العراق ، وأخوارج في مختلف الأمصار ، والحكوميون الواقعيون في الشام الذين اكتفوا بالواقع وأقاموا عليه .

ولم يكن ابتداء الاقطار الأخرى يضفرون إلى الشام وأهنها ، في ذلك الوقت ، نظرة إكبار ، فقد ذكر السعدي أن عمر بن الخطاب كتب إلى حكيم من حكماء عصره يسأله أن يصف له المذنب وأهله وأهله ومساكنها ، فكتب إليه ذلك الحكيم فيها كتب : ... أما الشام فتعجب وآكام ، ورييح وغمام ، وغسق وكام ، توطب

الأجسام ، ونصفني الألوان ، وتبشد الفهم . وتخرج غوره ، وتجنفي
الطبع ، وتذهب بذه الفريجة ، وتغضب العقول ...

وروى ابن أبي الحديد ، أن رجلاً ، يقال له الخجاج بن خزيمة
ابن الصمة ، أقبل من المدينة بعد مقتل عثمان إلى الشام وقال معاوية :
« يا أمير المؤمنين ! وم أخطب معاوية بمير المؤمنين قبلها » أنك
لنفوى على علي بدون ما يقدره عليك ، لأن معك قوماً لا يقولون
إذا قلت ، ولا يسألون إذا أمرت . وإن مع علي قوماً يقولون
إذا قل ، ويسألون إذا أمر ...

وروى صاحب الأغاني الحكاية التالية : « مات رجل من جند
أهل الشام عظيم القدر ، ثم فيه عز وعدة ، فعرض الخجاج بن يوسف
جنارته ، وصلى عليه ، وجلس على قبره ، وقال : ليئلى إليه بعض
أخوانه . فنزل نفر منهم ، فقال أحدهم : وهو يسوى عليه : رحمتك
أنه أب فـ... إن كنت ما عدت لتبشد الفهم ، وتصرع ود
الكأس ، ولقد وقعت في موضع سوء لا تخرج منه وإنه إلى يوم
القيامة . فما غالك الخجاج أن معك ، وكان لا يكثر الضحك في
جده ولا هزل ، وقال له : هذا موضع عدا لا أم لك ؟ فأجابه :
أصلح أنه الأمير ، فرسه حبيب في سبيل الله لو سمعه الأمير يعني :
باليمني أو فدي النارا ان من تهوين قد حارا

لأنشر الأمير على وسعة ، وكان الميت يلقب بسعة . فقال
الخجاج : يا ناسه ، أخرجوه من القبر ! ما أبين حجة أهل
العراق في حبلكم ، يا أهل الشام !

ونشأت الى جانب هذه الروح الافلبية عصبيات عنصرية
جائحة فتاكة ، مردتها الاحاسي الى تلك التفرقة الشديدة التي
اوجدتها السلطة الاموية بين العرب والموالي . فكان الفرس والروم
والاكراد والانباط وغيرهم من العناصر التي قهرتها قوات الاسلام
تنقلب يومذاك من هذا الجو البغيض في جميع لا سبيل الى
الاستقرار معه ، ولا حفاة ما على احتماله ، لما تلافي فيه من
اودراء وايداء .

وما كان المعارضون ليعملوا عما تطوي عليه هذه التفرقة
المصرية من امكانيات تستمر في تدمير العرش الاموي ، فاستعملها
الخوارج في جانب ، والشيعة في جانب . كما افاد منها عبد الله
ابن الزبير في ثورته افضل افادة . واحفظر الكامن فيها انها
تناقض جوهر الدين الاسلامي . فالدين صريح حول هذه النقطة ،
صراحة لا مجال فيها للتأويل والتضليل ، اذ ان سم القيم عنده
يونكر على التقوى ، وهي التي تتوزع درجاته فـ لا فضل
لعربي على اعجمي الا بالتقوى .

وكان معقولاً ان تنحدر العناصر الاعجمية المسلمة ، في ذلك
الحين ، الى جانب المعارضة ، اي الى معسكر الخوارج والشيعة ،
لما كانت تجد لديهم من حسن القبول ، وكرم الوفاة ، وانجيم
المبدأ ، وقوة العقيدة ، ولما ييسرون لها ، على الاخص ، من
سبل التحرر ووسائل الانعتاق .

تلك هي التركة التي خلفها معاوية في حياة المسلمين بعد وفاته :
الافلبية ، والعنصرية ، واستبقاظ العصبيات القبلية ، وسياسة
الاذلال ، والحكم الوداني .

ويظهر أثر هذه التركة ، أكثر ما يظهر ، في العراق وجوارها ... مما يتضح في الفصل الثاني .

٤ - أرض التمرد

العراق أرض التمرد .

ذلك هو تاريخها منذ تعرف التاريخ الى يومك هذا . والتمرد ، في جوهر معناه ، وكما مثل في سيرة العراقيين ، ضرب من الطبوية الصاخبة التي تحمل صاحبها على الانطلاق الغضبي ، دونما نظر في العواقب والاهداف . والتمرد انسان يستعلي بروحه عن الوجود ، حتى ليصبح الوجود عنده ، قيداً ، يجهد في تفكيكه والنخلص منه . ولا تسلم بعد ذلك عن سبب ، فانه لن يعدم - وهو النائر - ان يجهد فيها حوله ، ومن حوله ، الف سبب وحساب لتحرير توريته ، وفلسفة انطلاقه وجروحه ، لان تعلقه الشديد بنفسه ، برأيه ، بهواه ، بطمعه ، بحريته ، بحكرامته ، بأي موضوع من الموضوعات ، اقوى واشد وافعل من تعلقه بالبقاء او الحياة . وقد قل اندره بريتون ، وهو من افذاذ المفكرين : « التمرد يحمل برهانه بذاته لذاته مستقلاً كل الاستقلال عن الظروف التي حتمت نشوءه » ، كما انه لا علاقة له بمدى ما يصيب من نجاح او اخفاق في تبديل الواقع الذي يتور عليه . تلك هي سيرة « الكائن العراقي » ، فانه لا يبغي من الحياة ان يعيش . اما السبب فهو انه يريد ان يعيش على هواه ، دون ان يتقيد بقانون ، او سلطة ، او بقاعدة ، او بإرادة شخص من

الاشخاص . ولذا تراه في نضال دائم متصل مع الحكام ، مع القواعد ، مع السلطات . ولا يفتقر عن التمرد أبداً ، حتى لينتصر على التمرد نفسه . وهنا يبدأ ويضمئن . وهذا يعني انه لا يطمئن ولا يبدأ إلا حين يكون أعدوه نفسه ضرباً من التمرد .

غير ان المشكلة الكبرى التي يعانيها العراقي في نفسه ، ويعانيها الباحثون في أنفسهم ، ليست في ان العراقي لا يحصل الحياة الا حين يكون الحياة على هواه ، او الا ان يكون في حيز من الحرية بحسبه من التحرف بها على هواه ، وانما المشكلة هي ان هذا الهوى ، متقلب متغير . فقد يكون اليوم غير ما كان بالأمس ، وهو اليوم غير غداً . وهكذا تتقلب اسباب التمرد في نفس العراقي ، فلا تفر اليه من باب حتى يفتح له عليه ألف باب . وهكذا ... ، انفس تلك النفس أيضاً في تمرداتها وثوراتها ، هي تزدت عليه اليوم ، تمرد فلجده غداً . ارايت ان شرابة هذه الهفدة ؟

لقد وقف الاسكندر حياها داهلاً مضطرباً لا يدري ما يفعل ، ولا كيف يفعل ، حتى افضى به الاضطراب ان حلة فقد معها اثرانه ، فقال لأرسططاليس : « قد اعياني اهل العراق ! ما احري عليه حيلة ! لا وجدتهم قد سبقوني الى الخلاص ، وخلصوا قبل يقامها بهم ، وقد عزمتم على قتلهم عن آحرم ! » فاجبه انعلم الاول بنودة وحكمة : « اذا قتلتمهم من تقدر على قتل اعداء الذي عدى طباعهم ، وخصهم بهذا الدكاء ؟ » ون ماتوا ظهر في موضعهم من بشاكهم .

وجاء بعد الاسكندر نصف سنة ومائة ألف رجل ، ورجل يفتل
 له غلمان من حيان المري ، واذا به يعني من العراق واحد ما
 عاينه منهم الاسكندر عينا واما ، ويعرب لاهل الحجاز في المدينة
 عن بلاد بقوله : وفي رايته العراق داه عدا ، وانه لمسه
 امضوا في ، وفي الأندلس سافرهم في البلدان ثم يقول : لو عرفهم
 لافدوا من دخلوا عليه بحد واحد ، وكيف لا وهم لا يعرفونه
 وجيف في الفتنة ...

اما الجحظ - وهو عراقي - فانه يعني فكريه في وجوده
 المشكلة ويقول : ان اهل العراق هم مصر وذيوز فتن اهل
 ومع الفتنة والنظر يكون التفسير والبحث ، ومع الغيب والبحث
 يكون الظن والتمسح والرجوع من الرجل ، والسير بين الرؤى ،
 واظهار عيوب الامراء ... وما رآه العراق موصوفه : اهل بقة
 الطاعة ، ولشق على لولي الزانية ،

ويصف السهودي ارض النمرود بقوله : ... واما العراق
 فبناو الشرق ، وسرة الارض وقب ، اليه تجددت المياه ، وبه
 انصلت البحارة ، وعنده وقف الاشغال ، انصلت امزجة اهل
 ولعلقت اذهمهم ، واحتدت خواصرهم ، وانصلت معراهم ، فظهر
 منهم الدهماء ، وفويت عقومهم ، وثبتت بصائرهم ، وقب الارض
 العراقي ، وهو المجتبى من قدم الزمان ، وهو ملك النور ، ومسرح
 العبين ، ومدينة المدائن ومسا والاه ، واهله اعدل الالوان ،
 وانقى الرذائع ، وافضل الامزجة ، وأطوع القرائع ، وفيهم جوامع
 الفضائل ، وفوائد المبرات ، وفضائل كثيرة ...

واغرب عهد ظهر فيه فرد العراقيين على الرؤساء هو عهد

الامويين . فقد سغ فيه العراق بين واقعة الشام ومثلية العراق
 درجته القصوى ، لا سيما أن معاوية غدت الروح الاقلية ومدتها
 في نفوس الشيعيين خاصة بسبب الشدة والبأس ، ووجههم اكثر
 ما وجههم نحو العراق والكيد لاهله والغش من كرامتهم ، والعمل
 على اذلالهم ، ولكن بوسائل خفية ، وطرق ملتوية غير مفضوحة ،
 كان اقدر معاوية على سلوكها والافادة منها ، كمنعه من
 الحسن بن علي بحمل امرائه على دس السم له ، واستلحاق زياد
 ابن ابيه بمسببه ، وزيلاء الكوفة لمغيرة بن شعبه ، واستنهار
 الخلفاء بين الشيعة والخوارج .

وما قص معاوية وولي الامر يزيد ، كان المرافيون في بحران
 من الغليان لا يستطيعون منه لاهم خذلوا علياً وما افادوا من
 خذله غير الذلة والدمار ، وخذلوا ابنه الحسن واكرهوه على
 مصالحة معاوية ، وراح ولاية الامويين كزياد بن ابيه والمغيرة
 ابن شعبه يذيقونهم البلاء اشكلاً والوإماً . فكانوا ينحبون
 الفرص ، ويترقبون الظروف للانقضاض على الامويين وتشتت
 شملهم وبحق سلطانهم . ورأوا في استخلاف يزيد ما يعينهم على
 النور ، ويحفرهم الى التوابع ، لان يزيد لم يكن يتمتع بشيء
 من الشعبية في صفوف المسلمين عامة ، ولا كان على شيء من
 الكياسة او المهارة التي تمكنه من إخماد الفتن وتدارك الثورات .
 فاجتمع اهل الكوفة ، وكتبوا للحسين بن علي يباهونه ويعيدونه
 بالكأييد ومحاربة اعدائه واعداهم من جند الشام ، وسدنة العرش
 الاموي .

ولكن العراق في هذه الاثناء كان موزعاً بين ثلاث فئات :

الخوارج ، والشيعة ، والزبيريين وهم حزب عبدالله بن الزبير
الذي ذرّ قرداه بعد وفاة معاوية . فلما وفد الحسين على الكوفة
لم يجد من ينصره ، واستشهد في وفاة الطف الشهيرة .

غير ان استشهاد الحسين افضى الى زيادة البلية في جميع
الامصار ، وفي العراق خاصة ، اذ سجل عند ذلك الحزب الزبيرى
تقدماً كبيراً في الجزيرة العربية ، وانبت اعوانه وانتصاره يدعون
الناس الى مبايعته حتى تمت له البيعة في قسم كبير من العراق ،
بعد ان بايعته مصر والحجاز واليمن ، وانضم اليه عدد من اهل
الشام ، وقارب ان يستتب خيفة على جميع المسلمين .

وهنا ... هنا ، في هذه اللحظة الحاسمة من تاريخ الدولة
الأموية ، رجع العراق الى قرداه ، ونشأت فيه الى جانب
الحركات السياسية الاولى (الخوارج ، الشيعة ، الزبيريون)
حركة جديدة هي حركة « النوايين » الذين لم يسايغوا عبدالله
ابن الزبير ، ومضوا يطلبون ثار الحسين . وظهر يومذاك « الخنذر
الثقفي » الذي نادى بمحمد بن الحنفية اخي الحسن والحسين خليفة ،
وفاد حملة النار ، ودارت بينه وبين الزبيريين معارك انتهت بخمود
قتله وقتله ، ولكنه انشأ حزياً جديداً ومذهباً جديداً عاش من
بعده حقبة غير يسيرة في العراق .

بيد ان أسلوب عبدالله بن الزبير في ادارة البلاد كان ينطوي
على كثير من القعدة ويقصر النظر اذ استعمل اخاه مصعباً على
العراق ، ففعل هذا كل عمله في قتال الخوارج والشيعة والنوايين ،
حتى اذا وفق الى قتل الخنذر الثقفي وخنق حركته الجديدة في
مهدمها ، ذهب وفد من اهل الكوفة الى الحجاز لمبايعة عبدالله

ابن الزبير ، فما كان منه الا ان اُخذ في لومهم وتقريرهم ، عوضاً
عن قبورهم وتوجيههم نحو بحرية اعداء الشمين . ثم لم يكتف
باللوم والتفريع ، وانما اوشى في ايقاظهم بيدهم وبين اهل الشام حتى
اتى الى الله ، على الشمين وحسن طاعتهم لرواسهم . فرد عليه
احد مندوبي الكوفة بقوله : وان مثلك ومثلك ومثلك اهل الشام
تقول انني انكر بن وائل :

عذقتك عرساً ، وعذقتك رجلاً غيبي وعذقتك بحري غيرها لرجل
أحبك نحن ، وأحدثت اهل الشام ، وأحب اهل الشام
عبد الملك بن مروان .

ولما اُخبروا من حضرة كانوا عبد الملك وغدروا به صعب . . .
واحدثت الحوادث تنوأت في الجدار وثقت ونجوز الى ان
ثبت اخيراً عرش أمية ولم الامر لعبد الملك بن مروان بن الحكم .
والكن كيف ثبت عرش أمية وسط هذه الرغاء ؟

٥ - ارض الاربحية

الحجر ارض الاربحية .

هكذا كانت ، على الأقل ، في صدر الدولة الامامية ، اي على
عهد الخلفاء الراشدين ، والاربحية - كما سبق لي ان عرفت في كتابي
« روح المروية » - غريزة تدفع صاحبها على تقدير الحال في شتى
انواعه ومظاهره . وانه قلت غريزة لان مظهرها ردة فعل عفوي
لا يبعثه الجدل في النفس من متعة وارتياح . وهذه العفوية في
الاستجابة هي التي جعلت غريزة لا عادة ولا عملاً راغباً . وقلت

ان تجد غير ابراهيم في الجدار ، ان نشوء الحركة الاسلامية ، فقد
 كان الجداريون مستغرقين في جوار رومانطيسي غريب ، فله العشق
 وسداه الفناء ، وعلى ممش العشق والفضة بثت ضروب من
 اللهب ، وحالات من الاجتهاد ، واوضاع وعادات وتقاليده تنصع كلها
 عن نقان في مثابة جمالية غارقة ، وتعبد عبق لصور الجوان الحسي
 والمعنوي ، اما المرأة ، فبثت كانت فذة الحيلة ، اليها ينسحب الغارون
 والانشاء والجنود والتجار والسنة والفراد والولادة ، فلا حديث
 لهم غيرها ، ولا تمكيز ، لا فيما ، بل ان اثبت في قلب المدينة
 حركة لمحت عجيبة ، واحد المثلون يزدادون مع الزمن عدداً
 ومقدراً .

ومن هؤلاء اثنين رجل اسمه د حيت ، قال لعبد الله بن ابي
 امية على مرأى من النبي ومسمع : ان فتح الله عليك الطائف
 قال النبي ان باب لك ، فدية ، بنت غيلان بن سمة ، ففهمها
 هبة ، شيوخ ، بحلاء ، ان تكبت تحت ، وان قامت تحت ،
 فقبل باربع ، واندر بنان مع نهر كذا ، الاصحوان ، وبين رجلها
 كالاه المكنوه ، كما قال قبيل بن الحظيم :

لغرق الطرف وهي لاهية ككلا شفت وجهها لراف
 تنام عن كمر شأنها فلذا مشت رويداً تكاد تنقص

فقال له النبي : لقد غلغلت النظر يا عدو الله ، ثم جلاه عن
 المدينة الى الخي (جبل) بالمدينة على ثلاثة اميال من العقيق) .
 فلما ولي ابو بكر ابن ان يرداه ، واكلمه في شأنه عمر فقال :
 ان رأيت لا ضربت عنقه ، ولكن عثمان سمح له فيما بعد ان يأتي
 كل جمعة الى المدينة .

ومنهم أيضا رجل يقال له « التفاسي » وشي به بعضهم لمروان
ابن الحكم انه لا يقرأ من كتاب الله شيئا . فأرسل في طلبه
واستقرأه أم الكتاب ، فقال : « والله ما معي يناتها ، أو ما أقرأ
النبات ، فكيف أقرأ أمين ؟ » قال مروان : « انهزأ لا أم لك ! »
وأمر به ، فقتل !

وحديث نصر بن حجاج ، الذي قتل نساء المدينة بجهالة ، مشهور .
فقد أخطر عمر بن الخطاب أن يفيع حرجا عن العوائق وقد سمع
بأذنه منافقن يحبه وتذهب فيه .

وقريب منه حديث طويس الغني الذي قضى معظم أيامه بين
النساء يتحدث عن أسرار هذه ، ويروي أخبار تلك وحجبها لذلك ،
حاملة دفة خفية ، يتغنى في حلقات يعقدها له شباب المدينة في
نجوة عن العس والتسرفة والعيون . وفيما سئلت عن مولده قال :
« ولدت يوم قبض رسول الله ، وفطمت يوم مات أبو بكر ،
وخنت يوم قتل عمر ، وزوجت يوم قتل عثمان ، وولد لي يوم
مات علي ! »

بيد أن التخت ظاهرة اجتماعية ذات دلالة سلبية ، بمعنى أنها
تكشف إلى حد بعيد عن انحلال في أخلاق المجتمع ، ولكنها هنا ،
في الحجاز ، في ذلك العصر ، تشير إلى طفلان الحسن والحسين وبنو
المجتمع بالوان من الحياة هي تعبيرات عن انحراف الذي يرافق
النوئب والنشاط ، وإلا ، فليس من المعقول أن تكون الحجاز
تجتاز يومئذ مرحلة انحلال والحركة الإسلامية في عنقوان ازدهارها
وانطلاقتها .

نأمل هذه الحكاية القصيرة : سمع عمر بن الخطاب امرأة

في الطوافه اقول :

فمنهن من تسقى بعذب منيرة ، تسقى فالكيم عند ذلك فترت
ومنهن من تسقى بأخضر آجن ، آجن ، ولولا خشية الله فترت
فهم شكواها ، وبعث الى زوجها ، فوجدته متغير القم ، كرمه
الرائحة ، فخيرته بين خمس مائة من الدراهم وخلافها ، فاختار
الدراهم ، وطلقها .

ثم تأمل هذه الروح المرحمة التي تنظر باحرف عند النساء
والصالحين من اهل الحجاز . فقد روى عبد الله بن عمر - وهو
من الاتقياء المشهود لهم بالصالح - هذه الرواية عن نعمة : « خرجت
حاجة ، فرأيت امرأة حيلة تتكلم بكلام أوفت فيه إني كنت
بذيئاً ، فأدبفت نأفني منها ثم قلت : يا أمة الله ، أأنت حاجة !
أما تخافين الله لا فسدت عن وجه ينهر الشمس حسناً ، ثم قالت :
تأمل يا عم ، فأنني ممن عناه العرجي بقوله :

أما طلت كساء الخمر عن حر وجهها
وأدنت على الحدين برداً مهمللاً
من اللاني لم يحجبين بيفين حبة
ولكن ليقتلن البري المنفلاً

فقلت لها : وفاني أسأل الله ألا يعذب هذا الوجه بالنار !
وبلغ ذلك سعيد بن المسيب وهو سيد التابعين وإمام من أئمة
الفقه فقال : وأما والله لو كان من بعض البغضاء لقال لها : أعزبي ،
فتعك الله ، ولكنه ظرف عباد اهل الحجاز .
واسمع هذا الحديث بين امرأتين من اهل المدينة تعذل احدهما
الآخرى . قالت الاولى :

- ذكروا في الحكمة : لا تلم من أساء بك الخلق اذا جعلت
نفسك فريسة للذهبية . ومن لم يكن عوناً على نفسه من خصه ،
لم يكن عنده شيء من غفلة الرأي . ومن قدام على امرئ ، وهو
يعبر ما فيه من المنفعة ، حافظ على نفسه لئلا يهدل ، وضيق الحرم .
واجابته الثانية :

- ليس امرئ الى الرأي يميله ، ولا الى العقل فيدركه ،
أما سمعت قول الشاعر :

ليس خطيب امرئ يخطب يسير لا يميلك عنه مثل خبير
ليس امرئ امرئ يسير يروي ولا يقيس ولا يحسب
لما الامر في امرئ خفرت محذرات فأمور بعد الامور

واستأنس امرؤ من ذهاب احد من العشق لا ، فقال :
« نعم ! الخطيب الذي ليس له فضل ، ولا عنده فهم ، فان من
في طبعه ادنى ظرف ، او معه دماء اهل الحذر ، وظرف
اهل العراق ، ولا يسر منه ! »

وروى الاصحفي رواية لا يها مدى صحتها ، ولكنها تعبر تعبيراً
واندفاعاً عن طبيعة الخبير ، وانكشف سرائر جبهته النسيبة ،
سواء كانت موضوعية او واقعية قال :

فداء عراقي بميدان من حمر العراق الى اندية ، فباعها
كلها بلا سود ، فشكا ذلك الى الدارمي ، وكان قد نزلت وتوك
الشعر وتؤم المسعد . فقال : ما نجعل لي على ان اجبال لك بحيلة

١ صف الخبير .

٢ جمع حمر وهو النقاد .

حتى نبيها كلها . قول : ما شئت . ومحمد الدارمي اني ثياب
بسكه ، فلقها عنه ، وعد اني مثل شاة الاول ، ونظام شعراً
رفعه الى صديق له من الفقهاء ، معنى به ، هذا هو

قل لمليحة في الخمار الاسود اذا فعلت واحد منهم
قد كان شراً للعدالة ثباته حتى خطرت له ببيت المسجد
ردي عليه صلاته وصيامه لا اقلبه بحق دين محمد !

شاع هذا الغناء في المدينة ، وقالوا : رجع الدارمي وتعشق
صاحبه الخمار الاسود ، فلم تنق مليحة بالمدينة الا اشوت حمداً
اسود ، ورائع النجاشي جميع ما كانت معه !

وشأن الخمريين مع المرأة والعشق لا يختلف في شيء عن
شأنهم مع الغناء والشعر ، واخر فيما بعد . فقد ملأوا الدنيا ،
ديارهم تلك ، باضر العين والشعراء ، ونهاك الساجدين منهم
والكبراء على السماع والشراب وفرض الاشعار الغزلية الرفيعة ،
والجوارى والقبس في هذه المصير من البدائع والروائع ما تلا
حزائي الكتب العربية ، ويكفي ان يستعرض القاري سيرة
شاعر مثل عمر بن ابي ربيعة الذي بلغ عدد معشوقاته ما يقرب
من العشرين ، ثم سيرة معن كان سريح او معبد ، ومغنية كجيلة
التي كانت تسبقها المدينة استقل الفاتحين ، وشبهه في موكب
الملوك كلما اقبلت او صعدت ، ليدرك نهايت الجوارى على اذاع
الروحة والنادية ، ويعرف انه امام ارواح شفاة ساهت في
لطفها وحسن ثقلها للحياة ونصرفها بها ...

هذا القلوب في حب المرأة والنطق بها ، هذا الاسراف في
الغناء وسماعه ، هذه الغزارة في تدفق القرائح الشعرية ، هذا

الطرف عند النجف والقراء والحفاظ والمتعبدين ، وهذا الولوع
بالحيلة الفنية الخالصة من شوائب اليوم والارقام ، هذا الانصراف
في مجموع الشعب عن السياسة ومثلكها ، هذه الحرية النفسية في
الاستجابة للأحاسيس الجلية ، كل ذلك جعل المدينة - والحجاز
بصورة عامة - غير قابلة لأن تكون مركز العصية ، عصية الخلافة ،
ورأى الإمام علي أن موقفه السياسي في الحوزة ، بعد مقتل عثمان
وانقسام قريش واتسع الجبهة الإسلامية ، أصبح مضطعاً ، فانتقل
من المدينة إلى الكوفة ، وانتقل معه الفقهاء والنسك والقواد
وصفوة الاصفياء من اعرافه ، كما انتقل إلى دمشق من بعده
العامعون بالوظائف والرافعون إلى مبيعة علي والمؤثرون من
الامويين وسائر القريشيين . وبذلك افقرت الحوزة من وجهائها
ومستفذيها ، وخلا الجو بلا من بعض الشاغين والمضطادين في ائمة
العكرة ، وأورغم مروان بن الحكم الذي حصر واقعة الجمل ،
وحرض الناس على محاربة علي ، ولكنه هزم فيها دون أن
يصاب بأذى . مرجع إلى بيته في المدينة يدعى على الهاشميين
ويؤلب الناس بحمة ، حتى إذا قتل الامام واستتب الامر
لمعاوية هدأ في وجاوه لا يدي ولا يعيد .

ولكن الحوادث تتابع بعد موت معاوية بشكل أهم معه
امر الحجاز اهملاً تماماً ، إذ كان من سياسة معاوية أن صرف
الحجازيين عن الاشتغال بالسياسة ، وتركهم اقباسهم وجوارحهم
وعشاقهم وشمرانهم يلهون بهم عنه . وكان من امر الحسين بن علي
أن تخلى الحجاز وذهب إلى العراق ، وعند ذلك نهض عبد الله
ابن الزبير ، واستقل بالحجاز ، وأخذ بجيش الجيوش ويعيد العتد

لفتح الامصار واحذ البيعة . وسجل في بوهة قصيرة تقدماً كبيراً
في الحرية ومصر والعراق .

غير ان ابن الزبير لم يكن من البراعة السياسية بحيث يستغل
الاحداث وملايشتها استقلالاً بذاته من اهدافه ، اذ شدد الكثير
على امويي الحجاز من جهة ، وسمح لهم ، من جهة ثانية ، ان يغادروا
البلاد الى دمشق . فكان من مروان بن الحكم ان قرأ الى
الشام عوضاً عن ان يبيع ، وقد اوشك مرة ان يتقدم من خصمه
ويبايعه !

وهكذا اقلت الامر من يد الحجازيين ، اذ وصل مروان
فراى الامويين ، بعد تنازل معاوية الثاني ، في حالة من الشقاق
غريبة . فجمع شملهم ، وتولى قيادتهم ، وحارب الطامعين وعلى
رأسهم الخخاك بن قيس وعمرو بن الاسدق . ثم هاجم ان
نعتب نفسه خليفة . بيد انه لم يعمر كثيراً ، فمات بعد سنة
اشهر من ولايته وحل محله ابنه عبد الملك .

٦ - ميدان الاستبداد

عندما يضع زيد من الرؤساء قانوناً ، ينص مثلاً على : « يجب
على الناس ان يحبوا امرة زيد » مسادة اولى ، واشادة الثانية :
عليهم ان يحترموا امرة زيد . ثم يضي - وهو الرئيس - في
تنفيذ هاتين المادتين اللتين وضعنا في قانون منه لنفسه وللناس ،
وواج يطبقه على نفسه وعلى الناس ، مما اذا تكون النتيجة ، نتيجة
ذلك القانون وتطبيقه ؟

لا حريم أنت حائر الأسر متفق مع روحه هذا القانون ، لا
 لأن كل أسرة تشعر بالخيف الذي ينفذها منه فعصب ، بل لأنه
 يتعارض ، في جوهره ، مع منطق الفكر الإنساني . فالحب والاحترام
 عاطفتان لا سبيل إلى إلحادهما عند الآخرين بمجرد أن نقول يجب
 ويجب . فمن أين جاء هذا الواجب ؟ وكيف نكون ؟ ومن
 أقر وجوبه ؟ وما يقر وجوبه ؟ وإذا يجب أن نحب ونحترم
 أسرةريد لا أسرة محرومة ؟ وإذا أسرة محرومة لا أسرة بكر ؟
 هذه الأسئلة وما يتفرع عنها من فساد فكري وفلسفي ، وما
 يتقلب عليه من جدل وحجج ، وما يقضي إليه من مصداق دعوة
 الوجوب في دعوى زيد الرئيس ، تحول دون تعميد قانون زيد ،
 وإن كان رئيساً ، وتضطر زيدا نفسه إلى إلغاء معارضة على قبول
 وجهة نظره بالقوة . وهذا هو الاستناد . والاستناد بطوريه
 إذن ، في قرارة قراره ، على غير في المنطق عند المسند ، لا
 يثبت أن يعرض عنه بـ يظهر من الموقف ، في العذر والذبح ،
 والمراوغة والقوة المادية .

ذلك هي سيرة كل مسند . فقد صنع هتلر قانوناً ينص على أن
 العنصر الجرمانى أفضل العنصر البشرية في العلم ، وذلك في حق العلم
 كله أن يدين للجerman بالصدقة . ورغض العلم هذا القانون ، إذا لم
 يقيم عليه أي دليل ، كما هتروا بالقوة ، إلى الحرب ، وكان ما كان . . .
 ونلك هي المشكلة التي وقع بها الامويون عينا وعمما فقد
 ادعوا أن الشام أحق بالخلافة من الخوارج ، ثم أن قريشاً أحق من
 حائر القبائل العربية ، ثم أن بني أمية أحق أخيراً من سائر
 القرشيين . فما طليب إليهم الدليل على هذه الدعوى ، جهزوا

أهل الشام في جيش كبير ، وأدموه حجة على حقهم ، ولكن
الحيش حجة لا يقتنع بها أهل العراق ، ولا أهل الحجاز ، ولو
أفتاه عن آخرهم ...

هذا الأمران من قبيل التسميع على الخاضع العراقيين
والحجازيين ، وهذا الأمران من قبيل العراقيين والحجازيين على
دعوى الواقع الشامي والنمساك بغيره وفكرة فتح ميدان
الاستبداد ، وفتح في الفول عدم التسميع بـحكم والولاية ،
فراح هؤلاء يتبركون في كبت الفكر العراقي ، والأرجحية الحجازية ،
ويخوضون معركته إلى الأذهاب والتعسف والأوهام قرب
منه إلى حفظ السلام أو حوث الشريعة كما كانوا يعبرون ، وكانت
حجته الوحيدة في بونكون من جرائم ، ويقدمون عليه من
دعوى هي إرادة السلطان ، وإرادة السلطان ، وهي في نظر
العراقيين والحجازيين حجة واحدة ضعيفة لا أساس لها من عدل ،
ولا من منطق ، لأن تؤيد دعوى غاشية معصية على التسميع أن
يهددها وأن يقهروها ... إلى أن يرجع الحق إلى نصابه ، والعدل
إلى كبرائه .

وأول من جأ إلى العنف من ولاية الأمويين - وكان من
الطبيعي أن يلجأ إليه - هو يزيد بن أبيه الذي قدما البصرة
بعد أن ولّاه معاوية ، والتي انتهت الخطبة الشهيرة المعروفة
بـ « البتراء » لأنه لم يبدأ بحمد الله والثناء عليه ، حيث قال :

« يا أيها الخوارج مهرون بدماء جمهوري تم غير مستحق ذلك هوى ، ووثاق
السلطة مقصود أن لا يصبوا حق - من ولاية المسلمين - وثاق لا يبرون يفتون
تقوى مصوية في حذر - معكم بمرس - معكم - ووجوهها في مريض الحذر .

دأب بعد ، فان أجهت أجهلاً ، والضلالة العيب ، والنهي
 الموقى بهذه على النار ، ما فيه سفاهة ، وبشتمل عليه علمؤكم من
 الأمور العظام ، ينبت فيه الصغير ، ولا ينحاش عنها الكبير .
 وانتهى من هذه التقريعات القاسية ، التي زرع أحقاداً جديدة
 في نفوس البصريين ، إلى التهديد والوعيد .

« ... فإني لا أؤتى بدلاج إلا سفتك
 دمه ... وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة : فمن غرق قوماً أغرقناه ،
 ومن أحرق قوماً أحرقناه ، ومن نكب بيتاً نقبنا عن قلبه ، ومن
 بش قبراً دمناه حباً فيه ، فكفوا عني أيديكم وإنسكتم أكف
 عنكم يدي ولدي . ولا تظهر من أحد منكم رية ، بخلاف ما
 عبه عنكم ، إلا ضربت عنقه . »

ولكن أهل العراق يعرفون أن زياد ابن أمية يعني ، وهو
 مجهول الأب ، وضيع النسب ، ويعرفون أن معاوية استلحقه
 بنسبه ثقة مدحسته واستنصراً به على عني ، ويعرفون أيضاً وإيضاً
 أنه كان عامل الأمام والحجاز إلى معاوية إية ، على وثيقته ، وأنه
 لا يملك من وسائل الأيد غير سيوف أهل الشام ، فما كفوا عنه
 أيديهم ولا أنسكتم ، بل راحوا يسخرون منه ويلصقون به أفع
 التهم وأشنعها ، وراح هو ، من جابه ، ينفذ توعداته ، ويضرب
 الأعناق ، وراحت الأحقاد والتواتر تكاثف وتراكم ...

وعند هلك النخيرة بين شعبة وبي الكوفة من بعد زياد ،
 فخص إليها من البصرة ، وهناك جمع الناس في المسجد الجامع
 وخطب قائلاً :

« ... ان هذا الأمر اتاني وأنا بالبصرة ، فاردت ان اشخص

البيكو في العينة من مرحلة البصرة ، ثم ذكرت انكم اهل حق وان
حقكم طلق ما ادفع اليه ، فالتفتكم في اهل بيبي ، فخرته
الذي رفع مني ما وضع الله ، وحفظ مني ما ضيعوا ،

ومنذ فرغ من هذه الخطة التي وضعها العجيب والقويم والتكبر
انها كانت عليه الخصى من فوق الشجر ، فجلس حتى امسكوا ، ثم
دعا قوماً من خاصته وامرهم ، فخذوا ابواب المسجد ، ثم قال :
« ليأخذ كل رجل منكم جيبه ولا يقوثن من جلبي » ،

ثم امر بكريسي فوضع له على باب المسجد ، ودعاهم اربعة
اربعة يحلفون له : « ما من آمن حصك » ، فمن حلف خلاله ،
ومن لم يحلف حبه ، وعمره حتى صار الى ثمانين رجلاً ، فما ترك
المسجد الا وقد قطع ايديهم !

هذه الاساليب الادارية القسرية ، البالغة في قسوتها ، مكثت
زيد من ادخل البعب في غيوب العراقيين ، ووعرت له هدوءاً
نسبياً رفع من مقدمه في نظر ابيه الامويين ، فلما هلك ، حل ابنه
عبدالله محله ، فتخذ من سيرة ابيه قدوة ، وراح يتقرب من
اهل الشام بزيادة الضغط على اهل العراق ، والتجوء الى تدابير
امره فاحرم الى ان اقبل الخليفة بن علي ، فانفجر العراق حينئذ
انفجاراً هائلاً فتتل في سلسلة ثورات حولت البلاد كلها فيها ومن
فيها الى هيم مشعل .

ذلك هو الاصل الذي توفي اليه فسوة الخراج الشهيرة ، وهذا
هو الموقف الاداري ، الذي يجب على الامويين ان يفقهه ليصونوا

منكم في العراق ، ويحفظوا هيتهم في عوس اهلبه ، دهم عليه
زياد وسته ، انطامعين في الولاية ، اليه ، فكان الحجج اول من
نبا ، واقضى حنن زياد ، ونسج على منواله . وقد استغرب اذا
علمت ان في المؤرخين من يقول : ان زياد يحارب في اعراقه
الى ارومة تقيية ، اي الى ارومة الحجج دهم .

هالك . يذكره ان ابي الحديد في شرح الشيخ : فامس زياد
هو زياد بن عبيد ، ومن الاس من يقول عبيد بن قلاب ورئيسه
ان عبيد ، ولا يذكرون بقولون : ان عبيد كان عدواً واه ، وفي
ان ابيه زياد كان ع . وانظر . وسته زياد اعير ابيه حول ابيه
والدعوى التي استحق بها ، فحق مرة زياد بن عبيد ، وهي امه
للحرب بن كعدة بن عمرو بن علاج النعمي حبيب العرب وكان
نحت عبيد ، هذا الخلف بوزارة السموذي ، وهي ان ام الحجج
كانت تحت الحارث بن كعدة ، حين ان يتزوج عبيد يوسف ،
اذ كانت هذه القرابة بين الطالبيين في البيتة ، ان سكن في
الوراثه ، او في الوراثة ، ان لم يكن في البيتة ، او في كراهها
معا .

ولكن القيادة بين زياد والحجج اصل سعرة وحيعة في
اكثر من ناحية : في البلاغة الرائعة عند كل مسحة ، في التسمية
الشديدة ، في السلوب الادارة ، في حجة التمس ، في نيل الى
العنف لتحقيق الذات وتوكيد السلطان . واذا لم فرب بين
تصرفات الرجدين ، هالك هذا التشابه في حريتها ومساكنها .

١ . ثم ر دعوى ملوية في ان زياد اعور من ابيه

وأعجب من ذلك كله ان العذر كله يجمع من فيه روع الى الاستعداد
لرغبة إجماعية لا يعبر إلا عنه كيف نشأت ، وما هي أصوه ، ولا
يستبعد أبدا ان يكون توفيق مدونة ، على قصد مدونة ، هو
الذي من الولاء والامراء والساسة على المرد ، وأغرام ، مضاعف
القوة حيناً ، والمراوغة حيناً ، والاختيار حيناً ، والادارة التي
عند المسافة بين طبيعة الشاء الواقعية ، وطبيعة المواقف التورية ،
وطبيعة الحيوان الاربعية ، وبعدها هذه الصانع في بيده حول التيار
الساكن والطبع بها .

تأمل الشاء معاً من الخطيب الموقوف فيها بعد هلاك يزيد ،
والتدبر بينه مدونة من خلافة كيف تحالف الامويون فيها بينهم
على التواضع الجديد ، وما سبب دواهم ، وأقبح ما حرّم حتى قبل
مروان بن الحجاج من التورية ، هارباً من عدائه بن الربيع ،
وكيف احتضر مروان الى خوف معركة ليتمكن من نصبة الامر ،
ثم كيف سبب الخلافة شرط ان لا يكون في ولده من بعده ،
وكيف لم يحل على مريضة ابنه عبد الملك ، ثم كيف أخذ عليه
أحدى نسائه ، وكانت ام وحيته بعدة مقلده حتى لا تأمن ذلك
كله ، بعد ان روي الاستعداد كانت قد تعففت في النساء والرجال
والكبار والحدود من اناء ذلك العصر .

في هذه الظروف المصيدة الحثيثة التي تعمها روعة الاستعداد
ارتقى عبد الملك بن مروان منعة الخلافة ، وكانت خلافة سما
تبعياً عن سيرة الصبيان ، لأن الامويين لم يكن معهم في ارتقاءه
وأي ولا حياة ، بل سائر القبايل والامصار .

واضحني عبد الملك ذلك خرج الموقوف ودقته ، فخطب في

مكة ، بعد قتل عبدالله بن ربيع وقال : « اني والله ما انا
 خليفة المنصف (يريد عثمان بن عفان) ، ولا خليفة المداين
 (يريد معاوية بن أبي سفيان) ، ولا خليفة المأفون (يريد يزيد
 ابن معاوية) ، فمن قتل رأسه كذا ، قتل له سيف كذا ... »
 واذا انت رجعت الى اكثر مواقف عبد الله وجدت كلمة
 « سيف » تعود مراراً وتكراراً على لسانه ، فقد خطب مرة فقال :
 « اي الناس ! ان الله حد حدوداً وفرض فروضاً ، مما زلم
 تزدادون في الذنب ، ونزداد في العقوبة حتى اجتمعنا نحن وانتم
 عند السيف ... »

وغير مرة الى ابنه الوليد ، وهو يسكن عليه عند رأسه فقال :
 « يا هذا ... احذ من الخيانة ! اذا انا مت فشر واثر ، والبس
 جلد ثور ، وضع سيفك على عنقك ، فمن ابدي ذات نفسه لك ،
 « ضرب عنقه ، ومن سكت مات بدائه ... »

وما ورد اليه كذب الحجاج بخبره بخروج ابن الاشعث ،
 خطب في الجامع فقال : « انت اهل العراق طال عندهم عمري
 فاستمعوا فسدري ، انهم سخط عليهم سيوف اهل الشام حتى
 ينفقوا رءسك ، وذا بالمعروف رضك لم يجوزوا الى سيفك ... »

نحن اذن امام خليفة فم بالسيف ، وسيعيش على السيف ،
 ونحن بقر من الا بالسيف ، ونحن يرى اصلح من السيف لادارة
 البلاد وسياسة العباد .

« علق ابن اسحق النضر على هذه الخطبة بقوة بخطب عبد الله : اما والله لولا
 سبك من هذا المنصب ، وسبك من هذا الدين ، لكانت معي يدي من اجتراف ، والله
 لا احبها بوزائفة ولا سابقة ، ولا غراية ، ولا مدحوري شوري ، ولا بوجبة ... »

هذا هو فيه الإدارة والسياسة بصورة عامة ، فكيف يكون
رأيه في إدارة العراق خاصة ؟ ومن هو الرجل الذي يتولى حكم
العراق ، وبذلك حله مع الأمويين ؟ أين هو الخلف له أولاً ، وأبني
أمية ثانياً ، ولثالثاً ، وبكره العراق وأهله رابعاً ، وبحسن
استعمال السيف على أعف ما يحسن استعمال السيف أخيراً ؟ من
هو ؟ وأين هو ؟

فكر طويلاً في هذه المقدمة وفتش على جميع وجوها ،
فرأى أن يستدير . ثم جمع أهل بيته وأولي النجدة من جنده ،
وقال :

« يا أيها الناس ، إن العراق كدر مؤده ، وكثر غوغاؤها ،
وآمدلج عديها ، وعظم خطيئها ، وظهر ضرارها ، وعسر إحداث
نيرانها . قبل من عهد هم بسيف قاطع ، وذهن جامع ، وقب
دكي ، وألف حمي ، فبغده نيرانها ، وبودع غيلانها ، وينصف
مظلومها ، وبدأوي الجرح حتى يندمل ، فتصغر البلاد ، ويأمنع
العباد ؟ »

فكث القوم ولم يشكروا أحد ، فقام الخجاج وقال : « يا أمير
المؤمنين ! أيا للعراق . فأجابه عبد الملك : « اجلس ، فليست هناك . »
وقب كلامه : « ما لي أرى الرؤوس مظرفة والألسن معنقة ! »
ورجبه أحد ، فكرر الخجاج : « أيا بجدل الفسق ، مظفر نار
النفاق ، وفاضل الظلمة ، ومعدن العفر والعقوبة ، وآفة الصكر
والريبة . فرداه الخليفة : « عليك عني وذلك ، فليست هناك . » ورجع
للمرة الثالثة : « من للعراق ؟ » فكث القوم وقال الخجاج : « أنا
للعراق . » فقال عبد الملك : « إذن أضلك صاحبها والضافر بعناقها . »

وان تكن ثمنى يا ابن يوسف آية وعلمة في آياتك وما علامتك
قال : ه العترة والعقود والافكار والبسط والارورار والادب
والاعمال والخفا والبر والتأهب والحرم ، وخوض غمرات
الحرب بحسن غير هيب ، فمن جادني قطعته ، ومن غاوي قصته ،
ومن خلفي برهته ، ومن رد مني كرمته ، ومن طاب الامان
اعطيه ، ومن سر الى الله بجهته ، هذه آتي وعلامتي ، وما
عليك يا امير المؤمنين ، ان تبوءني هذا وان كنت الاغنى مقضاء ،
والاموال حراما ، والارواح بريئة ، وانت في الاشياء نقاء ، ولا
يستبدل في امير المؤمنين ، فان الناس كثير ، ولكن من يفهم
هذا الامر قليل ، فاجب عبدك : انت له ، ما الذي تحتاج
اليه ؟ قال : قليل من الجند والمال ، فده له صاحب الجند
وخزن المال ومطلب اليها لجهنم ، يحتاج اليه .

واثبت الى هذا الثبات الذي ابداه الخديج على ولاية العراق ؟
اريد الى هذه الذبعة الحاضرة التي انطبقت على الخديج نفسه ؟
ان يسمى موقفه هذا صفة ولاية ، ويشعر لدى كل لحظة
بعد اليوم ان حياته في خطر ، وسيحقق منه هذا الشعور وحده
هذا من هذا التاريخ .

سيحرض اذن ميدان الاستبداد ، وسيكون المحامي فيه على
جميع من تقدمه وءخره ، انت . يكن عن الفتنة وعقيدة ،
ودعاء عن همه على الاقل ، ويدواء ما يظني في ضيقها من
الحقاد . والويل له كل الويل اذا فطر فطرت به رحمة ، اولوت
سيفه رقة ، واخذته بلسان عطفة !

ولكن من هو هذا الذي رجع بنفسه من تدهمه في انون

الطفيلان؟ من كان ومن يكون؟ وما خبيته؟ وما دهاه ليضر
نفسه ويحملها على ظم الناس؟

من حوايج الحاج

١ - الطائف

يقوم الى الجنوب الشرقي من مكة المكرمة ، على بعد اثني عشر فرسخاً ، جبل كبير ، تمتد الجواب ، منشعب الفروع ، وحب الاطراف ، يقال له : جبل غزوان ، .

يتفرع هذا الجبل في الجانب الشمالي الغربي من امتداده الى جهة فروع ، فتوزع اسمة عدة هضبات ، تنفرج فيما بينها عن واد دعاء العرب : بطن وج ، .

هناك ، في ربوات غزوان ، وفي بطن وج ، كان يقيم بنو عدوان في الجاهلية الذين انبتوا ، حاكم ، العرب ، عامر بن الظرب المدواني المشهور بمدالة قضائه ، وحفاء ذهنه ، ونزاهته في الحكم . وفي ذات يوم ، بينما كان رهط من بني عدوان يرعون غنهم في وعر الجبل ، اقبل عليهم رجل رث الثياب ، غاري القدمين ، ولكنه قوي البنية ، عريض الشكين ، وطلب اليهم ان يكونوا في خدمتهم ، يؤذي الهام التي يؤذونها ، من حرث الارض ، ورعي الماشية ، وغزل الصوف . فلما استل عن اسمه قال : وانا قسي بن منبه بن ... بن ... الى ان وصل الى منزله . ولم يكن ، في الواقع ، غير عبد آبن حرب من سيده ، ابي رغال ، الذي قال

فيه حسان بن ثابت الانصاري

إذا التقى فاحركم فقولوا هزيم أعدائنا أي رغال
 أبوكم أخبث الأبياء قدماً وأتم مشهوره على مثل
 أما نبيه الحقيقي فلا يزال مرة من أشرار التاريخ .
 وطير الرعاة خبر قسي أي رعي القبيبة عامر بن الظرب ، فقتل
 به وزوجه بامرأة عدوانية ، بعد أن أدخله في فوهه .
 وكان من أمره ، على نواحي الأعوام ، أن خيف عدداً كبيراً
 من الأولاد ، استطاعوا فيما بعد أن يتولوا بالقوة على الجبل
 والوادي معاً ، وأن يطردوا أخوامهم العدوانيين منها مخيفين
 عراقهم طويلاً كثيراً فيه الأعداء والرد ، والكسر والحر ،
 وانتهى أخيراً بالسلام بعض العدوانيين ، وقرار البعض الآخر .
 وما هي إلا أعوام نلت الغلبة حتى انقلب اسم قسي الغالب
 إلى « ثقيف » الذي « ثقف » أرض بني عدوان ، أي لقبها كما يلقى
 الضال كغزاً ضائعاً .

وكانت طبيعة تلك الأرض التي تجودها السماء بالمطر ، والجبال
 بالنبات ، والهواء المعتدل بالحبس - كانت تسبح بنشأ الماكن
 وعمارة المنازل . فهجر بنو ثقيف المغاور والكهوف والأكواخ ،
 والحيام ، تدريجاً ، وراحوا يسكنون البيوت في سفوح هضاب
 غزوان ، على الجانب الأيمن من بطن وحي ، لاسيما بعد أن كثرت
 ولدهم ، وعظم شأنهم في العرب ، وأصبحوا هدف الغزوات والجلات
 من مختلف القبائل والعشائر .

ثم انتسج ، بين القرية الثقيفية الناشئة والقرية القديمة مكة ، ضربة
 من التحالف الطبيعي الذي تفرضه الحضارة والجوار ، ويتطلبه دفع

الفرات وحمرة السكك . وهكذا . . . أصبح القرشيون ، والخيرون
خجعة ، اختلفا التفتيح يرددون مديحهم ، وينشدون نعتهم في المقات ،
ويعتمدون عليهم في كثير من الظروف والسياسات .

عاشت قرية بني تميم دهرأ نسو وتزداد سكاناً وعمراً واسمها
« وادي وبع » الى ان قدم اليها ذات يوم رجل من اقارب الصدق
يقال له « الدميث » بن عبد ملك من اهل بني حنظلة ، وقد
جاء لاجل ما سبب يروجو له في تلك القرية ، وافر بحمل
مداً كثيراً ، وكان من قبل يدرس التجارة في ناحية حضرموت .

وقد دعا الرجل بني تميم ، وطلب اليه منزلاً شيع القبيصة
معهود من صاحب النقدي . ومنه طمان به المقام ، فقدم الي الرئيس
مستريحاً ، فسمي عظيم ، هو ان يجي طويلاً (اسوار من الماء)
حول القرية كما سمع به القرية من الدخول . قال مسعود :

- فكرة جيدة مائة ولكن تحقيقها يحتاج الى من كثير !

- نعم نعم ، وفي رجة واحد اليك .

- هو !

- ان تروحو في احدى تلككم .

- ليكن ، فانت اهل ونحن كرام .

ونم رواج الدمونة بمرح مس بكن ، وافيت الزينات ،
واحدثت القبيصة كما به ، حتى اذا زعمت اليه العروس يومئذ العمل ،
فد بني الصوف وانتهى الامر اصبح اسم القرية ، الطائف .

والطائف اول بعد عربي ثلث فيه الثقافة الحضارية عند عرب
التيمن ، فكانت في صحراء البدوة واحدة حاضرة ، لانها ذات
مزارع ونخل واعذب وموز وسائر الفواكه ، وبها مياه جارية

تصب منها الى نباله .

وعندما اراد النبي محمد في مكة ، ومنع القرشيون عنه وعن امرته الطعام وممنوا بقتله ، فرغ الى الطائف يستعدي لها على ظالميه ، ويستجدد في محنته ، وينفهم رسالته ، ولحقهم . وهم اهل الطائف - افتوا احداهم برمولة بالحجارة ، وبسحرون منه ، ويقدمونه . فقع التهم والزرايات . فقام على وجهه هارباً الى ان رقا طائف بعض فتيان قرش القبيح في الطائف ، فدمشوا اليه بعقود من العنب يدفع به جوعه وطشه . ذلك اول ما كان من اهل الطائف في بدء الحركة الاسلامية !

يقول باقوت : . . . وهي : مع هذا الاسم الفخم ، بليدة صغيرة على طرف واد ، وهي محلتان : احدهما عن هذا الجانب يقال لها : طائف قديم ، والاخرى على هذا الجانب يقال لها : الوهض . والوادي بين ذلك تجري فيه مياه انداخ التي تدفق فيها الازهر ، يصرع شطير رائحتها اذا مرت بها ، ويوشها لائحة حرجة ، وفي اكمامها كروم على اكفاف ذلك الجبل . . .

اما مناحي ، فهو من تصد والعدوية والاعتدال ما جعلها معيب الطيفة الارستقراطية من العرب ، اذ كانت البئذ الوحيدة التي غر بأضوار من البرد الشديد في فصل الشتاء ، بالاضافة الى ما يغمر جوانبها من الاشجار ، والكرمة خاصة . ويحكى انه لما حج سليمان بن عبد الملك مر بالطائف فرأى يبادو الزبيب ، فقال : وما هذه الجرار ؟ فاجيب : هذه ليست جراراً ، ولكنها يبادو الزبيب . فقال متعجباً : دقة ذرة قمى بأي ارض وضع سبامه ، واي ارض مهد غش فروغه ! ، وقال الشاعر محمد بن

عبد الله النخعي ، يصف زينب بنت يوسف اخت الخواج النعمة
والرفاعية :

تشتو بمكة نعمة ومصيفها بالطنائف

وتقول الأسطورة^١ : ان الطائف هذه كانت في أيام العرب
البائدة ، في أقصى العصور ، مقراً لعبد ضخم من بزم من سام بن
نوح ، جاء مولده ومن زعمه وافقوا فيها دهرأ دوا بعده ،
وتذكر انه هم اول من كتب بالعربية ووضع حروف الميم ،
وهي حروف ا ب ت ث ... النقة والعشرون حرفاً . فاذا صح
ذلك - وليس ثمة ما يتبع صحته ، لعلنا بناربغ الحروف العربية -
كان اشارة الى احالة الروح النخري في الطائف ، وعق بدوره
في تاريخها .

وعندما جاء الاسلام كانت للطائف موقف معارض ، شديد ،
اذ راح اهلها يسمرون اعداءه ، ويؤثيرون عليه القبال
هذا في فجر الدعوة الاسلامية . فها الشنة أمير الرسول العربي ،
وقويت شوكنه حاصر الطائف بعد غزوة حنين ، ودام حصارها
خمس عشرة ليلة . وطائف تقب هي التي ابث ان نسيم ، وكان
عروة بن مسعود وعيلان بن سلمة ، ومها من سادات تقب قد
ذهبوا الى جرش يبعثان صنعة الخويق والذهبات لمصار ، لما احسوا
من قصير رسول الله إياهم ، ولكن المدينة سالت قبل عودتهما ، فلم
يشهدا الحصار ، ولا حينئذ قبله^٢ .

١ مروج الذهب ، ج ١ ، ص ٦٠ .

٢ تاريخ ابن خلدون : الكتاب الثاني في أخبار العرب واجيالهم .

وكان استسلام الطائف للمسلمين في سنة تسع من الهجرة ضاملاً
 آدم يشاء النبي ان يدخلها غزوة ، فكتب لاهلها كتاباً وفكك عنهم
 الحصار .

على ان هذه الغزوة تركت في نفوس اهله اثرأ لا يمحى ،
 فظفروا يناصرون اعداء آل محمد ، منذ تسم السلطة عثمان بن عفان ،
 وانحازوا بمحبتهم الى صف معاوية واعوانه .

في هذه البنية العريقة في حضارتها ، الموعظة في عداوتها لبيسي
 هاشم ، ولد الحجاج بن يوسف الثقفي عام ٤١ قهجرة (٦٦٣ م) .
 ابي في السنة ذاتها التي يبيع بها معاوية في القدس .

٢ - بنو ثقف

كان العرب الافديمون يحفلون بالسب قيمة من القبر العليا
 توازي في نظرم الفضل والادب والاخلاق ، أو نسو عليها في
 اكبر الاعيانات والحالات . فمن لم يكن منحدراً من قبيلة
 عريقة في الجاه والسؤدد ، مثل اني استكلام والفضائل سبلا ترفع
 ذكره ، ونعوض عن نسيه ، ونشط اني تحقيق اعمال جسيمة
 يدفع بها ما يعترضه من تنكر الجماعة لأجداده ، واستكادها السابق
 فضل .

وهكذا ... نجد ان العرب التقوا ، اول ما التقوا ، عندما
 نشأت الحركة الاسلامية ، اني القام بها والداعي اليها ، يلحظون
 فيه ، اول ما يلحظون ، ابرسته ، فاداهي في « قريش » .
 وقريش كانت تتمتع في الجاهلية بما يشبه السيادة على غيرها من

قبائل العرب . وجهه الاسلام فوطد هذه السيادة وجعلها حقيقة لا يرقى اليها ريب ، ولا يحجر احد على الوفوف امامها . ولكن سيادة قريش كانت عبثا ثقيلا على اكثر القبائل التي تنافسها في العدد والنفوذ ، وتراحم على السلطان والسيطرة ، مما جعل تلك السيادة القريشية ينزع احدد وضمائن ، وفن وثورات تظهر نارة وتكمن زارة .

وكانت ثقبف ابور القبائل التي تنصدي منازعة قريش السيادة ، ونطلمح اني اخففت حوزم واحتلال مكانها حتى ان احد ابنائها ، وهو امية بن ابي الصلت الشعر المعروف ، زاحم ، او خطره ان يزاحم الذي على السوة ! وحديث ذلك مبسوط مشهور في اكثر كتب التاريخ .

غير ان التقيين لم يكونوا بمنزلة الاجنابية الاصلية التي يشتدوها . وإن كان لهم من الاحترام وبعد العيب وبسطة الجاه ما جعل سائر القبائل تحملهم وتخشى بأسهم في جانب ، ومن الفريشين على مخالفتهم ومساندتهم في الجانب الآخر .

نأمل ان مناوئي الدعوة الاسلامية أسفوا ان لا يكون القرآن قد « نزل » على رجل في القريتين عظيم ، والرجل الذي يسمون هو احد بني ثقبف ، ومن المؤرخين من يقول : انه عمرو بن مسعود ، ومنهم من يقول : انه حبيب بن عجرة ، وكلاهما من ثقبف . وهذا ما حدا الوليد بن يزيد ، الخليفة الاموي الشاعر ، على القول في معرض الفخر :

اذا ابن عظيم القريتين ، وعزها ثقبف وفهد والمعصاة الأكار

كانت ام الوليد بنت محمد بن يوسف ثقبف اخ اصح .

ثم نزل كيف يفخر أمية بن أبي الصلت بقوله :

فومي ثقيف ، إن سألت وأسرني وهم أدافع ركن من عاداتي
قوم إذا نزل الغريب بدارهم ردوه رب صواهل وقياس
لا يبتكون الأرض ، فندسواهم لئلا تفسد العلات ، بالعبدان

والظاهر أن مجد الثقيفين يرجع ، في حقيقته ، إلى ثرائهم وغنى
أرضهم وسعة تجارتهم ، كما كان شأنهم في بطولات وقضائل
وأجادهم في حياوات العرب . فهم يثبون ، إلى حد بعيد ، زهرة
الوثابة العربية وحضارتها ، وما يوجب في أغوار هاتيك الحضارة
الوثابة من عراقة وقوة وشراسة ، مع ما تظهر به من مظاهر
التوف ، واليدخ ، والأمراف في المنبع المدي ، كزركشة اللباس ،
وزخرفة الأثاث ، والنهيم بالآلات الطرب وعدد الثياب والجواري ،
والإقبال على الصيد والشراب ...

هذا هو شأنهم قبل الإسلام ... وغيرهم الأكثر في ذلك العهد ،
أي في الجاهلية ، أنهم لم يتكروا ذوي نسب واضح . وما هذا
بالشيء القليل عند قوم يحسبون ، بالنسب ، في أعلى مراتب القيم !
وهو أن نصهم على العرب كان علة العن فيها أبدوا من شراسة ،
وافدوا عليه حمة من فتك وبطش .

قال ابن الكلبي : ... ويقال : إن ثقيفاً كان عبداً لابي
رغال ، وكان أصله من قوم نجوا من قوم ، فأتى بعد ذلك إلى
قيس .

وروي عن علي بن أبي طالب أنه مر بثقيف فندموا به ،
فخرج إليهم وخطبهم قائلاً : يا عبيد أبي رغال ! إنا كان أبوكم
عبداً له ، فهرب منه ، فثقيفه بعد ذلك ، ثم أتى إلى قيس .

وفي نهج البلاغة ان مشجرة كلامية وقعت بين الامام علي وعثمان ، فقال المغيرة ابن الاخير - وهو ثقي - لعثمان : و اذا اكفيك . فاضطرب علي في المجلس وقال له : و ابن الملعون الابتر ، والشجرة التي لا اصل لها ولا فرع ، انت تكفيني ! فوالله ما اخر الله من انت ذكره ، ولا قام من انت منه . . . وفيه تعبير واضح بنفسه .

وقال الخباج مرة في خطبة خطبها بالكوفة : و بلغني انكم تقولون : ان ثقيفاً بقية من قود ، وهل نجنا من قود إلا حيارهم ، ومن آمن بعصالح فبقي معه ، عليه السلام . وقد قال الله تعالى : وقودها ابقى . . . وعندما بلغ ذلك البصري ، نضحك هازئاً وقال : و حكم 'الكلم' لعه ! ان قال عز وجل : فما ابقى ، اي لم يفهم بل اهلكهم .

وبحكي ان المغيرة بن شعبة ذهب - وكان وافي الكوفة - الى دير عند بنت النعمان بن المنذر وهي فيه مياه متروكة ، فقبلها : - امير هذه البلاد دلياب .

- قولوا له : من ولد جيلة بن الاعم انت ؟

- لا .

- أفمن ولد المنذر بن ماء السماء انت ؟

- لا .

- من هو اذن ؟

و 'الكلم' : اسم علم تشخص الذي لا يحترم منه ولا يحترمه الناس ، وكانت هذا الموضع الذي وضعه الحسن البصري - وهو من اكابر علماء في عصره - سداً في نزوحه عن المرافق ، لان الخباج خطبه من بعده لبثك به ، ولم يظهر له اثر الا بعد موت الخباج .

المغيرة بن شعبه الثقفي .

- ما حاجته ؟ دعوني اكلمه بنفسي ... ما حاجتك ؟

- جئتك خطباً .

لو كنت جئتني لخال او مال لا طلبتك ^١ ، وانك كنت اردت ان تشرف بي في محفل العرب فتقول : تكلمت ابنة النعمان ابن المنذر ، والا فاني خير في اجتماع اعور وعمياء ^٢ .
فقال المغيرة وهو مغضب :

- اما نحن فمن بكر بن هوازن ، فليقل ابوك ما شاء !

وقال الحجاج يوماً لآتي للعوس الطائي : ابي اقدم : انزول ثقب الطائف ، ام نزول طيء الجليلين ؟ ، فقال له ابو العوس : ^٣ ان كانت ثقب من بكر بن هوازن فنزول طيء الجليل قبلها ، وان كانت من بني نمود فهي اقدم . فقال الحجاج : داني ! فاني سريع الحظفة للاحق المشهور .

هذه الروايات - وما اكثروا منها - تشير الى ضعف نسب الثقفيين واراداء الاشراف ، اشراف العرب ايامهم . وهناك روايات اكثر من هذه تشير الى توتر العلاقات بين الثقفيين والامثيين خاصة . فقد روى الزهري ان النبي قل : ^٤ بنو هاشم والانسار الاوس والحزرج سكان المدينة (حنظلة) ، وبنو امية وثقب حلفاء .

وعندما انتصرت الحركة الاسلامية في داخل الجزيرة اضطرب بنو ثقب ، تحت ضغط الحوادث العسكرية والسياسية القبلية ، الى الانضمام اليها ، اي انهم دخلوا الاسلام بقاء على ثرواتهم ، وصوناً

^١ اي فست طلبتك .

^٢ كانت المغيرة اعور .

لأرواحهم ، وحفظاً لجاههم المادي ، وعاشوا أيامهم وثنيين بالروح ،
 مندنيين اسماً ومظهراً ، إلى أن انطقت العصبيات القبلية من مكملها ،
 وثارت الاطماع حول الوظائف والولايات ، ومهدت لها معاوية سبل
 الظهور ووسائل العمل . وهناك اسباب وجه التفتين الحقيقي وابتدوا
 للناس منهم ، فدا هي تسمى في شخصيتين هاتئتين : الخمار والحجاج .
 ولكن الرجوع الباردة من بني ثقيف ، التي تؤكد أصالة الروح
 الوثني عند هذه القبيلة ، أكثر من أن يحصيها عد . فلما من أسرة عربية
 انتجت إنتاج ثقيف من الشخصيات القوية الشادة ، في مختلف عباد
 الشط الأنساني : في الطب ، في الشعر ، في الحرب ، في السياسة ،
 في الإدارة ، في الاقتصاد ، وأخيراً في الأدب والخطابة ، حتى أصبح
 المرء أن يرافق الشفوذ فيبته بكاملها طيلة ثلاثة أجيال متواليه .
 فمنهم أبو محسن الثقفي الذي أقام عليه عمر بن الخطاب الخطب الحدة
 مراراً تغافرتة الحمر ، وهو لا ينهي عنها ، ولده إلى جزيرة في
 البحر ، وبعث معه حرساً يرافيه ، ولكنه أهلك من مائة وخلق
 بسعد بن أبي وقاص ، وهو يومئذ بحارب الفرس في وفعلة
 القادسية . ولم يبلغ عمر خبر حربه ، كتب إلى سعد يحمله ، فذهب
 في النضر . وتطالع أبو محسن ذات يوم إلى الحرب ورآه مستعظاً ،
 فذهب إلى زوجة سعد ، وطلب إليها أن تخفي عنه وأخبره برس
 زوجها ، فامتنعت عليه قائلة : وما أه وذلك ؟ فراجع برسف في
 قبوده ويقول .

كفى حزننا أن تودي الخيل بالقتل
 وأترك مشدوداً علي وثاقها
 إذا قت عني الحديد وغلقت

مدرع من ذوي ناصب الدنيا ...

فقلت له سمى ... في قد استخرت الله ورخصت بعدك ،
لأنه عهدها أن يعود إلى السجن بعد أن يحوي الحرب ، ثم
أطلقته ، وسلمته فرس زوجها .

بعد المعركة ، أقبل أبو كحجن مزهواً بما قدمه من مات جيلة
وأبدي من شجاعة نادرة ، يقنطر ويقول :

لقد عمت ثقب غير عطر ... بأن نحن الكرمهم سيوف

والكرم دروغاً ... وأمعروم إذا كرموا الرغوة

فإن الحبس فقد عرفوا الرائي ... وإن احبلى الجرة لها حنوه

فقلت له سمى : دبا أبو كحجن ! في أي شيء حبسك ؟ هذا

الرجل لا ، فأجبت :

... ما والله ما حبسني بخرام أكله ولا شربته ، ولكني كنت

صاحب شراب في الجاهلية ، وإن امرؤ شعر يذب الشعر على الحسي ،

فببفه احبنا ، وقد حبسني ذاتي فنت :

أدامت قادني إلى جنب كرمي ... تروي عظمي عذ موني عروفاها

ولا تدعني بالملأه فأنني ... أخاف أدامت أن لا أدوم .

فدعيت إلى سعد وأخوته حمرة ، فدعاه به واضقه ... ولكنه

لم يقلع عن حمرة .

ومهم أمة بن أبي العتات الشعر الجاهلي الذي عيش دهره

غريب الأطوار ، منفرداً بعبارة وزعمائه وامكاره ، وذهب به

الشذوذ إلى استعمال القاط لا وجوده في لغة قومه ولا قبلي

لاحد يفهم .

ومهم الخازن بن كعدة ، ضيق العرب ، الذي وفد على كسرى

أوشيدان ، وجرت له معه مباحرة في مختلف الموضوعات الفكرية
والفنية والاجتماعية كان من تأثيرها في نفس الملك الفارسي ان امر
بدرسون كل ما فعله الخواري .

ومنهم المعيرة بن شعبة الداهية الذي اوحى معاوية بنحبيب
يزيد من بعده ، وبقيرة بن الاخضر الذي قتل مع عثمان في
داره ، ومحمد بن عبدالله النعماني الشاعر العزل الذي احب زينب
أخت الحجاج وشبابه ، وطريق بن اسماعيل احسد الدهماء
المشهيرة في العصر الاموي ، وقد كانت ماحبا خليفا من طراز
ابن نواس وسادته ابني محجن ...

واخص ما يخص به افراد هذه القليلة خصائص : المعب ،
والامتنان من كل ما يقيد المرء وبكلمة واحدة : الروح الوثني ،
اذ قل ان تجد فيهم شعرا ينفيد بما ينفيد به عمة الناس من
دين او اخلاق او عرف ، هذا الى بعد عجب في اذهانهم ،
وفورة خروقة في امزجيتهم ، وفطرة واسعة على التكيف .

وايس هذا بما يوحى به سلوك الحجاج وحده وسلوك اخيه
الذي وفي لليمن في عهده . لا ... وإنما نجد هذه الخصائص
لدى كل تنفي ان في الخطة وانت في الاسلام . فقد حكى
بعضهم حكاية رجل من بني ثقيف واجد مع الحجاج ، ورفع
اسيرا بين يدي الحجاج ، فقال له هذا : « اكفرت » ، فأجابته
« نعم » ، لو كانت شربة اشد من التكفر لبوت به ! ، فغلتى سبيله .
وروى اليهودي في مروج الذهب حكاية تنفي قدم على
الحجاج من البادية ، فرأى ابن عمه يوتي الناس ، فدار بينها
الحديث الثاني :

- اج الامير ! بخاطبك الخراج لم لا تواليني ! فاض هذا الخضر ؟
 - هؤلاء يكتبون ويحسبون ، وانت لا تكتب ولا تحسب .
 بلى ! اني والله لا احسب منهم حسبا ، ولا اكتب منهم كتابا .
 - ان كان كما تزعم فافهم ثلاثة دراهم بين اربعة انفس .
 - ثلاثة دراهم بين اربعة ... ثلاثة بين اربعة ... لكن واحد
 منهم درهم يبقى الرابع بلا شيء !
 كما هم ايا الامير ؟
 - اربعة .

- نعم اج الامير ! قد وقفت على الحساب : الكل واحد منهم
 درهم ، وانا اعطي الرابع منهم درهما من عندي .
 وضرب بيده الى كتفه فاستخرج منها درهما وقال :
 - ايكم الرابع ؟ فوافاه ان : ما رأيت كاليوم دورا مثل
 حساب هؤلاء الخضرين .
 فضحك الخراج ومن معه ، ثم قال من حوله :

- ان اهل اصبهان كسروا خراجهم ثلاث سنين ، كما ادرهم وال
 اعجزوه ، فلأرميتهم بدوية عدا وعجبتهم . فخلق به ان ينهب .
 ثم كتب له عهده على اصبهان . فلما وصل اقبل عليه اهلبا
 واحتفلوا به ساخرين منه لعمري انه بدوي لا يرقى الى نفس ما
 يبرمون ، والحاصل مما يحكيون . فلما استقر في داره واجتمع
 الوجباء حوله ، قال :

- ما لكم نعصون ربكم ونغضبون اميركم وتنقصون خراجكم ؟
 - جور من كان قبلك ، وظلم من ظلم .
 - فما الامر الذي فيه صلاحكم ؟

- تؤجرنا بخراج ثمانية أشهر ونجمعه لك .

- لكم عشرة أشهر ، وثلاثون بعشرة ضياء يضمنون .

وأثروه بهم . فمما قرب الوقت رآهم غير مكتوفين لما تدبوا

إليه . . . حتى إذا شعرنا بظلمهم وتسويفهم جمع الضمماء وقال لهم :

« المثل ! » وأجابوه : « أعود من الآفة من نقص ذلك . »

ومما أحس أنهم يتباطون عمداً ، جمع الناس ثانية ، وآتى

أن لا يفتقر ذلك اليوم . - وكان في شهر رمضان . - حتى يجمع

مال الدولة أو يضرب عقه . وجاء بأحد الضمماء وضرب عنقه ،

ووضع رأسه في بكرة كتب عليه : « فلان بن فلان أدى مائة

عليه . » وفعل ذلك مع جميع آخرين آخر . ومارأى القوم الروؤس

تقطع وتعمل في الآليات خفوا إليه ذريعين . - « يا الأمير !

نوقف حتى يحضر لك أمسان ! » ففعل ، وذهبوا فأحضروه في

سرع وقت . وعدم بيع الخراج ذلك فقال : « يا معاشر

تقف ولداً بحبيب ! »

هذا الغف ، وهذه القسوة ، وهذا النقص من القيود الإنسانية

والاخلاقية ، وهذه الجناة في وضع القول الحارم موضع العمل ،

هذه الروح الوثنية ، بكثرة واحدة ، لتجلى واضحة في سيرة

الغبرة بن شعبة ، وعبد الرحمن بن عثمان ، وأحمد بن عبيد ، ومحمد

ابن يوسف أخي الخراج ، وكلهم من الحكام والولاة التقفيين ، كما

تجلى في أشعر شعرائهم الذين ذكرناهم .

وكاننا من الضميين أن تتوزع العلاقات بين أماشيين والتقفيين

لتعلق أولئك بالثقل الدينية الجديدة ، ورعايتهم لها في حياتهم

وحياة الناس ، ورصدقة هؤلاء ، وأخذهم الحياة على أيدينا

وحسب ، دونما نظر او اعتقاد بائدين . وقد تمت تقيف الجزية بالارتداد
بعد موت النبي ، ولكن عثمان بن ابي العاص اضر عيبه - وكان
مطاعاً فيهم - رابحة على الاسلام فأتوا : ولا تكونوا آخر العرب
إسلاماً ، وأوقف ارتداداً .

ثم كان من التقييف ان يهدو بنو تقيف الى الجزية انماوة
للأشقيين ، اي الى عثمان في عهد عثمان - ثم رأت في امر التقيفة
ابن الاخنس - واتي معاوية في الصراع الذي نشأ بينه وبين علي ،
ثم الى الامويين عامة بعد معاوية الاول ، والمراسين خاصة بعد
معاوية الثاني ، والصف بين المرزانيين والتقييف قديمة . ومن هنا
الزمن الى عهد الرسول ، اد حرد الحكم بن ابي العاص الى الطائف
لتجسسه على سائر . فلما ذهب اليها اخذ معه ابنه مروان ،
ومكث فيها طيلة ولايتي ابي بكر وعمر حتى اوتي عثمان فرده
الى المدينة ، اي . يقرب من خمس عشرة سنة . ثم جاء مروان
في كنف التقييف ، وقتا في وسطهم ، وتقاتل بعضهم .

وروي الاعمش ان علي بن ابي طالب قال علي المنصور في
الكوفة : قد تمت ان اضع على تقيف الجزية لان تقيفاً كان
عبداً لطالح بن ابي عليه السلام وانه سرتحه الى عمه له على
الصدقة ، فبعت العامل معه بها ، فهرب واستوطن الحرم ، وان
أوتى الناس بطالح محمد . واتي الشهدا اني قد رددتهم الى الرق ،
ذلك ما قاله الامام في بني تقيف من على منير الكوفة ،
اي من على الشبر ذاته الذي سيقف عليه الحجاج النقي ، والبا

من قبل ابن مروان ، بخطب القوم انفسهم الذين شهدهم الامام
عليه السلام على ارجاع اهل الحجاج وآله الى الرق !

٣ - حادثة بائنة

ولد الحجاج عام ٤١ للهجرة (٦٦٣ م .) في امرة معذبة
منكدة تجتاحها العواصف العظيمة والازمات النفسية الحادة ،
يرمها الفقر ، ويسيطر على جوفها الحول والذل ، ويعطل بهجة
حياتها رضي الام التي طلقها زوجها السابق ، ويسير الى طائفتها
الكدح في سبيل المقة .

والظاهر ان امه - وهي الفارعة بنت هشام بن عروة
ابن مسعود (عظيم القرينين) - تزوجت قبل ان تقترن بابيه مرتين
الاولى من الحارث بن كندة العتيبي ، والثانية من شاعر تقي
اسمه المغيرة ، طلقها الاول بعد افتقاره منها بياض لسبب عافه خلاصه
انه وجدها تتخلل عند السهر . فقال لها :

ان كنت بادرت الغدا وانت ثمره ، وان كنت بنت
والطعام بين اسنانك فانت قدرة .

فأجابته وهي تنأى لطلاقه بانها :

- كل ذلك لم يكن ، لكني تخلت من مظايا السواك .

ولكنها ما لبثت ان تزوجت من الشاعر المغيرة بن شعبه ،
فأقامت معه ردياً من الزمن ولدت فيه ابنة منه لم تعتبر

١ - هذه نقطة غامضة عند المؤرخين ، وليس لديه من المصادر ، يومها ، وهي
تختلف في ايراد اسم الزوج الاول .

كثيراً... وكان نصيباً من الفقرة حبيبا من الخارث أو خلقها
 لأسباب مجبورة. وأعترض سبب بعد هذين التلافيين "معتة" بـ"شئ"
 في الطائف اسمه يوسف بن الحكم من أبناء عمومتها، وتزوج
 منها، فولدت له ثلاثة أولاد: محمد، والحجاج، وريث، وكلهم دور
 عاهات، الأول ردي، الحقة، عظيم الحجمة، والثلاثة ضعفة لم يكن
 عنيفة المزاج.

أما الثاني - وهو الحجاج - فقد وُلد منوهاً لا دور له على
 ما يذكر السعودي، فغلب عن أدبه، كما ذكر أنه ابن أن
 يقبل ندي أمه.

هاتان حادثتان: ماضي الأم، والمنة الحسية لا يستطيع
 الباحث أن يمر بهما دون أن يعيرهما انتباهه، إذ لا يبعد أبداً
 أن يكون هما الأثر الأكبر في تكوين نفسية الحجاج وبنه مزاجه
 الغريب.

أما سيرة أمه الأولى فذكر القائل أنها أصابت إلى كيان
 الأسرة التي أنشأها بعد تجربة أو تجربتين أخفت فيها - وما كان
 زواجها من مهم بعد ما منبت به مسن طلاق إلا رخذ بالقتيل،
 وفقاعة بالرزق المبسور فخبان زوجها الأول ما انفك براودها،
 وحلفتها إلى تلك الأيام التي قضتها بقرية كان يشند ويتواخي مع
 الأحوال والمناجات، فما كانت تخبأ بقرب يوسف - والد الحجاج -
 حياتها الصعبة، أعني أنها التزمت طرأاً في الحياة لا يلائم ميوها

١ - أكد لنا البرومور اسبريدو - أبو أثوس - وبرومور اخون مرعب،
 وهما من اساطين الطب في لبنان، أن هذه الظاهرة شائعة تكوين الإنسان، تظهر
 عند بعض الأطفال في غشاء ينفذ مؤخر الطفل، وتكفي غلبة جراحة بسيطة لإزالتها.

ولا يسجد مع نزعائها ومطامعها ، ولم يلتزمه إلا الضيق في ظروفها ،
وعلا لألامها ... التي ظهرت في اولادها .

ثم ما يكون من امرأة ضقت مرين وتزوجت المرة الثالثة ؟
أتواها نحن بالوثب الى البناء العتيق الضعيف ، ام تريد ان
تستريح وتهدأ ؟

لا محل للاخذ بالمغربية الاولى . واذن نحن امام سيدة شبه
منهدة افتوت رجل متهدم ايضاً لان ، اجداده كانوا ينقلون
الحجارة على اكتافهم ، ويحفرون الآبار بأيديهم ، وهو لم يلبس
الى الثمنير الا لتكسب بعد ان تحبب الخبز وسمعت في وجهه
سبل الرزق . وما كان النعم يومئذ مونة واجبة ، ولا كان من
بشئته على شيء من الاحترام في المجتمع .

في هذا الجو المظلم ولد الخديج ، وابنه ، ولد كغيره من
الاولاد ! ولد جاء ، الخديج المميز ، اصلك الرجلين ، مسوح
الطعرج ، ، اي رأس كبير مستطيل ، كذا عرس ابن كفيه ، ،
ما حمل والدته - وهي والدته - على الذعر به والتأفل في تربيته ،
وحلفت عليه اسم كليب ، اي كلب صغير ، ما ظهر عليه من
البشعة وسوء النظر .

ومش الطفل في حجرة بنواها حبيبة الحي الذين كانوا يأنون
ليقرأوا القرآن ويتعصوا مبادئ الكتابة والحساب ، يحملون معهم
أهلهم مسرعة منهم من زبيب وثمر ونقود ، حتى اذا بلغ

الخمسة : سبق الى المين وسبق في العرصة . استأجر حبيب ، هو الذي
نصرت إحدى ركته بالآخرى عند صعود الجعرات : الحان تكفيان اصل الدب .
وهما من الانسان موضع رقبتي احمار .

السادسة او السابعة من سنه كان على انعام بصيطة بالقرافة ، وما هي الا سنوات قليلة انهم بعدها علومه في مدرسة ابيه ، حيث اظهر من الشغف بالعلم ، والميل الشديد للمطالعة ، ما جعله يفوق ابناء جيله ، ويسى الى عيبيه ، فتسلق اجذنه من السور والاشجار على الدرس .
 ها هو الآن في الثانية عشرة من سنه لم يبق له ما يدوسه على ابيه . وما هو ابوه يضيق به ذرعاً ، فقد عجز عمن اعالة اولاده ، واضطر الى الافادة من جهوده وجهود اخيه محمد ، عليهما يعينانه في تحصيل كفاف يومه بمدان حافت به وبالبلاذ الحجازية كلها ازمة اقتصادية خانقة ، لان عامل معاونة على الحجاز - وكان زياد بن ابيه يومئذ - اغرق البلاد بالفوضى ، وحكمت فيها الجور وضجت منه قاطبة ما بين حاضرها وباديا ، فكان يجمع الاموال لينفقها على المفاكر من جهة ، وعلى اخصام الامويين لاسترضائهم ودفع عدوانهم وانقاء مخطيئهم ، من جهة ثانية .

ولم يكن من يوسف ، نجاه تلك الازمة الخانقة ، إلا ان وضع ابنه الحجاج عاملاً في مدبغة من مداخل الطائف حيث يتقاضى لقاء عمله ما يدر به رمته . فكانت حياته هناك ضرباً من الاشغال الشاقة . بيد انها زرعت في نفسه من الاحقاد ما لا قبل لاحد بتصوره ، وفتحت ذهنه على صور والوان من العذاب والاهانة قل ان يشهدا من لم يمر بها .

فصور هذا اليافع الفقير الذي اطلع على كثير من الكتب ، والذي ورت عن اهل القدامى طموح الميزة ، يتقضي ايامه في مستنقع المدبغة ، يشم أكره الروائح ، ويحاول انقل الاثكل على نفسه ، من نقل الجلود ورشها بالملاح وتنظيفها من الشعر بين زمرة

الجزاير والدباغين ومن اليهم ممن لا هم عم غير تحصيل القوت ،
والعيش الخسيس الذي يشبه عيش البهايم .
نعموه على هذه الحال وهو يفتكر في طريقة للتخلص من
جور الخلق ذلك . ولكن كيف الخلاص ؟ وابن الطريق اليه ؟
لم يكن اسمه الا ان يارس المهنة التي مارسها ابوه من
قبله . ولا سيما ان امه اصبحت عاجزاً عن متابعة التدريس بشكل
يرضي امهات الاولاد وآباءهم ، فتروك التدبغة ، وعمداد الى الحجرة
الضيقة يعلم الاولاد مكرها ايضاً وايضاً ، اذ ليس في الزلم ما
يرضي مطامحه . غير انه اداد من عمه الجديد اودة كبرى اذ
افضل بشاس ومشاكام اتصالاً قريباً ، ونعرف الى طبائهم ،
واكتسب خبرة عميقة بمعاشرتهم واساليب التصرف معهم ، والناس
ليسوا ، في نظر النعم ، غير تلامذة كبار ، لا تختلف طبائعهم
الاخيلة عن الصفار في كثير ولا قليل ، فذا وفق النعم الى
ادارة صفته وضبطه وتوجيهه كان حريصاً ان يوفق الى
ادارة التلامذ ، وضبط الامن ، وتوجيه الناس حين يدرس هذه
الامور او . بشاها وبرادفها . ذلك هو شأن موصولي الذي
بدأ حياته معلماً ، وكان من قبل عاملاً ، فلما افضى اليه الحكم
ايدى من البراعة ما جعله فذا تنصاع اليه الحوادث والاشخاص .
ولكن المجتمع العربي الذي عاش فيه الخداج لم يكن يحترم

١ من كتب الاشترقي . وهو خارجي ، يهجو الخديج :

انه ابن يوسف عمره من عزوكم	حضر الخديج الخليل الامصار
لو شاهد الصفيين حسين تلاميا	ضاعت عبيده رجبة الاقطار
ورأى مودة الدباغ غيمة	يام كان محالف الامير

غير قادة الحرب ، ورجال الشبر ، وعمال الولايات ، واثمة الشرع والفقه . اما المعلمون فلم يكن ، كجميع العرفي اليوم ، بحسب هم حسياء ، او يقيم لهم وزناً ... وهذا ما حمل الخجاج على التحريم بينهم ، وجعله يفكر تفكيراً جدياً في منصب تظهر به مواهبه ، وتطشش اليه نفسه . ولم لا يفكر بتبوء منصب رفيع في الدولة وقد عرفه حارة البغايا ، في الطوائف التي كانت تقطن المدينة ، والتي نشأ منها وفيها ريف بن ابيه ؟ ان يكون زبده افضل منه في نظر الناس ؟ وما هو وجه افضله ؟ والمغيرة غسه ، ثم يسبق ما ينفعه ويؤد به بدل من خدمة واظهر من مواهب ؟ وعبد الرحمن بن عثمان ... وغيرهم وغيرهم . كي لا يذكر الا ابنه تقيف ؟

لا مشاحة ان باب المناصب مفتوح امامه ، كما فتح لغيره من ابناء محرمته الدين لا يزيدونه رفعة شأن ، ان في السب وإن في المعرفة ، هذا ... ان لم يكونوا ذوي مرتبة او مراتب في كليهما . ولكن السؤال الذي لم يجد له جواباً هو : كيف يصل الى المنصب ؟

هنا تنفتح الخجاج بفكر كغيره من الوصوليين ، فراح يدرس الواقع السياسي ، ويغبط من المعطيات ، ويراقب تطورات ، ويتأمل مراحل سيره وانجازه ، ويعنى اصكرو ما يعني بسيرة الدين تقدموه من الولاة وامراء الجيوش واصحاب العمالات ، ويعمل الفكر في الاساليب التي اوصلتهم ، حتى اهتدى الى المنفذ الذي ينفذ منه اسماء الى مصانع الخليفة : ان يكون من اعوانه في اي صراع يحدث بينه وبين اعدائه .

وجامت الحوادث تقدم له عدة فرص لا ، فرصة ، واحدة ، ففي

عام ٦٩ للهجرة مات معاوية ووفي ابنه يزيد ، فما كان من عبد الملك
ابن مروان إلا ان دخل على يزيد فقال :

- أريضة لك اى بجانب ارضي في ، وفي فيها سعة فأقطعنيها .
- يا عبد الملك ! إنه لا يتعاطني كبير ، ولا أهدع عن صغير ،
- فأخبرني عنها ، وإلا سألت غيرها .
- ما بالحجز اعظم منها فدروا .
- قد أفعلت !

وهكذا ... دخلت الطائف في افطاعية عبد الملك يوم كان
الحجاج في العشرين من سنه ، في عنقوان اوثبه وعلموه .
ثم كان من يزيد ان استعمل على الحجاز عثمان بن محمد بن ابي
سفيان . ورحالة عثمان هذا نعي ان الجو ، جو المدينة ، خلا لمروان
ابن الحكم ، اذ انتقل الحسين بن علي الى الكوفة ليجهاد فيها
فامتلات الحجاز بالنفاسد . وشاع استعمال المستحضرات في مكة
نفسها والمدينة ، وانصرف الناس الى الملاحى انصرافاً شبه تم ،
وعمت القوضى الاخلاقية جميع الطبقات ، حتى اذا قتل الحسين
تحوّل نظر الحجازيين الى السياسة ، وراحت الحجاز تخرج بالفتن ،
كعهدك بالعراق او ادمى وأمرت اخشيون فاشون فاعدون ، قتل
عبد الله الحسين . وعبد الله بن الزبير يدعو الجماهير والاعراد الى
مبايعة . وبنو امية في ضيق ما بعده ضيق ، لتألب الكتل
والاحزاب والقبائل عليهم . والامصار الباقية كاليمن وعمان
وحضرموت ومصر مشدوعة في غمرة الحوادث يتقاذفها الف تيار
وقيار ، لا تدري اى حيز تسلك ! ذلك ما كان يجري والحجاج واقف
يتأمل متحزراً للسير في ركب المنصر ، متمنياً في قرارة نفسه ان

يؤزل الملك الى عبد الملك ، بعد ان دخلت بلاد في اقطاعه .
 وغي الى يزيد ما فعله اهل المدينة من طرد عامله والتضييق
 على الامويين ، فسير اليها جيشاً من اهل الشام بقوده مسلم
 ابن عقبة الشامي . وما كاد هذا يصل اليها على رأس جيشه حتى
 انضم اليه الحجاج نقديراً منه ان ساعة المنصب ، دقت . ولكن
 المعركة التي وقعت يومئذ في المدينة تحولت الى مذبحة هائلة
 طارت فيها الرؤوس وقطعت الاعناق . فهرب الحجاج تاركاً والده
 لا يعد من امره شيئاً ... ولا يلوي على شيء .

كان من نتائج هذه المعركة ان عرف حكام الامويين اسم
 الحجاج ، وابس هذا بالشيء القليل ! بيد انه اضطر بعد ان هرب
 الى حوض معركة ثانية وقعت بين مروان بن الحكم وعبدانه بن
 الزبير المصعب فيها بالفضل لان الحجة التي جهرها مروان لم تقو
 على الجموع الزاحفة نحوها من مكة والبحرة معاً . واستطاع الحجاج
 ان يرب وينجز بنفسه . غير انه لم يرب هذه المرة وحده ، وانما
 رافق ابيه في امره ... ورمى العمد الذي كان يحمله بيده !

واذكر صاحبنا هذه المرة ان لا سبيل الى نجاحه كجندي
 بسيط . فاذا كان يروم الوصول الى مركزه يلعب فيه ، فعليه ان
 يعمل على تولي قيادة او رئاسة او ادارة عامة ذات مجال رحب
 يتسع لمواهبه وميزانه التي بدأ ينشعرها في نفسه . كان مقتنعاً
 انه يصلح للقيادة ، وكان مقتنعاً انه لا يصلح كجندي . وهو لن
 يبلغ مركز القيادة إلا اذا وفق في الجندية . ارايت الى العقدة
 النفسية التي كان يتخبط فيها ؟

الا ان طموحه كان من القوة بحيث دفعه على الاصرار ،

والحجاج حتى عن نفسه . ثم كاد عبد الملك يستوفي على مقدرات
 الخلافة حتى راح الحجاج يتقرب منه ويتقرب الى ان اطاعت
 اليه الطبيعة الجديد ، وارسله عضواً في وفد فوفضة زفر بن الحارث
 الذي ابي السبعة - وكان من قبل قد حارب مروان . فلما
 وصل الوفد انفاوض بجعل كذاب عبد الملك الى زفر ، ورثبه
 يومئذ رجاء بن حيوة ، كان وقت الصلاة قد حان ، فقام رجاء
 وصلى مع زفر ، وصلى الحجاج وحده . ومنه سئل عن تفردة بالصلاة
 قال : لا احلي مع منافق يخرج على امير المؤمنين وعن طاعته .
 ونزل الناس يومئذ هذه الحكاية الطريفة حتى بلغت مع
 عبد الملك ، فذكر اخلاص الحجاج وشعر ضرورة من كافته ، فابى شي
 يكافه ؟

ابن امامه الا ان يجعله والياً على احدى المقاطعات ، فاحسبه
 حاكماً على بلدة اسمها «تيلة» تقع على بعد خمسين فرسخاً من
 الطائف في اتجاه اليمن . من ارض نباء . اي مسيرة ستة ايام .
 لا تسهل عن فرح الحجاج وانشراح صدره نادي ذي بده ،
 اذ اصبح الآن حاكماً ، وانتهى من التدبيرة ، والتعليم ، والجندي
 لن يقوى احد بعد اليوم على تغيير بابه ، ولن يحسر الحكومون
 على الفزع بدماعته ، وانتقم من شأنه . وماذا نهمه الدمامة وفي يده الآن
 ان «يتزين بزينة المومس» ، وان «يرجل شعره» ، ويخضب الطرافه .
 ولكنه سيجعل عيساً ، مقطب الجبين ، قليل الضحك ، صوناً للوفاء ،
 وابقاء على الغيبة .

وجيء بالدليل فسار امام الحجاج ، حتى اذا قرب من نباله سئل
 الحجاج ، وقد شعر بالضيق :

- ام هي لا وعلى اي حيث هي ؟

هل الدليل واضح بيده :

- استورها عليك هذه الاكمة .

ثم اني انا لم اجد من حوله ، وهذا هو لا يحكم لا رفعة صغيرة
من الارض ، بل اضافة الى بعدها عن عصية الدولة ، وامن انه
مستفي ، اكثر ، هو مذهب ، على اخلاصه ، او مكرام النبوة ،
فقل الدم في شروقه ، وشعر برارة تغير اخصار نعمة ، ثم قال
بعصبة ظهيرة :

- لا اراني اميراً إلا على موضع تستر منه اكمة ! اعرفنا بها

من ولاية !

وعاد ، كالمه الزمان ، كسير الخمار ، الى الطائف . وماذا في

الطائف ؟

انه لا يترك فيه ، بقات به ، ولا يحمل احب له غير الفت
والزودراء . حديث مرارة في انكسارك ، لا ميم على الرجال ونواصي
الدم ، وقد اصبح في من القضي ان يتزوج وان يبي مستقبله ،
وانه فرة توضحه روجاً وهو على هذه الحال من الدمامة والاملاق
وسوء السمعة ؟ ومن اين تشب عرف بالجن وضعة النفس وهزال
المري ان ينير انبه الاواس او يحملين على اجتذابه وكل ما
فيه ، وما يدور حوله ، وما يسمع عنه ، متفرق مقيت ؟

لقد كان من امره ، وهو غلام ، ان خلق السعري الشاعر في
ازفة الطائف بشبه افعى الشبهة على مسمع من صديق له كان
يسير معه ، فساله الصديق : من هذا ؟ فقل الشعر : وهذا
الحجاج بن يوسف ! دعه في دكرت احب في شعري فأحفظه

ذلك ١١

وكان منه ان نازع عمرو بن المغيرة بن شعبة - زوج امه الثاني - ابي ابن زياد في ميراث اخيه لامه ، واغلق الكلام لعمرو الذي اس اعطاه شيئاً ، فأمر ابن زياد ، فضرب اسواطاً على رأسه .

وكان منه ما عنت من نحرته بحاشية الخلفه ، وتولاه للولاية ، وتقدمه مجلس الكبراء عليهم يلقون اليه بولاية او يسترونه على رأس كتيبة .

هذه الحوادث وامثالها كانت تعيش حية في اذهان مواطنيه من أهل الطائف ، وما رجوع اليهم من دولة وأحسن بالرداء الناس عنه واحترام أباه وتباعد الجو حوله ، ندم على ما فرط منه ورأى ان ولاية حفيزة كتيبة او احقر منها افضل من معاشرة هؤلاء القوم الذين يعرفون عيوبه ، ويذكرون مساويهم ايدهم ، ويأبون الا الغش من شأنه والنيل من كرامته .

لم يبق امامه الا ان يهجر الطائف لان نفسه فيها يعني الانتصار ، ولكن يهجرها ابي ابن ؟ عليه ان يؤمن قوت يومه على الأقل ! واليتوك الان الزواج والفكر في الزواج دينا يصح في وضع يمكنه من الوقوف على قدميه . عليه ان يتخوع ، عملاً بقصيه عن شائبه ويخفيه عن اعيانهم بحيث لا يسمع ما يسمع ، ولا يشهد ما يشهد . عليه ان يكون رجلاً لا طفلاً في تناول الحياة والنصرف بشؤونها . وصيغرف بعد اليوم كيف يقتض

نفسه من الناس ، وكيف يخرج على نفوره منه ومقتله إياه .
 ذلك ما فكر فيه ... ثم ما لبث أن يتم وجهه مطر ورير .
 عبد الملك واحد أعوانه المقربين منه ، وهو روح بن رباح الجذامي ،
 وكان بشغل وظيفة رئيس شرطة الحيفة . فدخل في سلك الشرطة
 آملاً أن يتولى رئاسته في المستقبل ، ويفيد منه في تذيب أخصامه
 وشفاء أحده التي كانت تكاثف وتراكم في صدره يوماً بعد يوم .
 وهناك ... في الشرطة ، أبدى من الخلق والغيرة وحسن تفهم
 الأمور . وكان قد فازب النطق - ما حل بين رباح على الكبار .
 ونعظم شأنه . وكان كل من معه محصوراً في إجماع حوائه الخفيفة ،
 وأشهر نفسه كمعد محض من عبيد أمير المؤمنين ، فلم يتوكل عرجة
 إلا استغلتها لأظهار ذلك الصفة ، ولا مرت ساحة إلا التبره
 لانتحال تلك السمة ، وهي حجة يراها غيره ، ويعتبرهم من
 لصفت به ، ولكنه كان يعرف وجهه ، عنوة عن الناس احمدين ،
 أنه لم يطلبها ، ولم يحتل الزام م إلا لفرص في نفسه ، وهي في نظره
 وسيلة ، وإن كانت تظهر أملاً في شكل شيء . كان - وهو شرملي -
 عالماً مغالفاً من الاحلام والمطامع والاصحاب والخوف والامتنان ،
 ثم لم يكن لينفخ امام غيره إلا عن حذقة للرؤساء ، واجلال للخليفة ،
 ورضا بقضاء الله وقدره .

وفي ذات يوم اختلى عبد الملك بوزير روح بن رباح ، وتحدث
 اليه عن انتشار الاجرام في بلاد الشام خاصة ، وسيدة الفوضى في
 الاقطار العربية عامة ، وشكا ما يعانيه من عصيات العسكر ،
 وفقدان هيئة الشرطة ، واضطراب رجالها في تعقب العصاة والجرمين
 وتقاعسهم عن القيام بواجباتهم . فقال الوزير :

- يا امير المؤمنين ، ان في مرضي رجلاً لو فاته امر العسكر
ذرحبه ورجلك وتزعم بتزولك !

- من هو هذا ؟

- رجل من الصنف يقال له الحجاج بن يوسف .

أجل عدك خوره في اللابية ، ثم اضرق ~~يفصرك~~ ... هذا
الامر ليس غريباً عن ذهنه ، فهو يذكر جيداً انه تحدث عنه في
اكبر من مسية ، لا بل يذكر انه حارب من اجل ابيه مروان ،
ثم ان نومه على جانب رأسه وقال :
- يا فاطمه ذلك .

ولم الحجاج قرار الحيلة بدوه وارتياح ... وعزم هذه
المرقة على احد غلبه بالشفقة ، فمن يستجيب بهذا المزوانه ، ولن
يتروك لاعتدائه حاطناً على عقه ، خشية ان يصيبه ما اصابه اول
مرة ، او أدرك ان موقفه من الخراج اصبح بمنزلة لا خيار له فيها
بين حالات متعددة ، فهو - - - ان يصبر ويصبر الى ان انقضى
الظروف له ما يشده ، وام ان تنهار جميع احواله ويضطر الى
الاعتكاف في الصلابة منبوءة مهناً ، فاختر الصبر والانظار .

ولكن القمع صدف بآثره طبعته ، او هو غي مرآته في
فطرته لا يد له فيه ، ولا هو قادر على التملص منه ، فدا قتل
في سلوكه جاء عفويّاً ، يصدر به عن وراثت فدية زارعت في
نطقه ، وبنت في دمه ، فلا يترك إلا ان يكون عبقاً .

وحدث ان ندى العسكر ذات يوم وامرهم بالرحيل ، فختلف
اعوان روع بن زليخ خاصة ، وعصوا اوامره ، فوقف عليهم وهم
على خنقهم بان يكون ، وحدثهم بنظرات مأكرة ، ثم قال :

— ما منعكم ان توحيدوا برحمن امير المؤمنين ؟

فاجابوه هاتين بصوت واحد :

— يا ابن البغاة ! كل معناه .

صكت برهة ، وخطبه ترنيم من العبط ، ثم قال :

— هيهات ، ذهب ما هنالك !

ثم امرهم فاجندوا بالسباط جنداً مروحاً ، وطوقوه بالسكر ،

وامر بفساطيط روح بن ربيع فاحرقته عن آخرها . وبيع روح

ما احابسه ، فامرغ نحو عيساك ، ودخل عنده مكتباً ، فساله

الخليفة : ما لك ؟

— يا امير المؤمنين . الحجاج بن يوسف الذي كان في عبيد

سوطي ، قارب عبيدي واحرق فساطيطي !

— علي له .

ودخل الحجاج الديرة التي في حبه على الخليفة ، وكانت

الاولى يوم اوقده الى ربح خورث ، ولكنه لم يخاطبه فيها مباشرة ،

فقال له :

— ما حملك على ما فعلت ؟

كان الحجاج قد اعد هذا الموقف لعداته ، فاجاب :

— ما ان فعلت يا امير المؤمنين !

— ومن فعله اذن ؟

— انت واثمة فعلت ! يا يدي يدك ، وسوطي سوطك . وما

على امير المؤمنين ان يخفف على روح بن ربيع للفسطاط فسطاطين ،

والغلام غلامين ، ولا يكسرني فيها قدمي له .

ثم اتمل عبد الله فاعجبه هذا الحل الذي ارشى به الحجاج ،

ولكن كلامه ينطوي على إيجازات أخرى أدق وأعمق من وضع حل لمشكلة بسيطة ، إيجازات تنادون شخص الحجاج نفسه ، وتجعل الخليفة يضمن إليه كشخص ، قدرته معه ، واسيع عليه النعمة ، وراح يستظهر به في الأزمات ، ويستشير في مشكلات الأمور ، والحجاج يفتن في إعطائه ، ويبالغ في خضوعه له ، وينكر الخطط ليبلغ مآربه عنده . فكان ذلك الموقف آخر عهد الحجاج بالنعامة ، إذ انتهى بتفويض فائق من جميع جوانبه : رجع رواح مسروراً ، والجنود اخلدوا لمسكنة ومنعوا عن الشعب ، والخليفة مرتباً لما رآه من وفقة رجل يخص له الخدمة .

ومنذ ذلك الحين وبجهد الحجاج في معمود ومعدن ...

٤ - مع الخليفة

أصبح الحجاج ، بمعنى من المعاني ، صديق الخليفة ، وكانت صلاتات الخليفة من السعة والكثرة بحيث تشمل سلطاناً ، جميع الشؤون العسكرية والإدارية والفخائية والاقتصادية . كانت يوفي من يشاء ، ويعزل من يشاء ، متى شاء ، وتجهز إليه الأموال ، وينفقها دون محاسب ، ويعين الفخاة ويعزفهم ، ويجهز الجيوش ، ويحشد الجند ، ويعملن الحرب ، ويعقد التسليم . كان يفعل كل ذلك دون رقيب . كانت الدولة هي الخبيطة ، وكان الخليفة هو الدولة ، فمن يعلمه الخط بعداؤه يصبح على يقين من التلاق نجبه ومناعة اسمه .

غير أن صداقة تمت بين ملك وفرد من أبناء الرعية فلا تكون

ابداً خالصة من كل شائبة ، وإن هي تقوم ، إذ تقوم ، على أساس من الاستقلال ، بين الطرفين المتعديين ، مختلف وجهه بخلاف مواعيد كل منها وحاجته الآخر . ولئلك هي صداقة عبد الملك للعجاج .

رأى عبد الملك في العجاج خير ، تعبير ، عن فكره في الرجل الذي يحسن استعمال السيف أو العنف ، وراح يروى ما يصدر عنه ، وذا به يحقق له ما يتوق إليه من نجود في الفذ ، واذعان للأوامر ، وطمع برضا الرئيس ، واستهانة بأراء الآخرين ، وافتكاهم . وهذه صفات نادرة من أن تجتمع في واحد ، وإذا نجحت له في ظرف ، فلا أمل أن تستمر على نجاحه في كل الظروف لما هي غلبه من النذوب والتدليس . فكان من عبد الملك - وهو من أفاض الحفدة - أن احتضن العجاج ، وضمه إلى حاشيته ، وقربه منه ، وأوغل في إقريبه دون أن يتوكل له مدى حراً يحول فيه . وكان من العجاج أن مدنى عبد الملك في جميع خطواته ، وأخذ عنه دروس العنف ، وهو المثل إليها بطبيعته ، واتقيا ، وراح يصفها بحذائرها لا يراعي في تطبيقها غير إرادة أمير المؤمنين ، ورضاه .

وإذا أنت تدبرت ثقافة ذلك الجيل وفقت إلى آداب ، خاصة بعاشرة السلطان ، وأصبعته ، وطاعته ، وصحبته ، وشرائق التعريف معه ، ووجدت أن العجاج أزمها ونأديب بها وراض نفسه عليها حتى أصبح مثلاً صدق قيل .

وأول هذه الآداب ما كان مستقى من القرآن وأحاديث النبي وسيرة الصحابة في الدرجة الأولى ، ثم ما وضع إلى إتياء ذلك

العصر من مظهر الحياة المدنية عند جيوانهم كالقصر والروم في
الدرجة الثانية ، واخيراً ما وصلوا اليه من تجارب عاشوها ومروا بها .
جاء في القرآن : **يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله والرسول**
واولي الامر منكم . وجاء فيه ايضاً : **انا جزاء الذين يحاربون**
الله ورسوله ويسعون في الارض فساداً ان يقتلوا او يصلبوا او
نقش اعينهم وارجلهم من خلاف او ينفوا من الارض . . . وسنجد
الحجاج يرد هاتين الآيتين لدى كل مناسبة ، ويتوسل بهما عند
كل مهاجمة .

وفي الحديث الشريف : **من فرق الجماعة ، او خلع بدأ من**
طاعة ، مت مينة جاهلية . . . وروى عن النبي ايضاً انه قال في
جمع من اصحابه : **الدين النصيحة ! الدين النصيحة ! الدين النصيحة !**
فسالوه : فمن با رسول الله ؟ فقال : الله ورسوله ولاولي
الامر منكم . . .

اما سيرة ائمة الراشدين فكانت تدور في ذلك الفلك ، فلك
« الطاعة » : الخلفاء يطيعون الرسول ، والرسول يطيع الله ، وعلى
الناس ان يطيعوا الخلفاء ، لانهم اولو الامر . ومما كانت الفقه
التي اشتمل لتعهد الا استناداً الى هذا الواجب . واجب الطاعة .
ولا كان الولاية يجبون الاموال ، ويجندون الجند ، ويقيمون حدود
الشريعة ، فلا آواء لفريضة الضاعة الدينية ، فدا ظهر العصيان فبعنه
القوة المسلحة ، وذلك هو الجو الفكري الاجتماعي الذي كان يسيطر
على الناس في عهد عبدالملك ، وما تقدمه من عهود .

ولكن طاعة الحجاج للخليفة امر مفروغ منه . انهم هم
علاقته بالخليفة ، وطراز صداقته له ، واسلوبه الخاص في الافادة

من هاتيك الصدقة :

يقول ابن المقفع : ، ينبغي من حمة السعد ان لا يغتر به
اذا رضي ، ولا يتغير له اذا سجد ، ولا يستفحل من حمة ، ولا
يلعب في ماله .

ويقول في مقام آخر : ، لا تكن حمةك للسخط لا بعد
وباضة منك لنفسك على طاعتهم ، ولا حمة حافظة اذا وليت ،
حذوا اذا قريبتكم ، امسوا اذا التفتوا ، ذلوا اذا همروك ، راحبا
اذا استظفرك ، ذمتهم واثقتهم ، واتواك اذا همروك ، راحبا
بهم ، وتشكرهم ولا تكفهم الشكر ، ولا تلعنهم كلف البعد ،
والحذر منهم كل الحذر .

ولم يكن الحجاج غريباً عن هذه النواحي التي يلقي بها ابن
المقفع ، بل كان يعيش في صميم الاجواء التي اوجتها ، وكان المثل
الحلي الذي يشخصه صفة السعد ، ان في طاعة ، وان في ذلة ،
وان في تصرفاته ، وذيذاته في التفرغ والابتهاد . وهذا هو الذي
اوى الى وثوق عبد الملك به ، رحمه على امتنانه في توطيد ملكه
اولاً ، وادارة ذلك الملك اخيراً .

واعرب ما في تلك الصلة بين عبد الملك والحجاج انها لم تكن
مبنية على إعجاب ، ولا على مودة ، ولا على شعبية تخيل الحليفة
على استرضاء عامه . كل ما يظهر منها عند الاول تعظيم وامر
وهي وتحقير وارودار ، وعند الثاني تلاقى وصفاً واستعطاف
ونجمل ونودد . واستمرت مع ذلك قرابة اربع عشرة سنة افوى
من الاعاصير والعواصف لم يزغها قلص الرعية ونبرمها وتظلمها
من الحجاج ، ولا قالها الحوادث ، على عرامتها بضطراب بثلمها

ويكفي الناس شرها . وإن كانت ثمت مآ عتفاً ، لا تلبث ان تعود
من بعد ان سيرتها الأولى ، ويقلب عندها الخ رفق وموادعة .
ذكر الجاحظ ان عبد الملك جلس يوماً في مجلس خاصته ،
وقبض على خيته فشملها ملياً ، ثم اجرت نفسها ، وفتح نقعة اطافا
ثم قال : وما أقول يوم المسألة عن امر الجاحج ، وقد ادحض
المخبر على المليم بما طونه الحبيب ! أما ان غليكي له قرنة في
لوعة يلبها التذكار ! كعب وقد علمت فتعصبت ، وسمعت
فتصامت ، وحمل الكرام الكابون ! . والله لكاني آتياً هذا الطعن
على نفسي ... وما هو إلا العن الكامن . التهم انت في اوسع غير
منصر ولا معذر ! .

احسن وراء هذا الكلام الذي قاله عبد الملك في اواخر ايامه
ان الجاحج كان قد اكراه عبد الملك على مصادقته يوم صادقه ،
ولكنه كراه من نوع غريب دقيق في منتهى الدقة . احكراه
بفهرته المكروه على من انه هو الذي اختار العمل الذي اكراه
عليه ، ويبدو وكأنه فعله بل حريره ، حتى اذا صفا جوه ،
وتفادمت الابهام عليه ورجع الى نفسه ، فخامره نوع من الندم
كهذا الذي نفعه في كلام عبد الملك عن الجاحج . بيد ان الدقة في
الموقف تتركز عند هذا السؤال : كيف اكراه الجاحج عبد الملك
على مصادقته ؟

الواقع ان عبد الملك وفي الامر في طرف من اخرج الظروف ،
فهو لم يكن ، كما علمت ، وفي العهد الشرعي ، وانما فرضه ابوه

يشير الى العقيدة الدينية التي يعتنقها المسلمون ان من بين الانسان وشأه كائين
بجلائه عتاته وسبائه .

فرضاً على الناس^١ ، فما كاد يظلم بأعباء الحكم حتى وجد نفسه محاصراً من جميع الجهات ، والزعارع تنور في وجهه انى تلفت ، وفلك عليه اسباب الهدوء والضائقة .

وهنا اترك الكلام المسمودي يعرض لك بأسلوبه الخاص واقعة الحفل : « كان عبدالمك بن مروان قد سار في جيوش اهل الشام ، فنزل بطنايت ينظر ما يكون من ابن زياد ، فانه خبر مقتله ، ومقتل من كان معه^٢ ، وهزيمة الجيش بالبليل . وانه في تلك الليلة مقتل جيش ابن دلقه ، وكان على جيش بالمدينة لحرب ابن الزبير ، ثم جاءه خبر دخول بابل بن قيس فلسطين من قبل ابن الزبير ، وسير مصعب ابن الزبير من المدينة الى فلسطين . ثم جاءه خبر مسير ملك الروم لاون بن فلقط ونزوله المصبحة^٣ يريد الشام ، ثم جاءه خبر دمشق ، وان عسدها وأوباشها وذعرها قد خرجوا على اهلها ونزلوا الجبل ، ثم انه ان من في السجين بدمشق فتبعوا السجين وخرجوا منه مكبوة ، وان جبل الاعراب اغارت على حصن وبعلبك والبقاع ... »

نأمل هذه الظروف واحكم ... بيد ان عبدالمك لم ين ، ولم يضعف ، فقتل راجعاً الى فلسطين ، حيث التقى بابل بن قيس

١ - عندما ولي مروان بن الحكم قرر المؤخرون من بر امية واعوانهم في مؤتمر الجابية ان يكون الامر من بعده خالف من يزيد من معاوية ، ثم امر ابن سبيد الاشدي . ولكن مروان لم يرض ان يرضى عن الناس على عابدة ابنه عبد الله .

٢ - كان ابن زياد قد توجه من قبل الامويين لتعصا على ثورة قام بها الشيعة في العراق احدثا بذر الخمين من علي .

٣ - من ثمر الشام بين انها كبة وبلاد الروم يقرب طرطوس .

في اجسادهم ومزق جيشه ، بعد ان هادن ملك الروم وارضاء
بأعدائهم .

ثم جاء الى دمشق وجيز الكتاب وأعد المدينة وسار بلافاة
رفر من الحارث ، محاصره وارغمه على التسليم . وبعث هو بانهب
لهرب في العراق ووافه ثبات استيلاء ضرور بن سعيد بن العباس الاشدق
على دمشق ودعواه الناس لحبيته بحجة ان عبد الملك معصب ،
فكرت ثانية نحو دمشق ، وحاصرها الى ان طلب منه عمرو الدار
الامن فامته ، حتى اذا دخل المدينة غدر بالاشدق ومكن لنفسه
في بلاد الشام ، ولم يبق له بها من مزارع .

ولكن الامصار الاخرى : الحيرة واليمن والعراق - العراق
على الاحصاء كانت جميع رافق ، وتزوج بالامطرات ، فاحد عبد الملك
نفسه بالحرم ، وتجهز لخربة الزبيريين ، فوقع الى الفداء عليهم
في العراق ، وقتل مصعب بن الزبير اخ عبد الله ، ووقى اخاه بشر
ابن مروان الكوفة ، وخالد بن عبد الله البصرة .

كان الحجاج رفيق عبد الملك وصاحب جنده في جميع هذه
الاحداث . فلما استتب الامر للخليفة في سوريا والعراق ، ولم يبق
مامه من معارض غير الحجاز ، شعر الحجاج ان الفرصة ، مؤاتية
اذا كان - دون شك - يتبع القضايا السياسية ويدرس اتجاهاتها ،
فتقدم من عبد الملك وقال له :

- رأيت في منامي اني سلخت عبد الله بن الزبير من جبهه . فابعثني
اليه وواي فله .

تأمل عبد الملك ، فرأى في هذا المقام ، غراية لا يرقى اليها
خيال ! فاذا كان لا احد ان يحرق فلما يحرق بولاية او رئاسة او قيادة .

أما أن يحجم بسلخ امرئ من جده فهذا لا يحضر على بال . ولا
يعد أن يكون حم الحجاج صحيحاً ، فكثيراً ما تصدق الأحلام .
وما هي إلا أطراف قصيرة استغرق فيها عبد الملك الذي كانت
يشوي أن يذهب بنفسه بخربة عبدالله بن الزبير ، حتى عدل عن
نيتة وأمر بتسيير جيش لمجهز بقيادة الحجاج .

أرايت كيف أكره الحجاج عبد الملك على توليته أول ما
ولاه ؟ كل ما في الأمر أن الحجاج كان يعرف بقدرة الضعف
في عبد الملك ، في شخصيته وفي ظروفه . وكان يعلم أنه العلم
أنه الضعف وحده هو الذي يمكن سلطان عبد الملك في الأرض ،
وأن لا حياة لعبد الملك إلا به . فكان يستعمله في الساعات اللازمة
أنه هو القادر على إنقاذ السفينة من الغرق ، كما تعرضت سفينة
عبد الملك ذاته للغرق ، وما أكثر ما تعرضت له !

هذا الاتهام المحجوب الذي يجريه الحجاج على الخليفة ، ويضع
فيه أصائب الأبحاء عند الطرف العجيب ، كان يتشكل في قوالب
عديدة ، تختلف باختلاف الأحوال والشخصيات . وأمر هذلك القوالب
اثنان . الملقى والحضوع ، هما من مخلوق النسل والحجاج أو غامبه أو
تحدث إليه أو عاش معه ، إلا كان يشعر بنفرة منه وشيوخ فيه
وعناد مرة لا يقوى عليه قوي ، إلا شخص واحد هو عبد الملك ،
فانه لم يظهر له منه غير الأدعان والطاعة والدن ، وما اطل عليه
عبد الملك إلا رآه بوجه الخاضع الذليل ، ولا خالعه عبد الملك مرة إلا
بوجه ذليل خاضع . وقد بلغ من حرصه على رضا أمير المؤمنين
أن كان يصل كل من يمدحه عنده ، ويحشى أكثر ما يحشى أن
يتعرض له أحد بسوء في حضرة الخليفة .

إسمع : كان الحجاج يستقل زياد بن عمرو العنسي ، فلما
 أتى الوفد على الحجاج عند عبد الملك بن مروان ، قال زياد : يا
 أمير المؤمنين ! إن الحجاج سيفك الذي لا ينبو ، وسيفك الذي
 لا يطيش ، وخادمك الذي لا تأخذه فبك لومة لائم . فلم يكن
 بعد ذلك أخف على الحجاج ولا أحب إليه منه .

وكتب مرة إلى عبد الملك في عطية عظمها فتمت أصحابه
 وردت عليهم ، يقول : « يلقي ما كان من عطاس أمير المؤمنين
 ونشبت أصحابه له وردت عليهم . فبما لبني كنت معهم فأفور
 فوراً عظيماً ! »

وكتب إليه أيضاً في إحدى المناسبات : « إن خليفة الرجل
 في أهله أكرم عليه من رسوله إليهم ، وكذلك الخلفاء ، يا أمير المؤمنين ،
 أعلى منزلة من المرسلين . »

وكان من أثر هذه التثنيات في نفس عبد الملك أن جعلته
 يدوره صعباً خائراً جبال خدمه ، فلم يكن يملك أن يقو عليه
 ويخلص منه ، رغم أنه هم مراراً وتكراراً بهاده ، ولكنه كان
 يتراجع كل مرة عندما يبلغه جواب الحجاج ، ويلبس خضوعه
 ونذله وتواضعه .

ثم أتى مرة أن الحجاج يسرف في انفاق المال ، وأنه يبذر
 على غير طائلي من غير حساب ، فكتب إليه يلومه على اسرافه
 وينتقده . فأجابه الحجاج شعراً :

أتني كسب للخليفة خمنت فراطيس ...

ومنها كتاب فيه لبن وشدة وذكر في الذكري الذي للب منفع
 وكانت بلاداً، حبشاً، ذات فتنة بها كل نيران الحوادث تدمع
 فما زلت فيها أعمل الحزم جاهداً فأعطي على حين العطاء وأمنع
 فلا تنهي إنني لك ناصح ولست مع النصح المين أفتبع
 فرد عبد الملك عليه كتابه وكتب في حاشيته : وصدقت يا
 أبا محمد ، وبروت !

وحاول مرة ان يسجيب لخرافات الناس وتطلعاتهم ، فكتب
 اليه يأمره باعتزال عمله الكتاب الثاني : « من عبد الله عبد الملك بن
 مروان اني الحجاج بن يوسف . ام بعد ، فقد اصبحت بامر بك برماً
 يوقدني الاشفاق ويقيسي الرجاء . عجزت في دار السعادة وتوسط
 الملك وحين اهل واجتماع الفصيح النفس العذو في امرك . فانا
 لمصرات في دار الجزاء وعدم السلطان واشغال النفس والركون
 اني الزلة من نفسي ، والتوقع لما طويت عليه الصحف اعجز . وقد
 كنت اشر كذلك بها طوي في انه حمد ، وآلات تحقوي من امانة
 الله في هذا الخلق المرعي ، فدللت من عني الحزم والجد في امانة
 بدعة وانعاش سنة ، ففقدت عن نيك ونهضت بما عاندها حتى صرت
 حجة العائب ، وعذر اللاعن ، والشاهد القاسم . فلعن الله ابا عقيل وما
 نجل فالأم والد وأخيت نسل . فلعمرى ما ظلمكم الزمان ولا
 قدمت بكم المراتب . لقد اليتمك ملبسكم ، واقعدنكم على روائي
 خططكم ، وأحاشكم على قدر منكم . فكنتم بين حافر وناقل
 وما نفع في الفلوات القفرة . ما تقدم بكم الاسلام ، ولقد تأخرتم .
 وما الطائف منا ببعيد بجهل اهل . ثم فمت بنفك ، وطعن بهتك ،
 ومرك انتضاء سيفك . فاستخرجك امير المؤمنين من اعوان روح

ابن دباع وشرخته ، وانت على معونته يومئذ محسود ، فهنا
 امير المؤمنين ، والله يصنع بالتوبة والغفران زلفه ، وكان بك وكان
 ما لو لم يكن لسكان خراسان كان . كل ذلك من تجاسرك
 وتحاملتك على مخالفة رأي امير المؤمنين . ففرغت خطبتك ، وهتكت
 حجبنا ، وبسطت يديك تحفن بها من كرايم ذوي الحقوق اللازمة
 والارحام الواشجة ، في اوعية ثقيل . واستغفر الله لذنوب ما له
 عذر . فلئن استقال امير المؤمنين فيك الرأي ، فنقد حالت البصيرة
 في ثقيل مضاع التي صلى الله عليه وسلم اذ اثنى على الصدقات
 وكان عبده فهرب بها عنه . وما هو الا اختيار للثقة ، والمطاب
 لمواضع الكفاية ، فنقد فيه الرجاء كما فقد به امير المؤمنين فيما يصيبك
 له . فكان هذا ليس امير المؤمنين ثوب المزاء ، ونقض بمديره
 الى استنشق نسيم الروح . وعقول عمل امير المؤمنين ، واظلمن عنه
 باللعنة الدائمة والعقوبة الشديدة ، ان شاء الله اذا استحكم لامير
 المؤمنين ما به دل من رآه والسلام .

غير انه ورد في آخر خطبة ، ولم يشأ ان يقطع رأس الامير ،
 فلما مولى له اسمه ونياته ، كان يعطيه في النجس ، بالمعرفة به
 من ذرية السان وصدق النظر ، فتأوله الكتاب ، ثم قال له :

- نيابة ! العجل ثم العجل ، حتى تأتي العراق ، فضع هذا الكتاب
 في يد الخجاج وتوفى ما يصكون منه . فأتى جلي عند قراءته
 واستيعاب ما فيه ، فقلعه عن عمله وانقطع معه حتى تأتي بسبه ،
 وهدي . التام حتى يأتهم امري ، بما تحضي به في حين انقلاءك من
 حيي هم السلامة . وان هت لجواب ولم تأخذ الخيرة فنقد ما
 يحجب به ، وقرره على عمله ، ثم أعجل اليه بجوابه .

وليلة . . . وخرجت فاصعداً الى العرق فخطني بصعري
والفيل في واحتواني الفرس ، وأخذ مني السفر حتى وصلت . وما وريده ،
أدحت عليه وغني شعوبه مضي . وقد أوجت خدمه من واديه
ويذكر بصرفه خيراً . فكانت له الشمس من يوم فاته وهو غداً .
فلما انظر بي وكان لي غرقاً ، فقد وسمه بسم الوحد ، ثم قال :
— أما انت يا ليلة ! أما بموي أمير المؤمنين . لقد أتى بك
سفراك . واعرف أمير المؤمنين بك ضيقاً ، فليت شعري . زدكم
ودمهي بخدمه ؟

سكت وفممت . فسأل :

— ما حول أمير المؤمنين وخوله ؟

ولما هذا أخرجت له الكتاب داركه أباه ، فآخذه مني مسرعاً
ويده توعده . ثم نظر في وجوه الناس فما شعرت إلا وأنا معه ليس
بعد ذلك ، وقد ركل من يطعمه من خدمه بندقاً خائباً لا
يسمعون من الأصوات ولا يقربون . فذاك الكتاب فقرأه . وجعل
يذهب ويردد تذو به ويسبل العرق على جبينه وصدغيه على شدة
البرد ، من تحت قفصونه . وعلى رأسه عمامة خرا حصره . وجعل
بشخص التي يبصره ساعة كانوا هم ، ثم يعود الى قراءة الكتاب
ويلاحظني النظر كأنهم إلا انه واجم ، ثم يعود الكتاب ، واني
لاقول . ما أراه يثبت حروفه أشدة اضطراب يده حتى استقص
قراءته ، ثم مالت يده حتى وقع الكتاب على الفراش . ورجع اليه
ذهنه ، فمسح العرق عن جبينه ، ثم قال متعللاً :

وإذا التية انشبت اضطرب . ألقيت كل غيبة لا تنفع

فبح رآته من الحسن يا ليلة ! ولولا كتبنا عند أمير المؤمنين

الآن ، وما هذا إلا حانح فكرة نفخا مرصد يكب بقصتنا مع
حسن رأي أمير المؤمنين فبنا ، ثم صاح :
- يا غلام !

فتبادر الغلمان الصبيحة ، فلي علينا منهم المجلس ، حتى دفأني
منهم الانفاس فقال :
- الدواة والقرطاس .

فأني بدواة وفرطاس ، فكتب بيده ، وما رفع القم إلا مسنداً
حتى سطر مثل خد الفرس ، فلم فرغ قال لي :
- هل علمت ما جئت به حتى نسعتك ما كتبت ؟
- لا !

- ادن حبيبك ما مله .
ثم تاولي الخواب وأمر لي بجائزة فأجزل ، وجرد لي كساء ،
ودعا لي بطعام فأكث ، ثم قال :
- نكلك إلى ما أموت به من عجة أو توان ، وإني لأحب
مقارنتك والآنس برؤيتك .
فأجبت :

- كان معي قفل مفناحه معك ، ومفتاح قفلك عندي ، فأجبت
لك الوافية بالأمرين ، فأفقت المكروه وفضعت العافية وما ساءني
ذلك ... وما أحب أن أزيدك بياناً ...
ثم نهضت فقام مودعاً لي ، فالتزمتي وقال :
- بأبي أنت وأمي ، وب لفظة مسوعة ، وبحتقر نافع ، فكأن
كما اظن .

وخرجت مستقبلاً وجهي حتى وردت على أمير المؤمنين ،

فوجدته منصرفاً من صلاة العصر ، فلما رأيته قال :

— ما اجتواك المضجع بالنبأ ؟

فأجبت :

— من خاف من وجه الصباح أدلج .

ثم سلّمت واستبذت عنه ، فتركتني حتى سكن جاشي ، ثم دفعت
إليه الكتاب ، فقرأه منسياً . فلما مضى فيه ضحك حتى بدت له
من حوداء ، ثم استقصاه ، فأنصرف إلى قتل :

— كيف رأيت إشفافه ؟

فقصصت عليه ما رأيت منه ، فتعجب وقال :

— صوات الله على الصادق الأمين ! إن من البيان سحراً .

ثم قدف الكتاب إلى قراءته ، فادأ فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله أمير المؤمنين وخليفة رب
العالمين والمؤيد بالولاية ، والمعصوم من حطط القرون وزلل النعل
بكفاته الله الواجبة لذوي أمره من عبد استغفنه الذلة ، ومد به
الصغار إلى وخيم المرنع ووريل المكرع ، من جائل فادح ومعتز
فادح ، والسلام عليك ورحمة الله التي أنعت فوسعت ، وكان بها
النقوى إلى أهلها قائداً ، فاني أحمد الله البك راجياً لعطفك بعطفه
الذي لا إله إلا هو . »

« أما بعد ، كان الله لك بالدعة في دار الزوال ، والامن في دار
الزوال ، فانه من غيب به فكرتك يا أمير المؤمنين محصواً فما
هو إلا سعيد يؤثر أو شقي يؤثر ، وقد حجبني عن عواظر السعد
لسان مرصد ونافذ حقد اشهر به الشيطان حين الفكرة فافتتح به
ابواب الوسواس بما تحويه الصدور . فواغوثاه باستعمانة أمير

المؤمنين من رجيم الله ، على التبريد يتولونه ، وانما ما يتوكل
على من حصته به جبر الله من قدر الآيات وحسن التدبير ، فقد
اراد الله ان يفتق الاولياء ففعل الله كيداً ، وبتوكل عليه
تخسره ، وبتوكل به ففكر امير المؤمنين عليه السلام في قوله تعالى ،
يُفْلِلْ مَنْ عَرِبَ الْاَرْبَ الْعَرَبِيَّ ، ويصيب قوله تعالى ، مَوْرَثَهُ
وَأَذْكُرَهُ قَدِيمَهُ ، من الله به الاولين حتى خلفا بعده منهم ، وبما
كتب الله من حصة القدر ، ومزاولة العمل ، الى ان وصلت ذلك
الشرطة الروح من ربه ، وقد علم امير المؤمنين بفصل ما اخبر
الله به نبيه صلى الله عليه وآله من العلم بالصور الهيولى ، من الذي عثر به
القوم المتبعين من الله ، كان يؤوله الى القدره الذي احبب
الله منهم ، وقد انصموا وانضموا من ذلك ما كان ، وانضموا بما
يكون ، وما جعل امير المؤمنين ، وليهم موده غير محتج ولا
معتمد ، ان مناعة روح بن زباج طريق الى الوسيلة لمن اراد ان
يقف ، وان روحاً لم يلبي الغرض الذي به رغب امير المؤمنين
عن خواته ، وقد اصفني روح بن زباج هذه في قول امرائه
قومي بني البعيد وانطاع الاعلان ، وقد اخذت من امير المؤمنين
نصيحة القسمة لا تفتق من حجة والمواظبة على مراقبته ، مما بقي
لنا بعد الاضافة امرنا نجعل به الفهم ، ونصرف الواظف .

١ مراثي مدها .

٢ يورث الحق .

٣ أي يغتف من موته .

٤ المدحول في سلك الشرطه .

٥ يريد به الوصول الى صفه .

« ولقد مرث بعين أمير المؤمنين سائر الخبيثين بنبوءه ، المتطاوون
 من بعده ، غير مثبت موجب ، ولا مثاقيل محض ، هفت الطائب
 وحلفت اهدوب ، حتى ثارت السنة ودرت البدعة ، وحسد الشبهان
 وحملت الاديان الى اجادة العظمى ، والخرقة المتلى .

« واماير المؤمنين وفي الظنوه ، ومعض الخلف ، واستظهر له الحق
 نيا امري ، ولكل نيا مستقر . وبن أمير المؤمنين اربع اربعة : احمد
 ابنة شعيب التي صلى الله عليه وسلم ، اذ رمت بالحق مرض البقيع
 نفرا في النجى المصطفى بالوحدة ، فحق لها فيه الرجاء وراثة
 شبهة الشك ، لا اختيار ، ورافها العزيز في يوسف ، ثم الصديق في
 القاروق رحمة الله عليهما ، واماير المؤمنين في الخديج . ومحمد
 الشبهان ، واماير المؤمنين ، خمدلا ، ولا شرق بغير شجن .

« ولقد سمعت لأمير المؤمنين في صليح ، صلات الله عليه ، في
 ثقيف ، مقللا همهم في الرجاء ، بعده ، عليه ، بالجنة في رده بحكم
 التبريد على الدنيا ان محم خاتم النبيين وحيد المرسلين صلى الله عليه
 وسلم . فقد اخبر عن له عز وجل بحكمة غير الامم من فرش
 عند الاختيار والاعتذار . وقد نفع الشبهان في مناهجهم قالوا :
 « لولا نزلة هذا القرآن على رجل في القرنين عظيم ، . دافع
 اختيارهم . عند السهة بنفحة الكبر ، تكبر الجاهلية ، على الوليد
 ابن المغيرة الخروسي واني مسعود الثقفي . فصارا في الاقتدار بهما
 صنوين . ما انكر اجتماعهما في الامة مكر ، في مدحوت القرآن
 ومبلغ الوحي ، وما قدمني . واماير المؤمنين ، ثقيفا في الاحتجاج

لها ، وإن لها مقالاً رجباً ومعاملة قديمة . ألا إن هذا أسير مسـ
يحتاج به العبدُ انشفاقاً ، على سيده الغضب . والامر إلى أمير المؤمنين
عزل أم أقر ، وكلاهما عدل متبع ومواب معتدل ، والسلام عليك
يا أمير المؤمنين ورحمة الله .

وتبع نيابة كلامه : « فأنيت على الكتاب يحضر أمير المؤمنين
عبد الملك ، فلما استوعبته حارقه النظر على أخيه منه ، فصادف
لحظي لحظة ، فقال :

— إقطعها ! ولا تعلمن بي كان أحداً .

فلما مات عبد الملك فلما نفي الخبر ...

هذان الكتابان رائعان في دلائلها ، فهما وحدهما يكشفان
نوع تلك العلاقة بين الحجاج وعبد الملك ، ويظهران درجة تأثير
الأول على الثاني ، ويوضحان حجة كل منهما للأخر ، بحيث ترى
أن لا غنى لهما عن اتفاقهما في حدود الظروف التي كان يجتازها كل
منهما بمفرده .

ونكن قصة الحجاج مع انس بن مالك ، خادم النبي محمد ، اوضع
إشارة إلى موقف عبد الملك من الحجاج . وخلصنا أن هذا شتم
انس بن مالك ونال في يده ، فكتب انس إلى الخليفة يشكو
الحجاج ويتقدم من معاملته .

روى هذه القصة اسماعيل بن عبد الله بن أبي الساجر ، قال :
« بعث إليّ عبد الملك بن مروان في ساعة لم يكن يبعث إليّ في
مثلها ، فدخلت عليه ، وهو أشد ما كان غيضاً وحنقاً ، فقال :

- يا اسماعيل! ما أشد عليّ أن تقول الرعبة : « ضعف أمير المؤمنين ، وضاق ذرعه في رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، لا يقبل له حنة ، ولا يتجاوز عن ميته » .
- وما ذلك يا أمير المؤمنين ؟

- أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم كتب إليّ يذكر أن الحجاج قد أضرب به وأساء جواره . وقد كتبت في ذلك كتابين : كتاباً إلى أنس بن مالك ، والآخر إلى الحجاج ، فافبضهما ثم أخرج عليّ البريد . فإذا وردت العراق فابداً بأنس بن مالك ، فادفع له كتابي وقل له : « أشد عليّ أمير المؤمنين ما كان من الحجاج إليك . وإن يأتي امرؤ نكرهه إن شاء الله . » ثم أنت الحجاج فدفع إليه كتابه وقل له : « قد اغتورت بأمر المؤمنين غيرة لا أظن يحفظك شرها . » ثم أفهم ما ينكم به وما يكون منه حتى تفهمي إياه إذا قدمت عليّ أن شاء الله .

« فقبضت الكتابين وأخرجت عليّ البريد حتى قدمت العراق . فبدأت بأنس بن مالك في منزله ، فدفعت إليه كتاب أمير المؤمنين ، وأبلغت رسالته ، فدعا له وجزاه خيراً . فلما فرغ من قراءة الكتاب قلت له :

- يا أبا حمزة : إن الحجاج عمل ، ولو وضع لك في جامعة (قيد) لغير أن يضرك وينمحك ، فإنا أريد أن تصالحه .
- ذلك إليك ! لا أخرج عن رأيك .

وجئت الحجاج فرحب بي قائلاً :

- والله كنت أحب أن أراك في بلدي هذا .

- وأنا والله قد كنت أحب أن أراك وأقدم عليك بغير ما

أوسدت به إليك .

- وما ذلك ؟

- ورويت الخليفة وهو الغضب الذي عليك .

- وماذا ؟

فدعت إليه الكتاب ، فجمع يفرزه وجبينه يهرق ، فبسطه
بيمينه . ثم قال :

- يا كلب بن أبي أسيد مالك .

- لا أفعل ! فاني سأنطق به حتى يكون هو الذي يأنبك ،
وذلك تدمي الثمرت عليه من مصاحف .

اما كتاب عبد الملك فهذا هو : **بسم الله الرحمن الرحيم** . من
عبد الملك بن مروان الى الخراج بن يوسف . اما بعد ، فانك عبد
علمت بك الامور ، ففتيت وعتوت فيها حتى جزت فترك ، وعدوت
طورك . والله يا ابن المنفرة بعجم ربيب الطائف ! لا تمزك
كيعض نخرات الهيوث للمعالي ، ولا تركضك وكفة تدخل فيها
في وجارك . ان ذكر مكاسب آبائك بالطائف اذا كانوا ينقوت
الخبرة على اكتافهم ، ويحذرون الآبر في المناهل بأيديهم ، فقد
نسيت . كنت عليه انت وآبؤك من الدماء والمؤم والضرعة .
وفد بلغ امير المؤمنين استطاة منك على اس بن مالك ، خدام
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جراءة منك على امير المؤمنين ،

المنفرة : المرأة التي تصب المرأة وهو نواه تطيق به . وانجم :
نوى كثر شربه .

* الوجز : مكانة الصبح .

وعرفها تعرفه غيره ، ونفاه ، وسقطوا به على من خالف حبيبه ، وعهد
الى غير محبته ، وويل غلبه شخصه ، وحينئذ اردت ان توره
بما اتهم ما قلده من التعيير والسكر ، وبما كان سوتهم مصيب
قلداً ، وان غصصت به ، وليست ذريه ، مصيبت لفسادته من عند
الخفش العيينين ، احدث ارجحهم ، ممنوح الجاهل ، وانهم ان
لو ان امير المؤمنين علم انك احترم منه جرماً ، وانتهجت له
عرضاً ، بها كتب به الى امير المؤمنين ، ليثبت اليك من يثبت
ظهوراً لظن ، حتى ينتهي بك الى اس من لك ، ويحك بك بما
احب ، وان يخفى على امير المؤمنين مؤلفه ، وانحكي به مستقره ،
وسوف يهون .

قال السجستاني : وادخلت الى النجف ، فمر اول به حتى انطلق
معي الى الخرج . فمد دخت عليه قائم يخطب الناس :
- يفتخر الله لك يا ابا حمزة ! عجت باللائمة واغضبت عينا امير
المؤمنين .

ثم اخذ بيده فاجلسه معه على السرير ، فقال انس :
- انك توهم بما الاشرار وانه سيء الانصار ، وفلت ، انما
من الخلق الناس . وانه يقول فينا : ... ويؤثرون على انفسهم
ولو كان بهم خصاصة ، . وزعمت ان اهل النجف ، وانه نعم الله
يقول فينا : والذين نبوتوا الدار والايمن من عاجز اليهم ، ولا
يجدون في مدورهم حاجة بما اوتوا ، . فكان اخرج والمشيكي

في ذلك الى الله والى امير المؤمنين ، فتولى من ذلك ما ولاه الله ، وعرف من حق ما جبت ، وحفظ منا ما ضيقت ، وسبغكم في ذلك رب هو ارضى لمرضى وأسخط للمسخط وأقدر على الغير في يوم لا ينوب الحق عنه الباطل ، ولا النور الظلمة ، ولا اعدى الخلافة . والله لو ان اليهود والنصارى رأيت من خدم موسى بن عمران وعيسى بن مريم يوماً واحداً ، رأيت له ما لم تروا لي في خدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين . فاعتذر اليه الخجاج وتوخاه حتى قبل عذره ورحي عنه ، وكتب برسه وفبوه عذره ، ولم يزل الخجاج له معظماً هائباً حتى مات .

على ان المبررة البصيرة في الجواب العملي الذي اجاب به الخجاج على غضب عبد الملك ، اذ لم يكن في حافته اكثر من ان يدعن كل مرد خبيث بشيء ، ولا كان يفكر اكثر من التذلل والاذعان ، وان المبررة في كذبه لامير المؤمنين جواباً على الرسالة السابقة التي تلحق بلامه السابقة ، والشبهة المؤدية ، مما لا يطيق امرؤ بمحترم نفسه ولو كفه الامر ان يخسر حياته ، بله منصبه او نفوذه .

ثامن هذا الضعاف في امه : بسم الله الرحمن الرحيم ، لعبد الله عبد الملك بن مروان . اما بعد ، اطلع الله امير المؤمنين وأبقاه ، وسهل حفظه وحافظه ولا اعدمناه ، فان اسماعيل بن ابي المهاجر ، رسول امير المؤمنين ، قد علم علي بكتاب امير المؤمنين - اطل الله بقاءه ، وجعلني من كل مكروه قدامه - يذكر شيتيني وتوبيخي بآبائي وتعييري بما كان قبل نزول النعمة بي منه عند

امير المؤمنين - انتم الله بعثه عليه ورحمته اليه - ويدكر
السلطانة مي على انس ابن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وجرة مي على امير المؤمنين - اصله الله - في قرابته
من محمد رسول الله ، امام اهلي وخاتم الانبياء ، وامير المؤمنين
احق من اقل عترتي وعقد عن دي واميلي ومي يحيى في عند عترتي
للذي جبل عليه من كريم طبائعه ، وبه قلده الله من امور عبده .
فراي امير المؤمنين ، اصله الله ، في تسكين ريختي وافراج كربتي ،
فقد ملئت راعياً وعرافاً من صفوته وحنانه لفتته . وامير المؤمنين
- افله الله العزات ، ونجاوره عن السبات ، وقد عرف له الطبات ،
واعلى له التدرجات - احق من جميع وعظمت وبعثه رابقي ، ولم
يشمت في عدوتي مكنت ، ولا حسوداً مخبئاً بحرعي غصصاً .
والذي وصف امير المؤمنين من صيغته اي ، وشويعتي ، في السند
اي من عهده ، واوصاني من رعب رعيته ، فصادق فيه ، بحزبي
بالشكر عليه ، والنوس مي اليه بانولابه ، والفرب له بالكفاية .
• وقد عاون اسمعيل بن ابي الهجر رسول امير المؤمنين وحامل
كتابه من نزولي عند مسرة انس بن مالك ، وخطوعي عند
كذب امير المؤمنين وافتلاعه بي ودخوله بغير عبي من سامعه
امير المؤمنين وبشهادته اليه ، ومن راي امير المؤمنين - صوفني
الله بشكره ، وانعاني على ثأري حقه ، وبسختي اي من عهده مرضاته
وموافقته ، ومن لي في اجته - ان يامر بي بكذب مني وحنانه
وصلامة صدره ، ويؤمنني به من سفك دمي ، ويرد ما شرد مني

• اي حافظة على وجه العز .

نومي ، ورضيتن به قلبي ، فعل . فقد ورد عليّ امر شديد خطبه ،
عظيم امره ، شديد عليّ كبريه . أمّا ان لا يخطب أمير المؤمنين
عليّ ، وان يخطب في حرمه وعمره ومجاسته وفراسته ومواليه
وحشيه وعمله ومجاسته ما يحمد به حسن رأيه ، وعد عمله ، وإيمانه
ووفاءه ، المؤمنين ، والذئاب عن سفاته . والظاهر له في امره
والسلام .

ولمّا كمل هذا الملق ؟ وعلى ما هذا الأعراق في إظهار الدالة
والمسكة ؟ وفي هذا القوم في الخرج والاستنطرة مسبق القاق ؟
أصبح ان الخراج كان كما وصف نفسه حين تلقى تهديدات عبد الملك
وهو الذي تلقى من قبل كثيراً من أمثاله ؟

لا اطلق الله كان صادف في شيء مما اضهر امام الرسول ،
ولا كان صادف في حرف مما كتب . وكل ما في الامر انه - وهو
القطيع الخاق - ادرك العوامل التي كانت تحفز عبد الملك الى
مخاطبته بتلك الهمجة ، كما كان يعرف بمسبته ادق المعرفة ، وسنحسب
بما يجب عبد الملك ان يستجيب له من دأب وخراطة ومهارة ،
حتى لقاه في كنفه ساجداً على قدمي عبد الملك يقبلها . . . كان
يعرف ان هذا السلوب في الرد على الخليفة هو الذي يفرّقه من
الخليفة ! ثم لم يكن أمير المؤمنين نفسه صادف في ما كتبه الى
عامله ، وبلا كان من اسهل الامور عليه ان يصره بعقوان مصبه و
ما دام لا يحترمه ولا يراه اهلاً لمقام الذي يوتاه . والدليل
على ان الاثنين كانا يتكادمان ، يؤخر من الهيايات التي كانت تعني
اليها رسائلها . فقد علمت ما حدث في المرة الاولى . وامّا في
الثانية فقد روى احمد بن ابي المهاجر انه لما قرأ أمير المؤمنين

كتاب الحجاج نادى كاتبه وقال : يا كاتب ! أفرح روح إلي محمد ، فكتب إليه بالرخا عنه .

والدين الأكبر على أن عبد الله لم يكن صادقاً في غضاب الحجاج يؤخذ من وصيته لأولاده وهو على فراش الموت : يا أكرموا الحجاج فإنه الذي وطئ لكم المنبر ، وودع لكم البلاد ، وأدل الأعداء ...

ولكن عبد الله لم يكن ليفعل في الوقت ذاته عن أطباع الرجال ، وما تسول به نفوسهم حين يستشعرون القوة ، ويمسكون ضاعة الناس . فم يترك للحجاج طريقاً إلى الاستقلال برأيه أو التمكن من موقفه ، وإنما كان يجهد أبداً ودائماً في إدلاله ، فلا يسعه رفع رأسه أمامه ، ولا يفسح له في مجال لتثبت من شخصيته . ولذا نجد ، في معاملته إياه ، هذه الألوان العربية من التهمير والإرراء والمخير بقوة دأبه ، وقوة بأجداره ، وفتوراً بحصيه اليأس ، وهلوراً بإفهامه الجسدية وعيوبه النفسية ، مما يتوهم عن مثل الملوك ، وذئب النفوس الكبيرة أن نعرض له .

وكان الحجاج ، بما تمت له من عيوب ، وظهر فيه من نقائص ، أفضل ، رجل بعينه عبد الله في حبة اللاد يومئذ ، لأنه جرتب غيره من أبناء البيوتات الرفيعة ، وأحاديث المواهب والفصائل للصحة ، فكانوا حرباً عليه ، وواوهم قريبه وابن عمه عمر بن سعيد الأشدق . وهكذا ... كان الصوف الشد الذي ولى فيه عبد الملك خلافة المسلمين ، يحتاج إلى رجل شدة في الخلاف ، وعقيدة ، ونفسية ، يستعينه في إدارة منك ، ويقيده من شذوذه .

وجاءت تصرفات الحجاج كلها من قلبه إلى يائها تدعيم ولاية

عبد الملك من جهة ، وتسىء الى الخجاج نفسه من جهة ثانية .
فكان الناس يرجعون الى امير المؤمنين يصيبون العون والصدقة ،
حتى اذا انقضى منهم ، وارجع اليهم ما هدرت عامة من كراماتهم
او حقوقهم ، به الخجاج بمصيب الناس ومقتلهم ، وترافقت الدعوات
الى انه يتأييد امير المؤمنين وخطاة عمره وإدامة عمره .

فأقبل ان اول شكوى عليه جاءت من والده اول ما وحي
أمر بخاربة ابن الزبير ، اذ جاء يوسف بن الحكم الى عبد الملك
ابن مروان وقال له : يا امير المؤمنين ، ان علما ما قال في
ابنتي زيب ما لا يزال الرجل يقول منته في قلبه . وبيت
هذا (يعني ابنه الخجاج) ، وول يتنوق اليه ويهد به ، وان
الآن تبعه الى هناك ، وما آمنه عليه . وحدث الخليفة بالخارج
ونبهه قائلا : وان عمدا السعري يجري ، ولا تظن انك عليه .
هذا هو موقف والده منه في السنة التي وحي به . والصدقة
هو الذي أراد ان يذهب الى الحضر ، ومع الذي احب ان
يحارب عبد الله بن الزبير ، فنظر ما يصنعون بن امره . فليد
نهالك على الخدمة العامة هناك الضمى . على الله ! لتنظر كيف
يفهم الخدمة العامة .

٥ - في الحجاز

كانت الحجاز عامة ، والمدينة خاصة ، تنطوي على كراهية شديدة
لدمشق واهل دمشق ، لما أبدى اهلها من تأييد للامويين ، واقدموا

عليه عهد يزيد من تقبلين وتشرية وتخریق فی مذبحه الحرقة ١ ،
 التي وحفظها المؤرخ اعندي السيد مير علي بقوله : ... لقد حول
 جند الشام المسجدة الجامع الى السطين لجوفه ، وهدموا الحرم
 والامكنة المقدمة تسبب ما فيها من اثار ومنايع . وهكذا ...
 ثم القرو ان امير الوثنية ولو مرة ضد الاسلام ، تلك الوثنية التي
 كان ثوبها من الاسلام في هذه المرة ، على ما يصفه مؤرخ اوروي ،
 سببا مؤثرا ...

ولكن هذه المذبحة الفضيحة ، تحقق غرضها الابد ، ولا وصلت
 الى هدف المقصود ، اذ كان يراد منها خضوع عبد الله بن الزبير ،
 والادب الخبيث ريب ، بعد ان انتهى الحزب الاموي من الخفين
 ابن علي في العراق ، فكان ان هلك مبر بن عقبة في طريقه الى
 مكة ، ثم جاء به هلاك يزيد ، فنهض جيش الشام ، ومرتق شر
 طريق ، اذ كثر عليه الجعديون ، ولم يقبلوا منه صلحا ولا مهادنة ،
 وانفقوا منه اقطع الانكسار ، وكتبوا به تسكيلا لا نظير له .
 واستمرت الاثر الطور خاضعة لتسلط عبد الله بن الزبير طيلة

١ ... ولا انتهى الجيش (جيش يزيد بقيادة مبر بن عقبة المري) الى الموضع
 المعروف بالحرقة ، حرق الى حربة اهلها عليه عدة من وضع الاموي ، وبمعداة بن حنظلة
 الخليل الانصاري ، وكانت وقعة عظيمة قتل بها خلق كثير من الناس ، من بن هاشم وهاشم
 عريش والانصار وغيرهم من سائر الناس ... وبقي وتسمون وحدا من سائر قريش ،
 ومنهم من الانصار ، واربعة آلاف من سائر الناس ممن تركه الاحياء دون من لم يعرف .
 «وواجه الناس على انهم عبيد ليزيد . ومن اي شئ مره من عقبة على السيف ...
 ولا تزال باهل المدينة ما وصفنا من القتل والنهب والرق والناس وغير ذلك ... مما عنه
 الحرص ، خرج عنها مبر يزيد مضطرا الى حيوة من اهل الشام ليقع بين الزبير ،
 - السموذي ، مروج الذهب ، ج ٢ .

حكم معاوية الثاني ومروان بن الحكم . فلما استتب الامر لعبد الملك
في الشام والعراق وما بين امامه غير الخيول خارجة على سلطانه ،
نطوع الخيول - كما رأيت - لاعادة السلطة الاموية عليها ، وقبل
عبد الملك نطوعه ، وزوده بالندح ، وسبوره على رأس القوي رجل
من جند الشام عام ٧٢ للهجرة .

سار الخيول اذن نحو الخيول ليشي معركة الحرقة الى اهدافها ،
فلك المعركة التي اشترك فيها ، وشهد هوف ، وهرب منها قبل سبع
سنوات ! ولكنه ، في هذه المرة ، وقائد ، مسؤول ، وكان من قبل
جدياً محمداً . سار يتم ما بدأ به مسد بن عتبة ، ويفعل بمكة
ما فعل وتبعه السابق بديعة ، لأن عبيد الله بن الزبير الجأ الى
الكعبة ، واحتمى ببيت الحرام ، اعتقاداً منه ان الكعبة حرمه
في نفوس الشاميين فتعهم من اقتحامه ، فأطلق عليه لغوازه لقب
« قائد البيت » .

غير ان الخيول أصبح يزن الامور ويقدرها ، بعد ان عاين
الحدة العسكرية ، وخبر شؤونها ، وانصل بأساطينها في ايامه
واحتل بهم احشاكاً قريباً ، فلم يخطو خطوة قبل ان يقدر
موقفه ارحه ، ولم يجرؤ ان يسمعته كتباً ، وهي التي تلوثت
كعندي وكان بعد اوثق العلم انه اذا انطلق في هذه الحملة على
الخيول ، قصي عليه وعلى مطالبه ، وربما انور عرش امية ، الذي
يعتق عليه كل آماله ، انه راء حاليماً . فذا انطلقت به غفلة ، او
فلانة ، ومن نزلت عليه لعت الشاميين انفسهم ، وانتهى الى
امور مما انتهى اليه مسلم بن عتبة وجيشه ...

على هذا النحو من الشعور بالخطر ، بدأ الخيول حياته السياسية .

هذه نقطة هامة جدية ، ينبغي ان نغيب انى اثرها العظيم
 في حيوات الرجال ، كل الرجل . وبينما هم في تلقي الدور على
 سوك الحجاج - وعبره من الاشخاص - ابتداء من اللحظة التي
 تحركهم نحو الجدار قارباً ، حتى اللحظة التي تنفس بها اهل العراق
 الصعداء فرحاً بلاكه .

وليس قبلاً في حياة مريء ان يشعر الجأ ودائماً ان في
 خطر ، بل ان هذا الشعور الدائم بالخطر يمتد الى حد بعيد
 وموهبة من مواهب الروحانية التي تعني قدر كثير من بني
 الانسان كالشعراء والموسيقين والمصورين ، وبعض القواد والساسة
 والعلماء ، لان من شأن هذا شعور ان يرد النفس الى حالة
 من النشاط لا يعرف الا من عني به ، ولا يترجم - الا في
 اجازة - ثم انه يفتح الذهن بشكل عجيب ، ويجعل صاحبه حكيمة
 من رعب وفكر ، حتى انشغله العاطفة في نفسه ، وينهي اثره من
 اعماله ، ويحول تدويره الى ارادة مطلقة حرة ينصرف من حولها
 الوجود وما يحدث اليه او يحدث به ، فلا يرها الا ما تحقق به
 ذاتها ، ولا يتوهم الا لتحقيق ذاتها . وما كان ينته ليهدي الى قوله
 يجب ان نحب حبيب بخصر ، الا لانه وضع مثله الاعلى اولاً
 - وهو الانسان القوي الجبار الذي يجهل معنى الرحمة ، ولا يابيه
 الا للقوة . وشبهى بصيغة منطق ، ونسب افكاره الى التفصيل ،
 والسمع التي تقع عصب في حوات اكثر العنيفة الجيرة ،
 والحجاج مهم . واذا انت غفست تنظر في سيرة الحجاج وجدت
 انه لا يشوبه ، كي يكون بطلاً نبشياً ، الا تقبته بسلطة عبد انك ،
 ولولا هذا التقيد لمكان والسويز من ، الذي يريد نبشاً !

بيد ان سلطة عبد الملك كانت عنصراً هاماً من عناصر الخطر
الذي يهدد حياة الحجاج ، فراح ينتهبها في ان يحرقها ، وان
ينالها ، وان يزيد بها قوة واتساعاً ، ليفقد منها هو نفسه عظمة
وسلطاناً .

وبهذه الروح تحرك نحو الحجاز لاستنقاذها من وائى الزبيريين .
وكان عبد الملك قد اوجده ان يحصى العنف والشدّة ، جزءاً من
ان يشاء النوم ومن يخسر ان شهيد في نفوس المسلمين على نحو ما
اصاب يزيد بعد معركة الحرة ، فقدم الحجاج اولاً ما قدم على
الطائف ، مستهدفاً بقدمه هذا عدة اهداف : اوعا ان ينظر
بامتنان اوامر الحليفة ، وثانيها ان يظهر تواضعه الذين انقذوه في
صباح مدى ما بلغ من عظمه ، وثالثها ان يعيد مسكن السراخية
المواقع الجغرافي للاستيف وهي القنطرة على سهل غروان ، فمن يكون
ابن الزبير في يصر من امره اذا حصر به ان يردده بفجوم ،
ورابعها ان يستقر حصن الطائف لخدمة الجند لاجلها وهو قدم
على إقامة حصار اكثر مما هو مستهدف فتح معركة ، واسيرة ان
ينصره الله اذ دارت الدائرة عليه ، فتن تدفع به الدائرة ان
يخجلوه في بلادهم عند يصبح ويأثم في حصة العدو ، مهما كانت
رأهم فيه ، وحسد لهم .

وبعد وصوله بيام قليلة ، بدأت المناوشات بين الحجة : الحجاج
يرسل من جانيه بعض الفرسان في غرة ، وابن الزبير يرد على
العارة بنظ ، ولكن غرة الحجاج تنهي بالظفر ، وتعود تلك الغيرة ،
مما شدة غيرة صاحبنا وحمله على استعمال الواقع الذي يمه ، وكتب
الى عبد الملك : ... انك مني تدع الزبير وتكف عنه ، ولا

ثأمر برجه ومعدنه يكثرا عدواه وعدده وملاحه . . . وهكذا . . .
 استقر عبد الملك عن رايه ، ووسوس له ، واستعد امرأ . . .
 على مكة . فما كانت الموافقة تبغ حتى تقدمت بالجيش واحتل
 حين أبي فيس ، على مرمى حجر من مكة ، دون خدوة تذكر .
 وثا ورد كذبه على عبد الملك بحذر ابن الزبير في مكة ، وانصر
 بأبي فيس ، كثر عبد الملك ، فكثرت من في داره ، وانحل الكبر
 بمن في جامع دمشق فصاروا ، وانحل ذلك بأهل الأسواق ، ثم
 حأوا عن الخبر ، فقبل ما : . . . الخراج حصد ابن الزبير بمكة ،
 وخبر بأبي فيس ، فحأوا : . . . ورضى حتى كثر الله منكره ، على
 رأسه راس ، على من يرب في الأسواق . . .

وهناك ، على قمة أبي فيس ، حصد الخراج الخراج حتى وراح
 يقصف بلد الذي فصف عينا مواضلا . فهدم جانب من حصنة
 اضطرب معه امكثيون اصغرنا عظيما . ومرى الدعر أي جيش
 الخراج نفسه .

هناك ، بقوله شهد عدان حضر الواقعة ، فلا عن الخوري :
 . . . رأيت منجنيق أهل الشام يرمي ، وحدث السماء ورفعت ،
 وعلا صوت الرعد على صوت المنجنيق ، فحطم أهل الشام ما
 سمعوه ، دمكوا ايديهم ، ورفع الخراج يركه فبانه فغزوها
 في مضطته ، ورفع حجر المنجنيق فوضعه فيه ، ثم صاح : ارموا ،
 ورمى معهم . ثم اصبحوا فجاءت حذقة ينسها اخرى ، فقلت من
 اصحاب الخراج اني عشر رجلا ، ونكر من الشام ، فقال

احصاه في ارض الشام لا تسكروا هذا وفي ابن تيمية ، وهذه
 صورة في تيمية . عند الفتح قد حضر وبشروا فان القوم يصيبهم
 منى من مدرك ، وذهب من المدرك فاصيب من اصحاب ابن الزبير
 عدة من اصحاب الجرح ، فذل الجرح : ألا قرون انهم يصيبون
 وانتم على الصفة ، وهم على حذوف الصفة .

هكذا كان يدور حول معركة خضراء . وهذا هو السور في
 توجيه حدوده زرع معونته . واستغرق حذره مكة منذ دخل
 القمامة في الشهر . وقد من راد المكين وعسر عليهم ايجاد ما
 يأكلوه ، حتى خضروا الى اكل الكلاب والحررة ، وطفقوا
 ينساقون منى وفرادى الى خارج الخدر يصيبون الامان ، وكان
 في عداء المنصور ابن عبد الله ابن الزبير . حررة وخيب البدان
 اندلا بطرح واحد .

ومد الشد الامر على عبد الله ، ولم يجد مخرجاً ، دخل على امه
 في المسحط اطراف حبيب يوم حسين ليلة ، فبدا بينهما الحوار
 الثاني . قال عبد الله :

— يا امي ! حصاني اليك حتى ولدي واهلي ، ولم يبق معي
 الا النسي ، ومن ارض غصه اكرو من صبر ساعة . والقوم يعطونني
 ما اردت من الدنيا ، فما رأيك ؟

— ابنتي ! امر الحث ، ان كنت تعذ لك على حق ، واليه تدعو ،
 فامضى له فقد ومن حبيب اصحابك ، وان كنت في ارض الدنيا
 فبئس العبد انت . امكنت نفسك وامكنت من قتل معك ، وان

قلت : قد مكنت على حق ، فلما ومن الصافي وعلقت ،
فبئس هذا فعل الأحرار ولا أهل الدين . كما خفوتك في الدنيا ؟
القل احسن !

— الخاف ، يا امه ، ان قدني أهل الشام ان يتجأ في ويصوبوني !
— يا بني ، ان الشام لا تسم من السبع يوم السبع ، فمض على
بصيرتك واستعن بمتة .

ودة منها فقبل رأياها ، ثم قال :
— هذا رأيي الذي خرجت به ، اني اني يومي هذا ، فـ
ركنت اني اندي ، ولا احببت اخذها فـ . ومذموني الى
الخروج الا الغصب فـ وان احسن حرمه فـ . ولكي احببت ان
امر رأيتك فقد ودني بصيرة . وانظري يا امه اني مقول من
يومي هذا ! ولا يشند حركاتي وسمي الأمر اني الله ، ان انك
لم ينعد إشار مسكر ، ولا حلا بعد حشا . وم يطر في حكم الله .
وم يتعمد ظلم مسراو مدهد . وم يسمي مسرا من محلي مودت
به ، بل انكرته . ولم يكن شيء عندي آتوا من ربه ربي . فليج
لا اعول هذا توكيد نفسي ، ولكي افواه تعبره لامي حتى
نسلو عني .

— اني لأرجو ، يا بني ، ان يكون من اني منك حبيلا ، وان
تقدمني احببتك ، وان جفرت سرورته بصرك اخرج حتى
انظر ما يصير مرث .

— حراك الله خيرا ! ولا ادعي الله في .
— لا ادعي لك ابدا ، ومن قل على رطل ، فقد فقلت على
حق ... اللهم ان عبد الله بن الزبير كانت معظم حرمته ، وقد

جهد فيك لعدائك ، وذل مهجة نوره ، ورجاء ثوابك ، فلا تخفيه
ولا تخنه ، بل خبيرة وانصرة ! اللهم ارحم طول ذلك اقيام في
الليل الطويل ، وذلك الحبيب والظلمة في هواجر مكة والمدينة ،
ويرة بوالده وفي ! اللهم قد سئمته لأمرتك فيه ، ورحمتك لما قضيت ،
فأثني ثواب الصابرين الشاكرين .

والحي محمد بن علي يدب يقبها ، فقلت :

هنا وذاك ، ولا سم

حدث ، يا أمه ، مودعة ، أرى آخر أيامي من الدنيا .

فأصبر على مصيرك ، وأنت مني حق ودأمت .

وإذا منى ، ففقه وفهم ، وموقف يدب على الدرع ، فقال :

— وهذا حبيب من يريد ، تريد

— من أمة إذا لاشد منك

ألمس ثيورك مشيرة ، من الدرع لا يثقل مني .

هنا كسر رأسه وحبب فارت ، فقلت :

— يا بني ! لا تقبل مناه حبه ، ففقه بها على نفسك الذل .

هو الله أخيرة سبع في امر حير من حيرة سوع في صلاة .

أخرج من حضرتها ، وهرب من حرب ، وهمل من قبل ،

ورجع في البيت وهو يمشد .

ولست بمناع الحيلة بسيرة ، ولا مرق من حشية الموت حلما

وما أن وآه محاصروه من جند الشام حتى شدوا عليه ونكثوا

من كل باب : أهل حمص في الباب الذي يواجه باب الصنعة ،

وأهل دمشق في باب بني حشبة ، وأهل الأردن في باب الصفا ،

وأهل فلسطين في باب بني حمص ، وأهل قسرين في باب بني سهم ،

وكان الخجاج وطارق بن عمرو - وهو الذي وبى المدينة فيما بعد - في ناحية الأبرج إلى الشوفة .

كان ذلك يوم الثلاثاء أول النصف في اليوم السابع عشر من جمادى الأولى عام ٤٧٣ . ووقف عبدالله وصاح به : يا احموا على بركة الله ! وحمى حتى بلغ بهم إلى الجحون ، فقام يجر أصاب وجهه ، فحلب من ماله بدمه ، ثم هوى إلى الأرض ، فصاحت مولاه له : يا أمير المؤمنين ! وكان تحية محبوسه ، وهو القوم أن عبدالله أحب الأمانة المينة .

ومضى بعض الطوود الطير ليجرح ، فمجدد من بقاءه ، و - ز هو وطارق فوهما معه . قال طارق :

- ما ولدت النساء أذكر من هذا .

ومنع الخجاج قتلاً :

- أئذج من بخلاف طاعة أمير المؤمنين !

- لولا هذا ما كان في غير الله محذروا . وهو في - غير حديق ولا منعة مند ثابته الشير ، ينقلب منه ، بن يفضل عليه في كل ما النقيب نحن وهو .

وبلغ ذلك عبد الملك عقال : والعواجب ما كان طارق . ثم امت الخجاج برأس طارق ورأس عبدالله بن صفوان ورأس حمزة ابن عمرو بن حريم إلى المدينة فصببت فيها ثلاثة أبهم ، وأرسلت من ثم إلى دمشق .

وكان رد دمشق على هذه الأعداء الثلاث نصيب الخجاج واليا على مكة ، وطارق على المدينة . ثم يكف الخجاج باعتباره ، فطلب جثمان عبدالله بن الزبير ، وخلاه مصلوباً مدة من الزمن .

فجاءته امرأة امه - وكانت امرأة عجوز خويصة مصفوفة البصر
تقوده حذرة - وقالت له :

- اما آت هذا الغارس ان يتوجع ؟

وعلى الخراج ، واجها بخشونة وعصبية ظاهرة :

- من ؟ من ؟

- ولله ما كان مدققا ! والكم كان حواما فواما رثا .

- حربي ذلك عجوز قد حرفت .

- لا والله ما حرفت ! أشهد اني سمعت رسول الله (هي ابنة

ابى بكر الصديق) يقول : « يخرج من ثقب كتاب وميراث .

اما الكتاب فقد رثته » هي عذراء ، واما الميراث فانت .

واصرخت العجوز التي تلي حائفة ، وطلعت اليها مصلوبا الى ان

كأتم عروة بن الزبير الصديق يدانه عبد الله في شأن دونه ،

هانزل عن الحشة ودفن .

كان هذا الحدث - وقد نهك العجوزون وشيعوه في كل قطر

وناد - اول ما دشن به الخديج عهد ولايته في مكة .

أمعن النظر فيه نجد ان الوالي الجديد كان في غنى عن صلب

خصمه بعد ان خسر به واحترق رأسه ، ونحو أن الى جيفة ، وكان في

انتصاره كفاية عن التشكيل . وما كان لطب احد عليه مما لو

وفق لك العجوز المسكينة الفجوعة ، واجها لما طلبت ، وهي لم

تطلب شيئا يدعو الى تأنيبها وتبكيها على نحو ما فعل ! بيد ان

في فرارة هذا الرجل ضرب عجيبي من « الحقد » دائم الاضطرام ،

دائم السوء ، دائم التعرق ، لا ينام ولا يريح ولا ينام من لا
بحركة مؤذية مقدمة مرة ، حتى السحاب لا يعمل في حبه وجوده
وكانا من الشر ينزل في سلسلة القهقرات عميقة بحركته المستمر ،
وتدافع الأموات باستمرار ، لا تدور طرفة عين ، ولا يدور معها
عن الأذى طرفة عين ، وهو من هذا التعبد الذي في معنى
شغل عن العالم الخارجي ، وما يدور فيه من آلام ووجع
واحزان ... أو هو حجر من هذا الكتل كبر ، أو صفا
بشكل غيره .

أما من هذا التعبد المذهب آدمي المذاب الآتي ، ولا حسب
أنا قادرون على تبيته ، ولا حتى أن له مثيلا في تربية الرجال
وسيرهم ! أليكون احتقر الذي هو الذي أدرك في نفسه
هذا الخلق حتى على الجيفة ؟ أم يكون الآلام التي عده في معزله
هي التي رزقه أي قوة لا يغيره ؟ أم أن شدة تكويبه
الجمي أدنى إلى ذلك الانحراف العاصفي عنه ؟ أم هي ورائته
التي تجذبه إلى شعور محبي قديم موطن في إمداد القدم ؟ ثم ما
هي هذه الفجبة التي تليق بالناس بضعفت بتفكيره حين يفكر ،
ويقتنعك بحجته حين يرفض ، ويأخذك ببيان حين يسكن ؟

نحن هنا نجوء ظاهرة لا نعلمه على تفسير ! لقد بدأنا بحثك
بالذات ، والحجاجة ، وأغرب ما في الحجاج هو المثل ، والذات ،
الصاحبة الضعيفة الخلية بالفكر وحسن التفهم لواقع والقدرة على
الأيذاء ، إلى هدرها حيل ما نجو من مقاييس وإمدادات .
اسمع الآن حضابه في مسجد مكة في اليوم الذي قتل به
أن الزبير ، إذ اجتمع الناس والجنود ذاهبين مشدقين ، وصعد

اشهر منكم ، فحط الله عنه وقمان :

« موج ابن النظم ، وانجني بضوء صيحه ! »

« يا اهل الجور ! كيف رأيتموني ! ألم اكشف ظلمة الجور ،
وضعية الباطل بنور الحق ! والله لقد وحشتكم الخجاج وملاءة
مشق ، وعصاة رحمة ، ورويل قرابة ، فانيكم ان تولوا عن سفا
افئدة عليه ، فاهضع عنكم ما وصته لكم بلعازم البئار ، واقبح
من اوردكم ما يفر التفت من اورد القذا الشراء .
ثم رول وهو يقول :

أحذر الحرب إنه عاصت به الحرب عظم

وبن شيرت عن سفا الحرب شيرا

في اليوم الثاني ، رفع حثان عبد الله على الصليب ، فارتجت
مكة ، وصدع المنبر وقال :

« ألا ان ابن الزبير كان من احبار هذه الامة ، حتى رعب
في الخلافة وبرع فيها ، وخلق طاعة الله ، واستكن بحرم الله .
ولو كان شيئا مانعا له صفة سمع آدم حرمة الجنة ، لأن الله تعالى
خلق بيده ، واسمده له ملائكته ، وادخله الجنة ، وقد عصاه اخرجته
مها بحديثه ، وآدم على الله اكرم من ابن الزبير ، والجنة اعظم
من الكعبة . »

لا ينبغي اثر هذا المنطق في نفوس الذين سمعوه ، واكبر الفضل

١ حكمة .

٢ حكمة .

٣ تخرج .

٤ مقوم الرمح .

انه كان قوياً بنفاً ، وانما انهم هو ان تعرف صدق الحجاج من كذبه في هذه المواقف . اصحح انه حارب ابن الزبير - وهو يعترف انه كان من اخبار هذه الامة - لانه خلع طاعة امير المؤمنين ؟ ذاك ما أشك فيه ، وبلا في الداعي الى ضلته والتميل به ؟ ثم لم كان يعبر عنه راء المذوق ، كما تعرض الناس له كره ؟ الحقيقة ان الحجاج كانت يجهد في تحقيق شيء واحد : انه يحرمه الخليفة وينتق به ليتمكن من السلطان ، ويدفع عن نفسه الاخطار التي تهدد بها من شانه ومحفره والسحرين منه ! وهذا ما فعله اليه الحسن البصري - وهو من اومقة ذلك العصر - يوم قال عنه : « ألا تعجبون من هذا الفجر : يرفى غيات المنبر ، فينتكس بكلام الانبياء ، وينزل فيفتك فم الحثاريين ، يوافق الله في قوله ، ويخالفه في عمله ؟ »

وهذا ... لانه من لوفوف عند هذه الظاهرة الغامضة ، من سيرة الحجاج ، لان احداً من مؤرخيه لم يتعرض له ، ومهم من لم يشر اليه في قليل او كثير . والحجاج نفسه كان يحرص اشد احرص على اشتهار صيته ، لصدق خاصة ، ولم يبالغ ان يسميه الناس بالظلم والقسوة والغلظة وما شاكل هذه الاوصاف وتعمل بها او تفرغ عنها ، ولكنه كان يفتضب الغضب كله حين يرميه احداهم بالكذب او النفاق .

والواقع انه كان ، على الرغم من هذا كله ، معتبرية نقدية من الطراز الاول ! ونفاقه يظهر في جملة سيرته ويخفي وراء تفاصيلها . وهذا هو جانب المعتبرية من نقده ، بل انه ينبغ من اتقان الكذب درجة ضاع بها عن نفسه ، فكانت يجتلي اليه انه يعمل ما يعمل

بوحى من مبدى يؤمن به ، وما كان يؤمن بشئ من آمن به
مضروبه ، وجاهدوا في سبيله ، وصحوا من أجله .

أمن الله ، وخطب مرة وذكر الذين يؤذون قدم رسول الله
صلى الله عليه وآله ، فقل : يا أيها الذين يؤذون رسول الله
ورثة نبيه ! هلا طغوا بنصر أمير المؤمنين عبد الله ! لا يهدون
أن خيفة الله خير من رسوله ؟

وسمع أحد الخوارج هذا الخطاب فقل : يا أيها علي ! ان لا
أصبي حنكك أبداً ، ولئن رأيت قوماً يحسدونك لأفانك معهم .
فقل في دبر الخنازير حتى تؤكل .

وانه لما يدعو إلى التعجب حقاً أن تكون عقيدة الخوارج بالتي
على هذا النحو من التضعضع ، ثم يأخذ من نفسه حمية للشريعة
التي جاء بها النبي ، ويقتل الناس ، ويقتل رؤسائهم ، فلو كان ذلك
الرجالة ، وفي اتفاق يملأ على هذا الحق أو بسيفه !

ورأس هذي هي الخطبة الوحيدة التي تظهر كفره بالنبي . فقد
خطب مرة وهو في طريقه إلى أطح بعد أن استغلف على العراقيين
أنه محمد فقل : يا أيها العراقي ، اني قد استعملت عليكم محمداً
وبه الرغبة عنكم . أم أنكم لا تستهونون ، وقد أوصيته بكم خلافاً
وصية رسول الله بالنصارى ، فإنه أوصى أن يقبل من محسنهم ،
ويشاور عن مسيئهم ، وقد أوصيته أن لا يقبل من محسنكم ، ولا
يشاور عن مسيئكم !

ومرد هذا التفاف الأحملي في سلوك الخوارج إليه لم يكن

١ - شرح السبع آلاف إلى السيد ج ١ ص ١٠٩ .

٢ - مروج الذهب لمسعودي ج ١ ص ٨٧ .

يضموني إلا على غصقة حسنة هي جوهر كنهه الشغفي ، ويبدو
تصرونه جمداً ، أن في حياة الشخصية وأن في حياة العدة ، ألا
وهي الكريمة .

كان يكره الإسلام كدين . ويكره صاحب الرسالة الإسلامية ،
ويكره الحذر الذي عهد من العرب ، ويكره مشيخه ، ويكره كل
ذي نعمة ، حدثاً كانت أو ثروة أو جده . وهو يزايد الأمويين
عامة ، ويروا من حدة ، حياهم أو يحزنهم بزراهم وفقدتهم ، لا ...
والله في كرامته لروح المدينة الجديدة التي حمله على البحر في
البحر ، ودفعه دمه في يارهم الباسي والفكري . واليك هذا
الطوار به وفي عندك . هل هذا :

- يا ابن من أحد ، لا وهو يعرف عيباً نفسه ، فصف لي
عيبك .

- أشفي يا أمير المؤمنين !

- أنت أفعى .

- يا جوح لوداً حقواً حسود .

- ما في ، ليس شراً من هذا .

وبلغ هذا الكلام خالد بن صفوان فقال : دغدغ الشغل الشعر
بمذاخير .

هذه الرواية وحدها ، التي تروج جميع المصادر ، تدل على أن
الحجاج كان يدرك ما فيه من عيوب . بيد أنه لم يكن يدرك أن

والتفاق ، الذي يتعاضد ان يوجه به ليس إلا ، محصلة ، هذه
الامراض النفسية التي تختص في نفسه . ومن المعلوم ان يكون
الحجاج قد نشر في الناس عمداً متعمداً حكاية حده وإخلاقه ،
تقديراً لرد الفعل في نفس أمير المؤمنين حين يوجب المرجفون
بكونه وريثه وكذبه ، فكان يصريح بانه واهله على السواء
بآرائه فيهم ، حتى اشتهر بالصرخة ، والصرخة الغفلة على الألعاب ،
مما القى في روع عبد الملك ان عماله يحسن له لا بداهته ولا
ينبذونه .

ولكن الدقة في تفاق الحجاج هي موقفه من نفسه ، فقد كان
يحاذرها في أقوى مظهر أعرف به ، أعني إخلاقه لعبد الملك . وأخيراً
الذي يألف الحاكم ويصر على الاستمرار فيه رغم نقاب الأحداث
وتعابر الأيام ، ينهي حناً الى الذي مع نفسه ودرجته ، ان يضطر
الى مراعاة الظروف ، ومسايرة الاحوال ، والذلل عن باطل كان
يراه اميراً حفاً ، او الوجوع الى حق كان يراه رجلاً ، دون ان
يسهدف مثلاً اعلى ، او ينسوي فكرة يؤمن بها . فلهذا لا اعلى
ان يظن حاكماً ، وفكرته الاولى والاخيرة ان يعيش في رغبة
ورفاة .

وتلك هي رواية الحجاج الحبيبة ، فان جهة ما لدينا من اخباره ،
بعد ان احتل مكة وعين والياً عليها ، يعيد بوصوح لا ليس
فيه انه اراد شفاء احقاده ، والتفت من اهمية الشخصية كائنات
الكثير مما حاول توطيد خلافة أمير المؤمنين عبد الملك . وشامت
المصادقات ان تفهم هاتين الناحيتين في سلوكه انه انما انبجهم
واروعه . ولم يكن يتاح له ان يفرق بينهما او ان يميز احدهما

عن الأخرى لو لم يقبل ذلك المؤرخون الأوامر التي كان الخليفة
يصدرها إليه في كثير من المواقف التي تعارض بها مصلحة الخلافة
ونفسية الخراج .

حدث مثلا على ذلك الحادثة التالية : « كتب محمد بن الحنفية
إلى عبد الملك : إن الخراج قداء بالدم . مكة : « وقد خففه ، فأجاب
أن لا نجعل له عبي سلطان بيد ولا لسان فكتب عبد الملك إلى
الخراج : أن محمد بن عبي كتب إلي يستعفين منك ، وقد أخرجت
بيدك عنه ، فلو جعل لك عبي سلطان بيد ولا لسان ، فلا تعرض له .
« وفيه الخراج مرة في السنوات خمس على شقيه ثم قال :
لم يأتني في ذلك أمير المؤمنين ، فقال له محمد : وبك ! أما علمت
أن شه تبارك وتعالى في كل يوم رواية ثلاثة وستين حقة ، أعلم
أن ينظر إلي منها واحدة ، ويرحمني ، ولا يجعل لك علي سلطاناً
بيد ولا لسان ؟ »

وكتب إليه عبد الملك في رسالة ثانية : « ... جنبي دماء آل
إبي طالب ، قلني رأيت الموت استوحش من آل حرب (بني أمية)
حين سفكوا دماءهم . « ما كانت هذه الوصية لتبرح بل الخراج
كلما بقي طائفتاً .

وإذا كان لعبد الملك أن يحول بينه وبين ما يشتهي من التسلط
بأفشاريين ، فليس له أن يمنع من رواه غلبته عن طريق آخر ،
كان يتكلم بحزب عبدالله بن الزبير وغيره من الأحزاب ، أيضاً

« الخليفة أمه ، وابوه الأمام عبي بن أبي صابر .

« المموي . مروج الذهب ، ج ٣ .

كان الأسير ، وأنه كانت الوسيلة . اللهم ان يثدي وات بسى .
وان يخرج .

نحن نعم انه دخل مكة فلتحا وهو في الثانية والثلاثين من
سنة ، وكان الى يومه ذلك عربياً ، ففكر ، اول ما فكر ، بعد ان
حقق حله في الولاية ان يتزوج . ودفع به العتي أو العرور الى ان
امرأة ابن نجسر على رفض بده اذا مذهب حطياً . فتقدم من رجة ذات
مستور الفزارية يعرف عليها غصه . وكانت هذه امرأة عبدالله بن
الزبير الذي صلبه بلامس ، وها هو ولد اسمه هاشم انصلي به .
فقال في شيخه الطير فلقب ابنها . وقت : « ماذا يريد ان ذلعهاء
تلكى حرقى لنا ، ثم ردت رسوله مروءة به ذليت :

أبعد عائلاً بيت به نخسبي جهلاً جهلت ، وغب الجبل مدموم
فأذهب البك فاني غير ذليلة بعد ان اساء ما اسق النيام
من يحمل العير ، صفراً جحافاً من الجواد ، وفضلته مفوم :
وثبات الصدمة ، او الصفعة ، عيفة مدمت ه اعذب الحجاج
اول الامر ، حتى اذا هذا ادرك ان ولايته على مكة لا ترفع من
قبينه في نظر غيره . وجمعت هذه الحادثة يزيد في حقته ، ونورده
النار في صدره ، وتحقره في عين نفسه . فراح يعمل حفية على
زحزحة طارق عن المدينة ، ويتألف لعيد امثلك ما شاءه التراف ،
الى ان صدرت الاوامر بعزل طارق وزيلانه المدينة ، ثم الحجاز
بكامله ، ثم اليمن واليهامة .

١ . تقول : « لا استبدل رجلاً حزيناً بعمره عيش ليلته في الصحراء . » وانا لا
استبدل بهذا الحزن الكرم حماراً اسقى شدة .

وه انكى ميعونه في التهيئة فاض منها في مكة ، فقد صرف
 عنه فيما الى رساه الانصار واداهم ، ولحقه يكن من بعده
 فيه السخط على الحكم الاموي ، كذا اراد ان يقتل طاب من
 الذين حصروه عند النبي ورحمه على الاسلام واغتنابوا
 الاسلام ، وكان يستحب من حمية ، ويقو عليهم قسوة يجد ما
 مبرور في محبتهم وانما فقه مير المؤمنين ع ، . وند ما
 كانت نظير قسوة في ممة اصحاب رسول الله حصة ، اذ راح
 بكم على ايديهم ، ارضى ليكيدهم ونداتهم على نحو ما كانت
 الفاشعون يملكون الاجاب وبقضروهم ، ما اعطب السكان وقرهم
 وايظف فيهم روح النقة والتمرد .

واطرف . - نجد في سيرة الحجاج حلال ولايته على الجزيرة
 العربية ، ذلك « التبرع » في الشكر وائل التحقير والاهانة ،
 ولا غربة في البغض اقوى هواء النفس على الاحراج ، كما يعبر
 هو في ارج ، والحجاج تلقى من البغض ، ومارسه وعاشه ، فلن نجد
 له فيه مثيلا ، سواء عند المتقدمين او المحدثين .

اليك هذه الطريقة في مكافأة رجل شهد معه مشهدا كذا ،
 وشهد معه تحريق البيت ، وكان من انصاره الاصفياء ، يقال له
 عبد الله بن هاني ، وهو رجل من اود (حي من اليمن) ، شريف
 في قومه ، منظور في شعرته .

اراد الحجاج ان يكافئه ، فارسل الى اسمه من حارجة (وكان
 من هراة ، اي من قبيلة ربيعة التي رفضت يد الحجاج في مكة)
 فجامه . قال له :

- رواج عبد الله بن هاني ، ابنتك .

- لا... ولا كرامة !

فصاح الحجاج بعلى صوته :

- يا غلام ، هات السيف !

فارتجف ابن خازجة وقال :

- دعني يا أمير ، أنا أروجه .

ثم بعث الحجاج إلى سعيد بن قيس العمدي ، رئيس البهامة
(وأحمد بن معروف بن ولأهم الشديد لهي ابن أبي طالب) ،
فقال له :

- روج عبد الله بن هاشم ابتك .

- ومن أود لا... والله لا أروجه ولا كرامة .

فصاح الحجاج :

- هاتوا السيف !

فقال إقناذ لحنه في تلك اللحظة .

- دعني أشاور أهلي .

وما إن شور امرأته وأهلها حتى قر رأيهم على الاعتصام لما
يريد الأمير ، فالتفت :

- روج ! لا يقاوم هذا الفسق !

وعندما تم الزواجان ، وقف الحجاج بفخر حديقته بسفوفه فلا .

- يا عبد الله ! لقد روجت بنت سيد فزارة ، وابنة سيد محمدان

وعظيم كهلان ، وما أود هالك !

فأجابه هذا بما يرفع به الخيف الذي لحقه وتلا :

- لا تقل - اصنع الله الامر ! - ذلك ، وان لم يوافقك علي
لاحد من العرب !

- وما هذه منقبة !

- ما نسب امير المؤمنين عثمان في ذلك عهد .

- هذه والله منقبة .

- وشهد ما صديق مع امير المؤمنين معوية بن وهب رجلان ،

وما شهد مع النبي قوايل الا انهم علي امير ، لا رجل واحد كان ،
والله ، ما كذبته امرأ سود .

- هذه والله منقبة !

- وما ما احد تزوج امرأة نكح في قوايل ولا نولاء .

- هذه والله منقبة .

- وما ما امرأة الا بدت ان تلبس الحلي ان تذهب عشر

جزائر ما فقت .

- وهذه والله منقبة .

- وما من رجل عزم من ابيه شتم النبي قوايل والله الا فحل ...

واريدك انيبي الحسن والحسين وامهما .

- وهذه والله منقبة .

- وما احد من العرب له من الملاحاة والمصاحاة ما لنا .

وهنا ، ضحك الخباج لان محطبة كان دميحاً مجبوراً ، فيبيع

الوجه ، احوال ، مثل الخوة ، فلهي عنه وجهه وهو يمدحك وقال :

« اما هذه فدعها ... »

هذا مثل من السلب في اوهاق الخجزيين وبغضهم ، وكما

يصادر فيها ، كما رأيت ، عن كراهية ، عن حقد ، عن بيسة غير

واقعة في الأنظمة من مؤسسي حركة الاستعمارية ومصرحاً ومؤيداً
والجاذب في الآذان م. وشعره .

أما العين العبراني التوحيد الذي قدمه في الله ودينه على الجوار
فهو تعبير الكعبة التي دمرها بيده . وهو كان يبعثها إلا اعتدلاً
لأوامر الطبيعة ، وسبق مع التبر العام الذي لا يمكن في استنساخه
أن يصفه بحال من الأحوال .

دلت أن التوحيد التوحيد المبني في الخلق ، وجوهر الذي عاش
فيه تلك من طبيعته أن يخلصه كل وتي ، فليس ذلك التبراع المثل
المدعى الرابع بين وبين معصيته . ولست حجة الخلق إلا قوة
ممه من حدس العزيم . هي التولية العميقة والآذان السور . وما
الخلق ، وما كل حسب ، غير وتي كرهه فطوحه على اصطلاح
الآذان

مع الحجاج

١ - فتن وتوريات

سأمت سيرة الحجاج في الحجاز وامت سيطرته ، وتوالت
الشكاوى إلى عبد الملك متوالية جردة ، تنفص له من فسونه وفناظته
الاحرار خفاة ، وتفعله منه امام ضاعبة جردة ، ووجد بعكر في
حرته ، ولكنه كان يعود نفسه ، كبر فكر في عزله ، حول الأحداث
حسام لا يقوى على دفع خطرهم غير امرئ ، عات لا يهتبه من
الدنيا غير منصبه . ولا يصته عن البطش لوم ، ولا تأخذه بالعداة
شفقة ، فيعود عن تفكيره ليعيد من الحجاج ... هكذا كانت
الظروف تخدم حجازا ثقيف . وهكذا كان حجاز ثقيف يخدم
الحليفة .

وكان العراق حاحة مسرح فلاقى واضطرابات متعقدة . . . حينما
وم يستقر مند قتل عثمان واستخلف الامام علي وثأت الخوارج
الذين اصرروا على عدم الاعتراف بشرعية الملقبة الاموية ، فراحوا
يدافعونها ، ويندفعون معها كل حلقة ... فلما وفي عبد الملك حارب
محمب بن الزبير عامل اخيه عبدالله على العراق ، فدحره وبيعته
اهل الكوفة ، واستعمل خالد بن عبدالله على البصرة ، واحده بشرأ
على الكوفة ، كما انفذ الحجاج إلى الطبرستان ، ورجع إلى دمشق .

وفي عام ٧٥ للهجرة ، نظم الخوارج صفوفهم واشتدوا في
مقارعة الفرس الأمويين وهددوا العراق واشكوا ان ينعزلوا .
كان بصرى حاكم الكوفة فله وجه اليهم القائد اليمني المهلب بن
ابي حنفرة فوفا على رغبة اخيه الخليفة ، لا ثقة به به ، اذ كان
يريد نيل القيادة لغيره ، فم يرسل معه جيشاً قريباً . ووجه
عبد الرحمن بن مخنف في جند الكوفة بعد ان زوده بكل ما
يحتاج اليه من عدة وغذاء . ثم كان الجيشان يسيران للقاء الخوارج
حين هم في شرا . ففكر حيو الكوفة معسكراتهم وحمولوا
المؤن والاسلحة الى جوفهم . فربق امام الخوارج غير المتأهب في
جيشه امريل . فكتب هذا الى عبد الملك ، وقد اضطرب جندوه
وانمروا على الانسحاب اقتداء بجند الكوفة : ... اما ان نبعث
في رجالاً ، او دفع طريق البصرة لنعلمو ...

في هذه الفترة العصيبة ، كان الحجاج في دمشق ، جاء من
الندبة ليمري عبد الملك بخبه بشرا ، فجمع الخليفة اعوانه واحفائه
بسننهم في اسر العراق والبلاء الذي يكابده من اهلها ، وكان ما
ذكرناه من اختبار الحجاج الذي يصوت له شاذب العراقي .
غير ان الحجاج لم يقدم الى هذه المقبرة التي تحامها اقطاب
الادارة والسياسة في عصره إلا لان الحجازيين برموا به ، واعرضوا
عنه ، وابدوا له بجانب الحق والازدراء ، وعملوا ما امكنهم على
التخلص منه . باني هي احسن ، وقد آثروا التلطف والاذلة في إقصائه
كي لا يصيبهم من جند الشام ما اصابهم يوم ثاروا على عامل يزيد

وخلعوه... ولولا هذه السابقة في شربهم الغريب - خرج الحجاج
من الخباز حياً.

ذلك هو مير تم انكه على ولاية العراق! ولم يكن في استطاعه
بعد ان يعيش امراً عدياً كعمرو، كأي فرد من افراد الوعية،
وكانه يجد ان احسن لهم، ولا يستطيع ان يمارس عملاً آخر غير
الحكم، وهو فائق تلك الكلمة التي، وقدت له الحسن البصري
لثمة إعجابه به وهي: «إن امراً ذهبت سعة من عمره في غير
ما الخلق له، حري ان يطول عمره حسرة»، ولكنه كثر آثامه
فلأى دطرات على السمت الطويلة التي قصده في الزعماء
والعلماء... فهو اعلم ان يتوكل الولاية على العراق ولو كان فيها
هلاكي ثم كذب ينخر والحدريون اقموا الدنيا واهدموها بما
نظفروا وشكروا واهدموا! ومن اين له ان ينخر واهير المؤمنين
يساعد ويسميت من اهل العراق!

وباع العراقيين بائعهم منقورة الامة، والاسدكار، حتى
اذا اجتمع رؤسهم ورؤسهم في الكوفة، في المسجد الجامع،
واقف الفصيح بن القميبي - وهو من كعب رجب - العصر -
خطيباً فيهم، وقال:

يا اهل العراق! وبا اهل الكوفة!

يا بن عبد الملك قد وثق عليكم من لا يقبل من محنتكم، ولا
يتجاوز عن مسيئكم، الظلوم القشوم الحجاج بن يوسف الثقفي.

١ وقد اطلب، اسرم، واحسن بصري هو الذي رواه ابنه وقد وفدت
كفة حملاً الحجاج من هذه الاعواد...

الا وبن لكم من عبد نيك منزلة ، بما كان منكم من خدلات
 محض وقته ، فمخربوا هذا الحيث في الطريق فاقبلوه ، فأت
 ذلك لا بعد منكم خلعا ، فانه متى يعلو على من منبركم ، وتصدر
 منبركم ، وفاعة فصركا ، ثم فقلتموه ، بعد خفما ، فطيموني ، وانقدرا
 به فبن انه يعيش بكم ...

هذا هو صدى امين الخرج في نفوس المراقبين ! اما مر
 هذا الاستر ، فقد كان يكمن في ، صيته ، السي ، الذي انتشر في
 طول العدة الاسلامي وعرضه ، على انه مثال القدوة والشراسة ،
 اذ عاش ثلاثة اعوام في الجدر بدمع به المسمومون اخباره واعماله
 كما اجتمعوا في اية الحج ، فبنس غنمه من سبيل الى خلفها ،
 مها جند في التخصف من فينها او عمل على كسها ... وسيرة
 واني الجدر مفرقة لتفقد اكثر من سحر الولاة الآخرين ، لانها
 منكفة لكل حاج ، وبالتالي ، لجميع المسلمين ...

ولست قسوة الخجاج السبب الاوحد في استياء العراقيين من
 تعبته ، وانه ذلك السبب حة : انها ما عرف عنه من غيرة على
 مهنة العرش الاموي الذي خاضه العراقيون وابوا ان يعترفوا
 به ، على اختلاف مذاهبهم وميولهم ، في مختلف المراحل .

وقبل ان يسير الى العراق خطب اولى بنات النعمان بن بشير ،
 ومنذ رآها استوحش منها وادخله مرارة عميقة ، فسلطه ، وخطب
 اختها . وكان من قبل قد تزوج من ابنة اسماء بن خارجة الفزاري ،
 فلم يطلق الحياة معها اكثر من اشهر وطلقها .

على ان زواجه من ابنتي النعمان قبل مسيره الى العراق حادث
 ذو مغزى ، فمنه ان الخجاج ابعد الرجال عن الحب

المدحفي ، او هو اقدم من حب دواني ، فكانت اجارته لانتي
الزمان تعبر عن السيرة التي يوجب في الجانب نحو العرفين
في جانب ، وشدة لاختلاف دليته ، في جانب آخر .

واضح ذلك ان المعاني من بشر كانت لا تباري الوحيد من
اهل المدينة اذ هي اقدم ان معونة به المصداق والامم هي .
وكانت له في شعب موافق بذكره له هي العراق بحسب وغيظ .
وعين من بعد والية على حسن ، حتى لا يترك يزيد ودية الشفق
في صفوف الامويين ، نحو الى عبيد بن الزبير وتزوج احدى بناته .
وعنده انقل الامر الى مروان بن الحكم ، جده هذا في عقبه بعد
ان هرب ، وخلق له حاند بن عمير الكلابي القس .

اواد الخديج اذن من روجه ان ينظر لعراقين حقه وغوان
الامويين اولاً ، ولتجد ربه سخره به من ابناء ، ولاهل عبيدانه
ان الزبير قد ربه على كذاهم واستخرج سعده في قهرهم ، لانه كان
ينوي طلاق الفدة الثانية بعد استقراره في العراق . وهذا ما
فعله ...

وفي صباح يوم من يوم شعبان توجه الخديج الى الكوفة
في ركب من ثني عشر رجلاً يحملهم التجائب . فوصل في غمار
شعب من رمضان . وارسل احد رده يمد اليه من مقدمه ،
فاجتمعوا في المسجد الجامع .

وبينا كانوا ينتظرونه اذ اقبل بشي ، وعلى رأسه عمامة حجت
اكثر وجهه ، متقلداً سيفاً ، مثكلاً قوساً . واستمر بشي وثيلاً
وبشبي حتى بلغ المنبر فارتقاء ، ووقف ملثاً لا يدي ولا يبعد ،
واهل الكوفة ينظرون اليه حامين ، وهم احسن ما يكونون

حالا ، واجبه . يظهرون منظرا يدخل الواحد منهم السجد ومعه
العشرون او الثلاثون من اهل بيته ومواليه عندهم احر والدياج ،
وتنح في وجوههم نظرة المعية ، وتحس اهل مقبوت على الحياة .
وتنح وهرف الخرج وتدل حنة حتى غص السجد بعله ،
واحدوا يذمسون في بينهم يكلمت امره والاسنكار . وما له
توجه انه لا ينكم . ودفع له ابي امية حيث تستعمل مثل
هذا على العراق . وذهب حرم امره الى درجة حولها معها ان
يقدم ، تحس ، فبعد من حولها من الحضور .

وهو ابصر عيون الناس شحنة اليه ، حصر اللطم عن فيه وقال :
يا ابن جلا وتلاخ الشيا من اصغر العمة تفرهوني ؟
يا اهل الكوفة !

يا ، والله في تحمل الشر بجمه ، واحذوه بعله ، واجزيه
عنه . واني لاري ابعاراً تذبح واعداً منذونة ، ورؤوساً قد
انبعث وحال مصداق ، واني اصاحب ، وكافي انظر الى الدماء بين
العمائم والله يفرق :

هذا اوان الشد فشددي ذم فدلفها الليل بسواقي اعظم
ليس براعي رسل ولا عنه ولا يجزار على ظهر وخم

١ ان جلا : رجل يجر به الش في شدة الش ، كان ينجح في الغارات من ثبة
الحبل (الش الحرب) ، وشبه مفردة ثبة وهي الطريق الوعرة في الش .

٢ يريد : انا الشرا فشر عبا ولما .

٣ الشد : التمس .

٤ ربح : اسم بعة ثمة او شرب او تغارة . الخصم : الراعي الضلوم
الماشية . الوهم : كل ما يقع عليه . يقول : انت راعيا ولا جزاراً يرحم الماشية .
وان هو سائق حصه يمدحهم الى الموت بلا رحمة .

وهذا قليلاً كأننا أراد أن يذ في شأو نفسه ، ثم تبع :
 قد لثها الليل بعقلي ^١ اروع خراج من الدوي
 مهاجر ليس بأعرابي
 قد شمرت عن ساقها فتدوا ^٢ وجدت الحرب بكم فعدوا
 والفوس فيها وتر غرزة ^٣ مثل ذراع البكر او امدة
 لا بد مما ليس منه بد

١ اني والله - يا اهل العراق ، رمعدن الشقاق والتفاق ومساوي ،
 الاخلاق ! - ما يقع في بالثان ^٤ ، ولا يفز جاني كنفهاز التين ^٥ ،
 ولقد قررت عن ذكاه ^٦ ، وفشتت عن تجرسة ^٧ ، وجريت الى
 الغاية القصوى . وان امير المؤمنين - اطال الله بقاءه - نور كنياته
 ونزلها بين يديه فعجم عبدانها ^٨ ، فوجدني امرها عوداً واصليها
 مكسراً ، فوجهني اليكم ، ورمى بي في نحوركم ، لانكم طامس
 اوضعتم في الفتن ^٩ ، واضطجعت في مرافد الضلال ، وسنتم سنن الغي ،
 تسائلون ماذا قال اميركم وماذا يقول ... ؟

١ الحلي : التشديد القوي . الروع : فكي الشجاع . الدوي : الغلاء التي يسمع
 دويها في الليل . خراج : اي قادر على الاهلات من الغلاء . المهاجر : الذي هجر البادية ،
 من هاجر اعرابي .

- ٢ عود : شديد ، صلب . السكر : الفنى من الابل .
- ٣ ضقع له بالثان : مثل يضرب لمن يرفع لاشياء لا حليفة لها .
- ٤ اي : لا ينال من بسوته .
- ٥ من الدابة : خلع حنكها وكشف استائها ليطمئنها . وفر عن الامر : بحث .
- ٦ الكنانة : جبة السهام . تن : امرد كي - بعد على حدة ليتفقد صلاحه من فادته .
- ٧ حجر المود : يحضه ليطمئنه من خواره .
- ٨ اوضع ابضاع : اصرع في سيره .

« اما والله لأطونكم طون العاصي » ، ولأفرعنكم فرع المروءة » ،
ولأعطينكم عصب السلف » ، ولأضربنكم ضرب غرائب الابل » ،
فانكم الكهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزق وغدأ من
كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله ليس الجوع والخوف
بما كانوا يصنمون » ، واني والله لا اعد الا رفيت ، ولا اقم الا
امضيت ، ولا اخلق الا هربت » ، فإياي وهذه النفوس »
والزراوات » والجماعات .

« اما والذي نفس الحجاج بيده لتفتين على طريق الحق
او لا تدعن كل رجل منكم شغلا في جسده » ، فاقبلوا الانصاف
ودعوا الارجاف قبل ان اوقع بكم بقاءاً يقول النساء اباسي » ،
والولدان بناسي . وان امير المؤمنين امرني ان اعطيكم اعطيانكم »
وان اوجهكم لهاربة عدوكم مع الهائب بن ابي صفرة » ، واني اقسم
بالله لا اجد رجلاً يختلف بعد اخذ عطائه بثلاثة ايام الا سفكت »

١ . النساء : قشر الشجرة ، وحا العاصي : قشرها .

٢ . المروءة : حجارة بيض يرافقه نوري ثور .

٣ . السلف : شجر كثير الثمر له عصا اعصابه ونخلة والحري لا سوط الورق والاشواك .

٤ . غرائب الابل : هي التي تعرب الله العرب بعد العرب ، ومعها خلطاء ،

وعند الخوض .

٥ . هذه آية من القرآن استشهد بها الحجاج .

٦ . يريد : لا اعزم الا سمعت .

٧ . النفوس : مفردتها شفع ، وكانوا يجتمعون الى السلطان فيشعون في اصحاب

الجراء .

٨ . الزراوات : الجماعات من الناس ، يريد منهم من التجمع .

٩ . اباسي : مفردتها اب وهي التي طقت بطن .

١٠ . الاعطيت هي المراتات التي كان يأخذها الجود سقاً .

دمه وانتهت^١ ماله وهدمت^٢ منزله ... ،

ثم اتجه نحو غلامه قائلاً :

.. يا غلام ! اقرأ عليهم كتاب امير المؤمنين .

فبدأ الغلام : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من عبدالله عبد الملك
امير المؤمنين الى من بالكوفة من المسلمين . سلام عليكم ... » فقاطعه
الحجاج :

- اكفف يا غلام .

ثم اقبل على الناس فقال :

- سلم عليكم امير المؤمنين فمدودوا شتاً ! هذا والله ادب^٣
ابن نية^٤ ! أما واقع الاؤذينكم غير هذا الادب ، اولئك سيقمن ...
اقرأ يا غلام كتاب امير المؤمنين .

واعاد الغلام الكرة ، فلما بلغ الى قوله « سلام عليكم » لم يبق
في المسجد احدٌ الا قال : « وعني امير المؤمنين السلام ! »
ومد انتهى الغلام من تلاوة الكتاب ، نزل عن المنبر ، واجتمع
حوله وجهاء الكوفة ، وخرج الجمهور من المسجد ، فقال لهم :

- ما كانت الولاة تفعل بالعبادة ؟

- كانت تضرب وتحبس .

فصدق فيهم الحجاج وقال :

- ليس هم عندي الا السيف ! إن المسلمين لو لم يغزوا المشركين

١ انتهت ماله : تركت الناس يخبرون عنه ويستهون به .

٢ هذه الخطبة سبع عشرة ، هي عند السعدي غيرها عند الطبري ، وعند
الطبري غيرها عند الخياط ، الخ ... وقد آثرت هذه الصيغة لأنها تجمع ما في الناقية .

٣ ابن نية : رجل كان على الشرطة قبل الخياط .

لفزام المشركون . ولو ساءت العصبة لاهلها ما قوتل عدو ولا جبي فيه ولا عز دين .

ثم جلس لتوجيه الناس ، والتفت الى قائد الشرطة ورئيس الحرس قائلاً لها : « اذا مضت ثلاثة ايام فلتأخذنا سيوفكما عصباً » .

فدأب الحاج الى العراق اذن بهمة عسكرية خالصة هي تجنيد المراقبين لمحاربة الحوارج في الدرجة الاولى ، ولغزو البلاد المتاخمة وفتحها في الدرجة الثانية . وتلك هي المهمة التي وفق فيها مع الشرطة في الشام والتي انتدب اليها في الحجاز ، ولكن خشية على منصبه كانت تحفزه دوماً الى السهر والتيقظ ، وتلزمه جانب الفسوة في جميع معاملاته واحتكاكاته بالآخرين .

لذلك ، سعيه الى « إسفال » الجماهير بالاستعدادات المتواصلة للحرب ، والجندي ، والشرطة ، ولئن يتركها اذن فرصة ينصرف بها تفكيرها الى الناحية السياسية ، لانه كان على يقين ان اذن قراح يبدو منه يتحول تفكير المراقبين اليه ، ويقع فيها وقع به غيره من بلية واضطراب . فراح يجهد أكثر ما يجهد في تنظيم الشرطة ، وتدريب الحرس ، ونشر العسس ، وبت العميون . وكان منه ، بعد ان القى خطبته الاولى التي ذكرناها ، ان سأل وجهاء الكوفة :

- دلوني على رجل اوليه الشرطة .

- اي رجل تريد ؟

- اريد دائم العبوس ، طويل الجلوس ، سميع الامانة ، اعرج

الحياة ، لا يحنق في الحق على حرمة ، ويهون عليه سؤال الاشراف في الشفاعة .

— عليك اذن بعبد الرحمان بن عبيد التميمي .

فأرسل اليه فاستقبله . ثم ضرب البيعت (بيعت الجند الى الفزو)
على المحتلين ، ومن راهق وبيع مبلغ الرجال من الصبيان .
فكانت المرأة نجيحة الى ابنها وقد جرد من ثيابه فضبه اليها
وتقول له : « يا بني ، جزعاً عليه ، فسمي ذلك الجيش « جيش يا بني » .
وبعد ثلاثة ايام عاشتها الكوفة في جوف من الاستعدادات
العسكرية ، جاء الحجاج عمير بن ضاني البرحمي فقال له :

— اصليح الله الامير ! اني شيخ كبير زمن عليل ضعيف ،
ولي عدة اولاد ، فليختر الامير ليهم شاء مكاني ، واشدتم ظهراً ،
واكرمهم فرساً ، وانهم اداة .

— لا يا بني شباب مكان شيخ .

وهم عمير بالانصراف مسروراً عن النتيجة ، ولكن احد الجلساء
استوقفه وسأل الحجاج :

— اصليح الله الامير ! انعرف من هذا ؟

— لا .

— هو عمير بن ضاني البرحمي الذي وثب على امير المؤمنين
عثمان ، وهو مقتول ، فكسر ضلعاً من اخلاعه .

فاعترضه ابن ضاني بمخاطب الامير :

— انه كان حبس اني شيخاً كبيراً ضعيفاً ، ولم يطلقه حتى مات
في سجنه .

فقال الحجاج :

— ايها الشيخ ! هلا بعثت الى امير المؤمنين عثمان بدلاً يوم
الدار ؟ اوليس ابوك الذي يقول :

همت، ولم افعل، وكنت، ولبنتي تركت على عثمان تبكي حلاله
أما والله ان في قتلك ايها الشيخ صلاح مصرين ! ان عذرك
لواضح، والله ضعفك لين، ولكني اكره ان يجترى بك الناس علي.
وأمن بصفتك بعمره اليه، وبعض على طيته مرة، وبسرحتها
اخرى، ثم قال :

- يا عمير ! اسمعت مقالتي على المشير ؟

- نعم .

- إنه لقيح بمثلي ان يكون كذاً اباً .

والثف اي غلامه :

- قم اليه يا غلام، فاضرب عنقه .

وكان اول اعدام اقدم عليه . فما كاد الخبر ينتشر في المدينة
حتى دب الذعر في قلوب أهلها، وشاع فيهم اطمع، وخرجوا على
وجوههم داخلين يريدون اللحاق بالمهلب بن ابي صفرة . وازدحموا
على الجسر حتى ضاق بهم، وسقط بعضهم في الفرات . فجهاء حارس
الجسر وقال له :

- أصلح انت الامير ! لقد سقط بعض الناس في الفرات .

- وبحك ! ولم ذلك ؟

- ازدحم اهل هذا البعث على الجسر حتى ضاق بهم .

- انطلق فاعقد لهم جرين .

وخرج عبدالله الاسدي الشاعر مذعوراً، فلقبه نبيه ابراهيم،
فسأله : « ما الخبر ؟ » فقال له : « الشر ! الشر ! قتل عمير من
بعث المهلب ! » ونظم الابيات التالية :

اقول لابراهيم لما لقينه ارى الامر امسى مهلكاً منصبا

نجهز ! فاما ان تزور ابن صافي . عموماً ، وربما ان تزور المهديدا
 هما الخطك خفف نجهزك منهم ركوبك حيراناً من ابلج اشيا
 فاضحى ، ولو كانت خراسان دونه رآه مكان السوق او هي اقربا
 والا فما الحجج مفيدة . مبدى الدهر حتى يترك الطفل اشيا
 وهذا ما حمل الناس على ان يبدد الممكرات من نلقاه انفسهم ،
 وراحوا يرسون الى اهلهم : « زودونا ونحن نكنا . »

بعد يومين من هذا الحدث ، خرج الطبع في اليوم الثالث
 من قصره بزم الجامع ، فسمع نكيرا في السوق ، فغضب اليه ان
 الكوفة لتخص بشورة ، وان سكانها فادمون لا محالة على الانتقام
 لعير ، فصعد امير متاثراً ، منهج الاعصاب وقال :

« يا اهل العراق ! يا اهل الشقاق والنفاق وماوىء الاخلاق !
 « اني اسمع لكم نكيرا ليس بالنكير الذي يراد به التعيب ،
 والى نكير التعيب . الا انها عجاجة نحتها قصف ، يا بني
 الاكبة ، رميد العصا ، وابناء الاماء . انما منلي ومثلكم كما قال
 ابن براقة :

« وكنت اذا قوم غروني غروتهم قبل انا في ذا ، يا همدان ، ظالم »
 « مني نجيع القلب الذكي وصارماً وانفاً حياً تحن بك النظام ... »
 « اما وانه لا تفرع عصا عصا إلا جعلتها كامس الدابر ... »
 وراح ينفذ تهديداته هذه بضبط ودقة الى ان خلق في الكوفة
 جواً من الارهاب صرف به الناس عن التفكير في السياسة
 والخلافة ، وحملهم على الاخلاء للسكينة ، وشغلهم بتجديد الشبان
 وتكوين الجيوش واخبار الغارات والمعارك .

وما ان اطمان الى الموقف الداخلي في الكوفة حتى ذهب الى

البصرة ، وكان نجاهه هناك حافزاً له على اتباع الخطط نفسها
هنا ، فتوجه الى مسجد البصرة رأساً وصعد المنبر ، وقال :
« من اعياه داؤه فمدي دواؤه . ومن استطال اجله فعلي
ان اعجله . ومن ثقل عليه رأسه وضعت عنه ثقله . ومن استطال
ماضي عمره فصرت عليه باقيه .

« ان للشيطان طيفاً ، وللشيطان حيفاً ، فمن حقت مبروته ،
صحت عقوبته ، ومن وضعه ذنبه رفعه صليبه ، ومن لم تسعه
العافية لم يبق عنه النهلكة ، ومن سبقه بادوة فيه ، سبق بدنه
بسمك دمه .

« اني انذركم انظر ، واحذركم ان لا اعذر ، واتوعدكم ان لا
اغفر . انما افدكم تربيقاً ولانكم . ومن استرخى ليله^١ ساء
ادبه .

« ان الحزم والعزم ملبان سوطي ، وابدلاني به سبقي ،
فقاته في يدي ، ونجاهه في عنقي ، وذنبه فلاذة لمن عصاني .
« وانه لا آمر احدكم ان يخرج من باب من ابواب المسجد ،
فيخرج من الباب الذي يليه الا ضربت محقه . »

فلما نزل عن المنبر جاء شريك بن عمرو الشكري ، وكان
شيخاً كبيراً اعور ، يضع على عينه العوداء صوفة ، وقال له :
« اصلح الله الامير ! ان في فتناً ، وفد عذرتي بشر^٢ ، ورددت^٣

١ التربيق : الضيق في الامر ، ول الادارة ، ول الخبر ...

٢ انبى : ما يشد في صدر الدابة لينزع استعر السرج . وهو يقصد : ان الذين
والمسيرة يفسدون انتظام الخنوع .

٣ بشر بن مروان شقيق الخليفة عبدالمكث ، وكان والي البصرة قبل الخليفة .

العطاء لترده الى بيت المال .

فأجابه الحاجاج :

- انك عندي لصادق .

ولكنه لم يستطع ينقذ بآخر كفة حتى امر الخويسي بضرب عنقه لانه استغفاه من الخدمة العسكرية . ثم بدأ ان يبدأ ولأينه في البصرة بانعفاء ...

للك اول حادثة ، والحادثة الثانية هي تلك التي جرت له مع حائك بصري اتى به شرطى من بني سليم وقال له وهو جالس الى مائدة يتعدى مع ردهط من حاشيته :

- املح الله الامير ! ان هذا الرجل عاص .

فقال الرجل ، وهو يرتجف من الخوف :

- انشدك الله اي الامير في دمي ، فواته ما قبضت ديواناً قط ، ولا شهدت عسكرياً ، واني طائفة اخذت من تحت الحفا .
ثم يكنى من الحاجاج الا ان امر بضرب عنقه . فلما احس المسكين بالسيف جعد ، فلققه السيف وهو عاجد . فتوقف مؤاكلة ، وامتصوا عن تناول طعامهم . فنظر اليهم الحاجاج غاضباً وقال : وما لي اراكم صغرت ايديكم ، واصغرت وجوهكم ، وحدت نظركم من قتل رجل واحد ! ان العاصي يجمع خلافاً تحل بركته ، فهو يعصي اميره ، ويعتز المسلمين وهو اجير لهم ، وانما يأخذ الاجرة كما يعمل ، والوالي يختار فيه ، ان شاء قتل ، وان شاء عفا ...

لا ينبغي ان احد الجوع عدوا في هذه الفسوة سوى انه
كان يكره العراقيين . ان كان يكره العراقيين بشكلا عدوا
للجوع وامانة ... وليس هذا الكلام الذي يحرر به فسوته الا
هراء في هراء .

قول المعتدرون عنه : انه كان موضعاً بنفذ ما يؤمر به . .
واحسب ان احد لا يضع هذا العذر في اقدامه على فعل ذلك
المسكين الاعور تريك بن عمرو البشكري الذي اغتاه أخ الخليفة
من الخدمة بخرجه . ولا في قتل هذا الخائف الذي جاء به احد
الجواسيس ، وابن هو في هذين الموقفين من عبدالك وأمره ؟
بل ابن هو من أداء وظيفته على احسن ما يكون أدائها ؟ في
الوظيفة ان بسفك الواقي دم الابريه من الرعية ؟ متى كان القيام
بواجب الوظيفة يفرض التجبر والفسوة والظلم ؟ وهل من الادارة
الحازمة ان يشر الحاكم الاخذ في نفوس محكوميه ؟

وقالوا ايضاً : ولم يكن امام الجوع غير الشدة على العراقيين
ليردم الى حظيرة الجاعة ، ويقب دون ثروهم على الملطة . . وما
كان احراقا يقول هذا العذر لو ان الجوع انتظر الشر ليرد
عليه ، او ليوذّب فاعليه . ولكنه حمد الى الاوهاب قبل ان
يبدر من الكوفيين او البصريين ما يعور شدته ويحمل الناس على
إعذاره .

الخليفة هي ان الجوع قدم العراق وصدوه موعنة على اهله .
وكان في نيته ، منذ تحركت ركابه نحوه ، ان يفعل ما فعل دون
ان يراقب او يوازن او يتروى ، بل كان في شوق حاد ملح
للتكيد بالعراقيين وسفك دماهم واهدار كراماتهم . ولم تكن

الاسباب لئلا يتقدم ما كان به ان يوتي عليه ، وبشيء احقاده .
 هالك هذا الحوار الذي جرى بينه وبين جامع الهاربي . وكان
 جامع هذا شيخاً صالحاً غنياً ثيباً جريئاً . اذ جعل الخباج
 يشكو سوء طاعة امير العراق وقبح مذهبهم ، فقال له جامع :
 . اما انت لو احبوك لأضاعوك ، على انهم ما شئوك لنسيك
 ولا لبلدك ولا لذات نفسك ، فدع عنك ما يبعدهم منك الى ما
 يفرجهم اليك ، والنس العافية من دونك تعطها من فوقك .
 وليكن ايقاعك بعد وعيدك ، ووعدك بعد وعيدك .

فاجابه الخباج بصلف وكبر :

ما اري ان ارد بي الملكة الى طعني الا بالسيف !
 .. ايها الامير ! ان السيف اذا لاقى السيف ذهب الخبار .
 .. الخبار يومئذ !

.. ولكنك لا تدري من يجمع الله .

فغضب الخباج هنا واحتد مزجراً :

.. يا هاهنا ! انتك من محارب ...

.. وللحرب حبيبنا وكنا محارباً . اذ ما القنا امسى من الفتن احمرأ

.. والله لقد هممت بان اطلع لسانك واخرب به وجهك .

.. ان صدفتك اغضبتك ، وان غششتك اغضبتنا الله ، فغضب

الامير امون علينا من غضب الله .

لم يكن الخباج ادن لبشدة - كما ترى في هذا الحوار - على

من : كلمة يكتسب من امر الانسان ، وتزاد عليها الالف وافاء في حالات
 الانفعال .

اهل العراق نتيجة آلام عدها منهم ، وذا كان سلوكه معهم منتقياً
 عن تجارب مرت بها في ادارتهم ، وانما هي شهوة الحكم ولذة الانتقام
 وانتفاضات النفس الحاقدة المريضة التي كانت توجهه بحملتها وتسير
 اعماله ، كأنه كان يستفزهم ويحتملهم على العصيان والتسرد عامداً
 منعدداً ، ليقضي عليهم موارداً انتفاضه بعد ذلك بعصيانهم وغرورهم .
 وهكذا ... نشأت بين الجانبين أزمة وجدانية من اضرف الازمت
 واغرمها ، اعطيت صورة شبه كاملة عن كل أزمة تقع بين الحاكم
 والمحكوم في كل عصر ومصر ، وأنهم ما فيها استعراق كل من
 الطرفين في وجهة نظره ، واصبح الحجاج يشد ازر الثمين يوماً
 عن يوم ، وينعدي العرافيين في كل حركة وسكنة ، وبمثل سيفه
 لدى الصغيرة والكبيرة من الحوادث ، ويظيل لسانه بالسياب
 ولاهانة في جانب ، والثناء والاكرام في الجانب الآخر ، مسترسلاً
 مع مبوله الدفينة العيفة ، مستنجباً لأبعد الاحاسيس التي تقبع في
 قراره عن حبه الوثني الاحبل . واصبح العرافيون في حال من
 القلق والاضطراب والتضعع لا يسعهم معها ان يهوا بوجهه هبة
 رجل واحد ، فيخلصوا منه ومن شروره ، وراحوا يشارون لكرامتهم
 على شكل فردي يعوزه النظم والانتظام ، ويردونه على إهانة
 بانتفاضات وقنية لا تلبث ان تهد بعد استعالمها . وكانت اولى هذه
 الانتفاضات ثورة عبد الله بن الجارود العبدي ، والحجاج هو المسؤول
 عنها في الدرجة الاولى .

وتفصيل الحوادث ان الحجاج قرر ان ينقص اعطيات الجند عما
 كانت عليه ايام عبد الله بن الزبير ، فخطب الناس قائلاً : ان
 الزيادة التي زادكم اباها ابن الزبير انما هي زيادة ملحد منافق فاسق

ولنا نجيها . ، فوقف ابن الجارود يعارضه :

... ايها الامير ! ليست بزيادة ابن الزبير ، انما هي زيادة امير المؤمنين عبد الملك اذ انقذه واجزها ، وجرت على يد بشر بن مروان .

فغضب الحجاج فله المعارضة التي حبها ورقة وقال مخاطبه :
... ما انت والكلام لتحسن حل رأسك والا ملبتك اياه .
... ولم تسلي رأسي ! والله اني لك لتاصح ، وان فوقي هذا لقول من ورائي !

وما انقضى المجلس حتى تمجد ليف المستائين حول ابن الجارود ، مما حدا بالحجاج على التوقف عن تنفيذ قراره طيلة نحو من شهر . ثم رجع اليه ورجع ابن الجارود الى معارضته وكانت قد التفت حوله جماعة من المهاجرين والقواد ورؤساء القبائل امثال قتيبة بن مسلم القائد الشهير ، والحذيل بن مهران العجمي ، وعبد الله بن حكيم الهاشمي . ولم يبق الا جانب الخدج غير حرمه واعوانه ممن جند الشام وبعض المرتقة الذين لا يؤبه لهم .

واجتمع قادة المعارضين ورؤساؤهم ، واتفقوا فيما بينهم على تأليف كتلة برئاسة ابن الجارود تعمل على اخراج الحجاج من العراق بالطرق السرية الصاعدة . فكتبوا الى عبد الملك بشكوى عاملة وما يفترون من سيئات ، ويلحق بهم من اضرار واهانات ، واجبن ابداله بغيره ، ولكن الحجاج عم بامرهم - ولا يبعد ان يكون عبد الملك نفسه قد ارسل اليه بمحذره ! فاحتاط لنفسه ، واحتال ما امكته الحيلة ، حتى قسم المعارضين وضم اليه بعض انصار ابن الجارود . وما ان استوثق من قدرته على الظفر حتى

فتح المعركة ، وبدأها بالتبض على زعماء المعارضة . فلم يطل الكرك
والعراق دب الشقاق في صفوف الثوريين الذين بوغتوا بالحرب ،
وفوجئوا بعنفال كبرائهم ، وانتهى الامر ان قطع الحجاج
رؤوس الزعماء وارسلها الى المهلب ليعرضها على الخوارج ، ويذهب
بها كل من نسوت له نفسه التمرد على اوامره .

ادرك المرافقيون بعد هذه الثورة التي اخفقت اخذاً ذريعاً
ان عبدالمك ادهى من ان يعيهم على الحجاج ، وانه اشد تعظاً
به . كماوا يتصورون ، فقتلوا من مساعدته او من عدله فيهم
بتصغير اصبع ، وراحوا يذبحون ، وهم المنقبسون المشتون شبيحاً
واحزاباً ، كل حرب على ليدية من وسائل وادوات ، على غير عدى ،
في غير نظام ...

وادرك الخوارج ان سيرة الحجاج في اهل العراق تتجه نحو
التفوق منه ، فشد املهم في التغلب عليه ، ونجسوا وأعدوا
العدة بمقارعة اثناء اشتغاله بثورة ابن الجارود .

وما كادت هذه الثورة تخدم حتى اندلعت ثورة الزنج ، والزنج
هؤلاء شرادهم نصوص متشردين جاءوا بعد الفتح العربي لاقرين
الشرفية من سواحل الصومال ، والتفوا عصيات مسلحة اندلعت
في صفوف الخوارج ، وعانت في اطراف العراق فساداً . وكانت
مصعب بن الزبير قد حمل عليهم حملات تاديبية لم توفق الى محوهم .
فلما ولي خالد بن عبد الله امر البصرة خرج لقناتهم فأسر من اسر ،
وقتل من قتل ، وحلب من حلب ، ولكنهم عادوا الى جمع
صفرهم في وادي الفرات عندما وبى الحجاج واشتدت عليه
المعارضة .

كان الحجاج يومذاك في الكوفة ، فكتب الى عمه علي البصرة
 زياد بن عمرو العنكي بأمره شقيق حمة قومه لكتبة يرمي ، ورسا
 هذا ابنه حفص على رأس كتيبة من الطوود البصريين ، ودارت
 معركة قتل فيها حفص وفر منه جسد .

وطبخر خبر هذه الهزيمة الى الحجاج ، ففداه البصرة هاتجا ورسا .
 وصعد المنبر وخطب :

يا اهل البصرة !

ان عبيدكم وكساحبكم رأوا مصيبتكم فأتوا بكم . واني
 انما لئن لم تخرجوا الى هؤلاء الصلاب فكيف في يرمي لأعقرت
 تخلصكم ، ولا تزلن بكم ما انتم في اهل ، وسامعراجكم ومسدكم .
 ثم وجه حمة ثانية لمحاربتهم الدوف بنفسه على تجهيزها ، وجعل
 كراؤا بن مالك السلمي وندف . ويوم سليم مشهورون
 مشهورون بفروسيهم وحسن بلائهم في الحروب . ثم رزل هذا
 يقاتل الزنج حتى نكس من الأبقاع هم وقتل دعيهم ، وبذلك
 هدأت البصرة واستتب بها الأمن .

ولكن ثورة ابن الجارود وظهور الزنج المنمردين على السلطة
 حادثان لم ينتهيا ، رغم انتصار السلطة فيهم ، إذ فتح عيون الخوارج
 على المضاعب التي يعانيتها الحجاج في حكم العراق ، وأخذ الأزارقة

١ - اتهم الخوارج الى سبع فرق هي : (١) الحكمة . وهم الذين يفتون التحكيم .
 (٢) الأزارقة : اتباع طاع بن الأرقوم وهم الذين خرجوا يدرس وكومان ابن الزبير
 وفانهم المهدي بن أبي حمزة وهم يكفرون عيا مع جمع من الصحابة كما يكفرون المدة
 عن القتال مع الإمام وإن مات من ديه ، ويسميون قبل الخلفاء الخالفين وسموهم ،
 ويسقطون الرجم عن الزمان الحصن دون حذف البرقة المصفاة ، ويخرجون أصحاب

عنه يزدادون عتفاً على عتف ، ويوالون هجرته ، ويشيرون في
غيره .

ثم يكن الخراج ليعروب الخوارج بنفسه ، وإن جرى عليه ،
كل حقه ، في عداد المدد ، وتحت العطاء ، وروى في الجبهات ، ثم
في أوجبه المخطف ونفدية الحركات العسكرية بجميع ما تحتاج إليه
من مال وسلاح ورجال ، وأخيراً في ضبط الجهة الداخلية وتداول
السلطة من بعدهم ، وترتب الحرب العميقة لمهاجر بن أبي صفرة ،
وهو أروع شعبة عسكرية عرفت عصره ، ومدته برحالة يعاونونه
ويستمدون حشده ، حفظ التاريخ أسماءهم في البغاة من خلفه وشجاعته
وحسن تدبيره كعبد الرحمن بن عوف ، وسفيان بن الأزود الكلابي ،
وعناب بن ورقاء ، والحارث بن عتبة وغيرهم .
وخطت امر هذه الحرب مع الخوارج وقتل ... قتل زهاء .

وحدث امر هذه الحرب مع الخوارج وقتل رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

الخصية : الكبيرة من الذوات يقولون : لغة لا لغوي ، حلال من عند الطبيعة .
 ح : حجاب : نوع من منديل يخدم في البيت ، يكفرونه ولا يملكون على الحجاب ، دون من
 الآخر من غير سرار ، وينصبون منه من العبد وخدمة و موافقة ويكرهون من
 حرمه : (١) خصية : اسم من اسم يرون أنه لا حرام إلا ما وقع عليه
 النسل لموه لغز : (٢) لا نجد في نوحى أو بحرمه : (٣) ويكفرونه طرية تكفر
 (٤) الأمانة : (٥) المحذرة : (٦) يكرهون حكومتهم سورة : وصفه من القرآن ،
 ويوجدون الحري من الفصل ، (٧) ما يقع دمي أو الاسلام : (٨) الأمانة : يرون أن
 من تلك الكبيرة كافر لعمدة وليس مشركاً ، ويرون أن دار عيسى من أمته دار
 توحيد ، وأن السجدة : (٩) النجوى : (١٠) يقولون أن لغة يرسد الخير دون
 الشر ويحرمون : (١١) من كانت دوائه أولاد الأسماء والحيوات : (١٢) الثغلة :
 يرون ولاية من هو يحس عليه النكر الخلق يكرهون منه : (١٣) الصخرة : يرون
 أن ما كان من كد في حذائهم لا يكفرونه : (١٤) ما ليس به حد كرك
 الصخرة يكفرونه : (١٥) من لا عسى : (١٦) من : (١٧)

مستعين ونصف عشها الحجاج والعراقية في خطر دائم ، وشغل
شاعر ، وبلاء متعل ، وأوشك الخوارج أن ينتصروا فيها لكونهم
من مرة ، ولكن الشفق دب في صفوف الأزارقة ، وكان اختلافهم
ذات صفة عنصرية ، إذ تحركات قيادتهم بمسند أن كانت موحدة ،
وأصبح أمرهم موزعاً بين فتيين : الأولى عربية يقودها فطري بن
الغمامة الثارقي وهو من رجالات عصره المعدودين ، والثانية
فارسية يقودها عبد ربه الصغير - وهو مولى أبي فيس بن ثعلبة
كان فارس نعلم الصغار في كذب . ثم ما لبث هذا الخلاف أن
تشعب واتسع حتى انصرفوا إلى الناحية فيها بينهم . واستغل المهلب
انقسامهم أبرج السملال ، فوهق بعد مداورات دقيقة وغارات عنيفة
إلى القضاء على فطري وأبني عبد ربه الكبير والصغير ، وانتهى
بذلك من الأزارقة ومشاكلهم . . .

بيد أن الحجاج لم يعرف أعدوه ولا ذاق طعم الاستقرار على
الرغم من الأخبار المفرحة التي وردت من المهلب ومظفره بعدائه .
فقد تحركت جبهة خارجية في الموصل أشد من الأزارقة ، وهم
الذين يرون رأي الصفرية ، تحركوا يستهدفون الحجاج نفسه ،
وكان برأسهم هذيل الأمر صالح بن مبرج الذي عاش أيامه مسكناً
مصرفاً الوجه . وهذا مصدر اسم فرقة موغلاً في الزهد والتعب ،
وله اتباع يشرعهم ويقرؤهم القرآن ويفقههم في الدين ويقص
عليهم ما رشح إليه من مير ونواحيه ، وما أفضت إليه تأملاته
من آراء . فكان إذا جلس مجلس الأمام ذكر الله وحده ، وثني
بالصلاة على محمد النبي ، وأتى على أبي بكر وعمر ، حتى إذا
وصل لعنان وعني نبوتاً منها ردها إلى بحمد الله الصلال

قائلاً : « ليسروا يا اخواني لمخرج من دار الفناء الى دار البقاء »
 والمصدق : « حوائنا المؤمنين الذين بعوا الدنيا بالآخرة ، ولا نجزعوا
 من القتل في الله ، فان القتل ايسر من الموت ، والموت ثقل
 لكم . معرفتي بدينكم ودين آباءكم وبخوانكم وابنائكم وعلائكم ،
 وبان الله لذلك جزاءكم . الا فيبعوا انفسكم طائعين ، واموالكم
 تنفوها في الجهاد ، تدخلوها الجنة ... »

كان هذا التحريض البالغ واثامه المقيرون ، فعمل ، فظهر في
 سريرة المحرطين ، انه الباع في نفوس حبيبه . « بنوا في الله
 ولا تتردد يديكم الناس الى اتباع صالح والابدي في حركته .
 وكان شبيب بن يزيد الشيباني اول من اتى الداء وانضم اليه
 بن معه من الرجال . واجتمعوا في هلال صحرائية الارضاء ثم
 ٧٦ للهجرة ونداءوا فيما بينهم من صالح العمل ، وخطب المير في
 الحرب ، وانهم صالح مدارولهم بخطبة فل فيها : « اتقوا الله عباد
 الله ، ولا تجعلوا الى قتال احد من الناس الا ان يكونوا يريدونكم ،
 وانكم اذا خرجتم غلباً من حيث انتبهت بخارجه ، وغضبي في
 الارض ، وسفكت الدماء بغير حق ، واحذت الاموال غصباً ، فلا
 تمسوا على قوم المال ثم تعذبوا ... »

وهذه الحمة وحملت ذرعان ، وهي بليدة في جزيرة العراق .
 ثم صدرت نحو آمد . وراح الحجاج يرسل في تعقبها السجدة فلو
 السجدة ، وهي تنقل من مكان الى مكان حتى بلغت خافقين على
 تخوم ارض فارس . وهناك وقعت معركة هائلة قتل فيها صالح
 ابن مسرج ، وولي من بعده شبيب الذي شد على الحارث بن عميرة
 - وكان الحجاج قد ارسله في ثلاثة آلاف - فقتله وعل جبينه .

واسمر شيب بجالد ويقارع ، في حلة معارك خرج منها مظفراً ،
 حتى بلغ الكوفة ، فاحتلها وانضم اليه النعمون على الحجاج حكمة .
 ولكن الحجاج كان قد ارسل الى عبد الملك يعمه بخطورة
 الموقف وخذلان المراقين له ، كما اندره بسوء العواقب التي ينهي
 اليها ملكه اذا لم يسرع في انجاده . فما كاد شيب يدخل الكوفة
 حتى وصل سفيان بن الورد على رأس اربعة آلاف من جنود
 الشام ، وتلاه حبيب بن عبد الرحمن بن مذحج في الفين . ودارت
 رحى المعارك في قطاعات مختلفة لم يملك معها شيب ان يسفر
 في الكوفة ، فهرب ينتقل من قطاع الى قطاع ، واخسائر تلحق
 بجنده ، والعدو يتكاثر عليه الى ان بلغ كرمدان في بلاد المعجم .
 فلحقه سفيان بن الورد عند جسر دجيل الاهواز (عربستان
 اليوم) حيث نشبت معركة لم يكن لفريق فيها غلبة . وفي المساء
 امر شيب اصحابه بالرحيل ، فعبروا الجسر امامه ، وتبعهم راكباً
 على فرسه الذي نرا عند الجسر فقط في الماء ، وسقط معه شيب
 وهو متقل بالحديد مسنن درع ومقفر وسيف ففرق ، ولم يكن
 انقاذه حياً .

عند الصباح ، بلغ سفيان خبر غرق عدوه وانصراف اصحابه ،
 فأتى ومن معه الى النهر فاستخرجوا جثة شيب ، وشقوا بطنه ،
 واخرجوا قلبه ، وضربوا به الارض ... فكان ينزوكا تنزو الطابة
 على ما ذكر المؤرخون ، وقيل انه وجد فيه قلب آخر فكان صلباً
 لازدواجه هذا .

ولم تكن هذه المزية لتكبح جماح العراق الثائر ، فصار أهل
 الشمال (الموصل ونواحيها) من جديد اخذاً يتأثر شيب . وفاد

الحركة المطرف من الصغيرة من شعبة الثقلبي . وكان هذا من استهواهم
 حبيب برجولته وادبه وصلاحه ايمانه . فالتفت على الحجاج بعد ان كان
 عامله على الدائن اقرب البصرة . واصبح يحكي في الامورين وولائهم بلاء
 الامة وفساد الدين . وراح يدعو الى احكام الحق والعدل في البيعة ،
 مثاثوا بآراء الخوارج ، معبري بيعة ان همه الحجاج التي لم ترض
 احداً من الصالحين ، مستند الى هذه البيعة العريضة عليه في وسطه
 وانه اقلبه . ولكن ثورته اخفت ورايح . ان تسمع ما اخذ
 الحجاج من تدابير ، وبيت من عيونه ، وجيش من فرسانه ، فقليل
 في احدى المعارك التي حدثت عام ٧٧ للهجرة .

وما كان يخطئ العرافين في ثوراتهم المنقصة هذه ، إلا يزيد
 النار في صدورهم ذماماً ، ويحصرهم في موهب نفسي يدق عن الوصف
 اذ انبت بهم الامل من عدل السلطات ، وحروروا في افكارهم
 وآرائهم ومعتقداتهم التي يشعل هم صواب في كل ما يدعون من
 حياة ، ويكابدون من مرارة ، وخرجت القضية عن ان تكون
 قضية والي يريدون عزله ، ولا يطيعون حكمه ، كما كان الامر عهد
 معاوية الاول ، وانما اصبحت قضية اقليمية منسجمة تشعل المراق
 بحملته ، والشم تحميتها ، فان تحول الايمان ينقلب احد الامميين
 على الآخر ... هذا ما افضت اليه حكمة الحجاج الزعماء !

ولكن الحجاج كان يزداد سروراً كلما اتسعت شقة الخلاف بين
 الشاميين والعرافيين . وبلغ به الفرح اوجها يوم انتصر على المطرف ،
 وهدأت الحال عام ٧٨ للهجرة .

صحيح ان الحال هدأت ، ولكن اجر كمن تحت الرماد ، ولم
 يظهر لعين الحجاج نفسه الا يوم وثى عبد الرحمن بن الاشعث

قيادة الجيوش بحرية الوثائق الذين استفادوا اضطراب السياسة
الداخلية في البلاد العربية ، وانسحبوا عن دفع الحربة . فلما اطمأن
الطجاج الى مكيدة المرافقين ، ارسل الى عاصمه على حجتان
يطلب اليه الاتصال برئيس تلك الترك والسيده ما قدمته ، فان
ابن يحيى له ، وحينئذ .

ولما كان ابن رستم رايا ووقعه الواقعة بينه وبين عبيد الله
ابن ابي بكر ، عمل الطجاج ، ودارت دائرة فيها على عبيد الله
الذي تولى امر العدو فوجه اليه الى معصية الجيش العربي .
ومما سمع الطجاج به السحب جنده خارج على نفسه ، وجرح
من اثير هذه امره في صفوف المرافقين ، وكما هو مودود .
فكتب الى عبيد الله يناديه في ارسال جيش قوي ياجز الترك
ويكسر شوكتهم . وما لبث موافقه الحليفة جند عشرين الفا من
اهل الكوفة واهل البصرة ، وبنو الشام ، واغلق في العفلاء ،
واعاد الحين والسلاح ، وعين عبد الرحمن بن محمد الاشعث قائدا ،
وكان يوم من ايامه الى قننه والشخص منه لانه كان يكرهه ،
اغته راياه ان احمه صائره حيا الى امره ، وهكذا ... يصيب ثلاثة
عصافير بحجر واحد : يعني المرافقين المشردين في خدمة بني امية ،
ويشعلهم عنه ، ويشتفي حقه بنو عبد الرحمن ... ويستجده في
تطورات الحوادث ما يضع هذا القول موضع البين .

١ كان حرب يطوفون الى ربيع على امر وث من مائة الف مثل كسرى فارس
ويصر قروم .

٢ يقول ابن الاثير : كان الطجاج يصير ابن الاشعث ويحول صاحبه : ما
رايته قط الا اودت خله .

سار عبد الرحمن يبحث الى ان بلغ ارض العدو ، فبعث اليه
 رتبيل يقدم خضوعه ويعده بأداء الجزية فور توقفه عن الزحف ،
 ولكن القائد انظفر لم يأنه هذه العروض التي أتت متأخرة ،
 واوغل في بلاد الترك بنفس الحصون ، ويحتل المراكز المنبعا ،
 ويختار المدن والقرى المستهمة بعد ان يولي عليها عماله ، ويترك
 فيها حامية عسكرية ، كما اوغل رتبيل في احرب محباً له السيل .
 وما ان اتعت جبهة عبد الرحمن حتى التزم جانب الانتظار ،
 تاركاً حيث فرجة الاستجمام ، ثم كتب الى الحجاج يخبره عن
 سير العمليات الحربية ، وعن حقه التي قر عليها رأيه في الراحة
 والانتظار .

وعندما قرأ الحجاج كتابه ثبوت زائره ، ماذا لا أثرت فائدة
 انصر !! وماذا يريد اكثر من ذلك ؟ أم انه غضب لوقوف
 الزحف وهو بعيد عن المعركة ؟ فكتب الى عبد الرحمن الكتاب
 التالي :

« ... ان كتابك كتب امرى . يجب اقدسة ، ويستوعب الى
 المواجهة ، قد مابع عدداً قليلاً دليلاً قد احايوا من المسلمين جداً
 كان بلاؤهم حسناً وغناؤهم عظيماً ، فامض ما امرتك به من الوغول
 في ارضهم واغدم حصونهم ، وقتل مقاتليهم ، وسبي ذراريهم . . .
 ثم عزز هذه الرسالة بشبهة وثلاثة يهدده بها ، ويأمره بالتسحي اذا
 كان قد صمم على التوقف .

لا ادري كيف يجيز الحجاج الحكم لنفسه في موقف حربي
 يعتمد على آفاق المراسخ ... الا ان يكون راسياً الى القضاء على
 المخاربين وقائدهم ... ثم انظر اليه كيف جوت شأن الانتصار الذي

أحرزوه ، ويحترق على الأقدام في معركة لا يعرف مضمره ، ولا
يشبه أظوراته .

وهو يكنى من عبد الرحمن ، إياه هذا الغلب من الخراج ، إلا
أن جمع جيشه وخطب فيه قائلاً :
« يا أيها الناس !

« يا أيها الناس ، فاصبح ، ولتحلحكم بحب ، ولكم في كل ما يحيد
به نفلكم ناصر ، وقد كان رأيي فيما بيني وبين عدوي بما رضى به
ذوو أعلامكم وأولو التجربة منكم ، وكتبته بذلك إلى أميركم
الخراج ، وأني صكت به بعثوني ويصدقني وبأمرني بتعجيل الوفاق
بينكم في أرض العدو ، وهي البلاد التي هلك فيها أخوانكم
بالأمس ، وإنا إن رجل منكم أمضى إذا مضى وآتي إذا أتى . »
فكان جواب الجيش أن نادى بسقوط الخراج ، وخلع عبد الملك ،
وهذا بن الأشعث أمير المؤمنين ، واجتمع ذوو التجربة والرأي ،
وقرروا بحاربة الخراج وإخراجهم من العراق . وتبعهم الأمراء
وفدة الجند . ومشت العامة في دكايم تعرف القرح بعد الشدة .
ومد بنف الخراج الحار ، أرسل فوراً يستجد بمجد الملك ،
ويستعجله العدو . فما أن وافاه جند الشام حتى توجه بنفسه على
رأسهم إلى البصرة ، وانتقل منها إلى « نسق » حيث دارت معركة
هزم فيها الخراج ومن معه ، فحق بهم أصحاب ابن الأشعث
وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، واستولوا على أسلحتهم وقسم كثير
من غنائمهم ، ودخلوا البصرة طعنين ، فبايعهم أهل عبد الرحمن
دون أن يعارض منهم أحد . ونوالت الفاروق بين الثميين
والعراقيين صديفة هائلة عندما اتجه ابن الأشعث نحو الكوفة ،

اذ اخرج الكوفيون عامل الحجاج واستقبلوا الخليفة العراقي
استقبالاً رائعاً ، واقاموا الاحتفالات والزيارات ليلته بقدمه .
غير ان المعركة التي حدثت قبل وصول عبد الرحمن الى
الكوفة ، احدثت في العراقيين ذكراً شديداً ، اذ تمكن الحجاج من
السيطرة على الموقف ، في فترة من الفترات ، فادى انه هز بالامان ،
فامر احد عشر ألفاً خدعهم بالامانة ، ثم قتلهم عن بكرة ابيهم ،
ويعرف ذلك اليوم بيوم الزاوية .

ونجسهم الناس في الكوفة ، واعتكف كلهم على حرب الحجاج ،
وبلغ عددهم نحواً من ٢٠٠٠٠٠٠ اكثرهم محاربون . وكثر الشاميون
نحو الكوفة . واشتدت المعركة الفضة المعروفة بدير الخديج ،
حيث حندق الطرفان المتحاربون ، واشتد القتال وصال دون مرة
يحسب احد الفريقين .

ورأى عبد الملك ان يغاروس العراقيين في ان يعزل الحجاج
على ان يخلدوا الى صناعته ، ويعمل عبد الرحمن واليهام مدى الحياة
حيث شاء من العراق ، فذرحل ولده عبدالله واحده محمد يدواضان
باسمه ، ويعملان على تهدئة العاصمة .

وما ان عمر الحجاج بالفاية التي قدما من اجلها حتى جن جنونه ،
ومادت اعصابه ، وخشي ان يجرى الصلح على حديه ، ونحق
الدماء بعزله ، فكتب الى عبد الملك يقول :

... والله لو اعطيت اهل العراق نزع لم ينبتوا الا قليلاً
حتى يخالقوك ، ويسعروا اليك ، ولا يزيدكم ذلك الا جرأة عليك ،
أم تر ويلعك وثوب اهل العراق مع الاشتر على عثمان بن عفان ،
سؤاله نزع سعيد بن العاص ، فاذا نزع لم تتم لهم السنة حتى

ساروا الى غثان فقتلوه ، وان الحديد بالحديد يدمر .
 ثم راح يعمل على بحايط الخوذة الدائرة في جانب . ويبدل
 أقصى ما لديه من قوة لاشتداد الحرب في جانب . الى ان حقق
 ما يتوق اليه من الناحية السياسية اذ رفض المرافيون عروض
 عبدالمك بعد التداول والنشور ، ودوت حسمه للحرب ، يسا
 اشتدت حماسة جند الشام . ومن هذه الثمرة فسد الحجاج الى
 النصر ، فانهرم عبدالرحمن الى البصرة ، وبعده جند ثقف بعد
 عليه الشعب والفرق . فهرب الى سجستان حيث اقبله رابيل
 واحسن وفادته . ونحوها الثورة التي فوض اليها ما وشت هزيمة
 مضطربة ، ولم تثبت ان حدث . بعد ان مر القتل ، واصبح
 الثوارون في قبضة الحجاج بين امرى وجرحى ومشوارين
 وهاربين . . . وكان الصاعون قد انتشر عام ٨٠ هـ هجرة ، الي في
 ايات استخدام الثورة الاشعرية ، فم بقو المرافيون على الاستمرار
 في المقاومة ، ومثوا من المروءات والعهادات الحقيقية ، وأمعن
 الحجاج فيهم تسكيلا وتعديب بعد القيل والسحق . فما اقبل العام
 ٨٤ هـ . حتى هذا المرق واستكان تسعة التي اعده ليعيدها ،
 وأراح الحجاج من الحروب . . .

٢ - طغیان

لم يطلق الحجاج انتصاره المتلاحقة على الثورات المتكررة اذ
 لم يكن في طاقته احتمال نفسه متصراً . قضى في فسوته وارغل
 في طغيانه ينجي غير عدى . بتصير ولا مبال بعاقبة . والظفر يحتاج

الى قوة غسية تصد الطفر عن الطغيان اضعاف اضعاف ما يحتاج
اليه المدحرك انكسور تحصره عن اذن والصغار . بيد ان الحجاج
- وهو الذي كان يرفض من غير دقة - اصبح كثة من الكره
والخنف على كل من هو عراقي ، وفضط من نفسه ان ترأف ، ومن
الطامة ان ترأف به ، ومن الناس ان يرقوا له او ان يحترموه .
ولم تكن تلك التجارب القسية التي مر بها لتزيد الا عنوة على
عنوة ، واستكباراً على استكبار ، فما افد منها غير الاصرار على
الظلم ، والاعراق في الاذى ، والامتثال مع الحقد . واذا بلسانه
الذي اقم دينا العراق واقعدت . يستند في الشبهة ، واذا بسيفه
الذي سده على الافراد الاربعة وهو الخـمير الى الثورة يند الى
الجماعات ويحصد الالوف عوضاً عن الآحاد ، واذا بالسجون تمتلي
من الفداء بمساة ما غلب من الوجع او الصكر ، واذا بالجوع
يطمس ، ويبرز بسند الجوع ، ويختم من هذا وذاك على المجتمع
العراقي جوع من الدل تحقق معه الافكار ، ونذوب فيه الحيوية ،
ويبس به الناس من كل قول او عمل .

وكان اول ما فعل بعد انصره الساحق على ابن الاشعث ان
توجه الى الكوفة ، ودخل دخول الفتح على رأس انصره من
جند الشام ، وبقه وجبه شطر المجد ، والفن هذه الخطبة التي لا
تعد خطبة الشهيرة الاولى حيث ان جليل . قال :

يا اهل العراق !

انت الشيطان قد استيطك ، فحافظ النعم والدم والعصب

والمسمع والاطراف والاعضاء والشغاف^١ ، ثم اغضى الى الاصباح
والاصباح^٢ ، ثم ارتفع فغشش^٣ ، ثم رضى وفرح^٤ ، فغششكم^٥ نقاقاً
وشفاقاً ، واشمر كما خلافاً ، الخدشوه^٦ وليلاً تصبغونه ، وقائد تصبغونه ،
ومؤامراً تمشيدونه ، فكيف تنفعكم تجربة او تعفكم وقعة او
يحجزكم^٧ اسلام ، او ينفعكم بيان ؟ ألسن اصحابي بالاهوار حيث
ومن المكر ، وسعيت بالقدور ، واستجعتكم^٨ تفكر ، وضمنت ان الله
يخلد دينه وخلافة ، وانا ارميكم بطرفي وانتم تفتنون لواذا^٩ ،
وتنهزمون سراغاً ؟

١ . ثم يوم الزاوية ! وما يوم الزاوية ؟ ! - اكان فتكم
وتناركم ونجدكم ، ووراء الله منكم ، وانكوص وليكم عكم ،
اذ ولتم كالابل الشوارد الى اوصاب ، التوارج الى اعصابها ، لا
يسأل المرء عن اخيه ، ولا يلوي الشيع على بنيه ، حتى عصبكم
السلح ، وقصمكم الزواج .

٢ . ثم يوم دير الخجيم ! وما دير الخجيم ؟ - كانت المعارك
والملاحم ، يضرب يزيل امام^{١٠} عن مقبله^{١١} ، ويلقيهن الخيل عن خيله ،
فما الذي ارجوه منكم يا اهل العراق ؟ - ان الذي انوفعه^{١٢}
ولماذا استيقبكم ؟

١ . غلاف القلب .

٢ . تصور الآيات العاجية .

٣ . غششكم .

٤ . متراحمين .

٥ . تمارك الابل .

٦ . ابروؤس .

٧ . سوسمة .

١ ولأي شيء أخرجه : فكيفيات بعد المعجزات لا القدرات
بعد الحركات ؟ التزويت بعد التزوات ؟ ان بعثكم الى نفوسكم
علمهم وحسنهم وان آمنتم رجعتهم وان جعلتم نفاقهم لا انصركم
عليهم ولا تشكرونها .

٢ هل المنحطفكم : حشده او السعيركم : غمزه او المنعبركم :
ظلمه ، او السعدكم : حلقه ؟ الا اني اعتبره وآويناكموه هل شفت
شفتكم ، او عيب عيبكم ، و رعب رعبكم الا كنتم السعد والعدارة ؟
٣ هل العراق : أم برككم : موافقتكم ؟ أم بوجوهكم : الوفاء ؟
ثم ادب الى اهل الشام ، ووجه جوبه : بؤسهم .

٤ يا اهل الشام : انتم : انتم : انتم : انتم : انتم : انتم : انتم : انتم :
بعضي عن النور ، وبيت بعد علم الطير ، وركبتكم من الفطر ، وركبتكم
من النور ، وركبتكم من النور ، وركبتكم من النور ، وركبتكم من النور ،
وركبتكم من النور ، وركبتكم من النور ، وركبتكم من النور ، وركبتكم من النور ،

هذا كلام رجل موبوء لا يوجد من ورائه غير النعمي ، ولا
يفقد فيه الا اني ما نسبه العفة وركبتكم . وركبتكم من النور ،
فيه بترارة السهر الذي اصطفى به الانصار عن السعد ، ولا

١ جمع - ثمة وهي واحدة الخمر : النور .

٢ حلقته .

٣ الذي جمع طاعة : سلطان . والسعد : حاشية سعديكم .

٤ نالوا النور .

٥ المدح بركته .

٦ جمع سعد : جوارح كعروبه .

٧ النور : ما يحسن به اي يحسن .

تشعر معه انك اعمى السنان حقل غرة حيد من احبنا ، فودع
 ضميره ان يحقق . وما ذاك الا لان الخبيث كان في واقع
 موقفه السياسي ، ابدت معانيه ، ابدت متعدياً ، ابدت مسطراً ، فله
 الحاجة ، بعد ان وفق ، ابدت من تسببت الراحة النفسية التي تهب
 على المجاهدين في سائر عيسر حين يصفرون ، وكيمت بوجه مروءة
 بنيت العمل على اساس من العدول لا

نم ان الاعند ، يحول ، ذا وفق ، الى ضرب من نصب الحاد
 التوتير الذي يزداد حدة وانواراً كلما اصاب غرضه او لوح في مـ
 اراد ، فلا يرمي بعد ذلك ، ولا يبد ، ولا ينقر ، لا يحرق
 صاحبه ، او موته . ولذا كان الاعنداء الموفق شدة حصره على
 صاحبه من الاعنداء الفاشل ، من هو اشد على صاحبه منه على
 خديده !

ذلك هو السر في تلك السلسلة من المقام التي طارح الطحاج
 بعد انحصاره على ان الاثمت ، والتي ومن المؤرخون في سيرته .
 وبعدها ، وذكرها الاديب والشعراء متوهجين حارين اعمى .
 وكان ابن القزويني - وهو من اعلام الاديب والبالغة والمقد -
 اول ضحية . خرج مع من الاثمت تاراً ، ولهم ديوان اشبه
 برسائله وخطبه ، في انه شغل محب مستشار نقاشي . فيس انه
 لما وقع اسيراً قبل عليه الخراج حبه وصره بحربه في نحره
 فأنى عليه ، وقيل خربه بالسيف عشقه .

ولاه الشاعر الشير اعشى همدان . وكانت اول من خلع
 عبد الملك والطحاج بين يدي ابن الاثمت بسجستان ، فقال له
 الطاغية : واه ! انت القاتل :

من مبلغ الحجاج اتى قد جئت عليه حرباً
وصفت في كعب امرى . جلت إذا ما الامرا عبي

.....

بنت أن نبي يوسف خرم من زلق فتنبها ...

قال الشاعر : لا ... ولكي الذي يقول :

أبى الله إلا أنت يتم بوره ويظفر نور المفتنين فيخمد
ويبزل أذل بالعراق وأهله بما نقضوا العهد الوثيق المؤكدا
وما أحدثوا من بدعة وخلاف من القول لم تصعد إلى الله مصدا
فأجابه الحجاج : ولنا محمدك على هذا القول ، إنما قلته ناسفاً
على أن لا تكون ظفرت وظهرت ، ونحريضاً لأصحابك ، وليس عن
هذا حالك . اخبرني عن قولك : « أمكن ربي من تقيم
مهدات ... » وعن قولك في ابن الأشعث : « يخ يخ لوالده
وللمولود »

ثم امر الحرس بضرب عنقه ، وهو ينظر إليه قائلاً : « ولته
لا تبغيح لأحد بعدها . »

وما زال يؤتى برجل رجل حتى أتى بهامري كان من فرسان
الجاهل الذين اتخنوا بجند الشام ، فقال له :

- والله لأقتلنك شر قتلة !

- والله ما ذلك لك .

- ولم ؟ ولمن ؟

- لأن الله يقول في كتابه العزيز : « فاذا لقيم الذين كفروا

فضرب الرقاب حتى إذا اثبتسوم فشدوا الوثاق ، فاما متاً بعداً

واما فداء ، حتى تضع الحرب أوزارها . » وانت قد قتلت

فأنخت ، وأسرت فأنخت ، وما إن شئ علينا أو نقديا عاشروا .

- أتشهد على نفسك بالكفر ؟

- نعم كفرت وغيبت وبعثت .

فأنخت نحو الحراس فعلا :

- خلوا سبيله .

وهكذا عاش نحواً من اثني عشرة سنة . وله في كل يوم
حادثة قتل عدواً عن الأسر والنفي والحبس واحصي من
قتله صبراً - سوى من قتل في عساكره وحروب ، فوجد مائة
وعشرين ألفاً . ومات وفي حبه خمسون ألف رجل ، وثلاثون
الف امرأة ، منهم ستة عشر ألفاً بجرادة . وكان يحبس النساء
والرجال في موضع واحد . ولم يكن للحبس ستر يستر الناس
من الشمس في الصيف ، ولا من المطر والبرد في الشتاء .

وكان له رلع خاص باستجواب من يقدم على تعذيبهم أو على
قتلهم ، ويقتل في التعذيب والاستجواب اثنان مهران خبير السائب
الايداء وطرائق التعذيب . فقد حبس اسمه بن حارثة وضيق
عليه ، ومنع عنه الطعام الصالح ، وأمر أن يشرب له الماء الذي
يشربه بالرماد والملح . وكان يأتي بالقصب الفارسي فيشقه ويشده
على السجين وهو عارٍ ، ثم يشقه قصبة قصبة حتى يقطع جسده .
ثم يصب عليه الحلل والملح حتى يموت .

أما استمرادته للضحايا وكانت نتجه نحو إدلائهم وتعذيبهم كان
يشهدوا على أنفسهم بالكفر ، أو يتمفقروا في رأي ، ومنها ما كان

بجرد خلق جو يفيد منه شخصاً في معاملة الآخرين .
 جبهه برجل من ضمهم ، وكان شيخاً هرمياً ، قضى إيامه معتزلاً
 لا يندخل في شأن من الشؤون العامة ، فسأله عن حاله ، فأخبره
 باعتزاله ، فقال له :

- انت متريص ، أنشهد لك كافر ؟
 - بنس الرجل اما ! اعيد الله ثنتين منه ، ثم اتهد على نفسي

الكفر

- اوة أقتلك ؟

- وان قتلني !

فامر بضرب عنقه . ولم يبق احد من اهل الشام والعراق الا
 وبكى من اجته .

رجبه بدوسي الخروط في الثورة الاشعبية ، وكان كثير الغنى ،
 وافر الثروة ، فقتل له :

يا أبا عثمان ، ما اخرجك مع هؤلاء ، والله ما نجت من حلومهم
 ولا دمك من دماهم .

- فنه عمت الناس .

- اكسب في أموالك ؟

- والله آمن على دمي !

- والله لنؤديتها ، ثم لأقتلك .

- والله لا يجمع بين دمي ودمي .

ثم اصدر للحرسي امره بضرب عنقه .

وعندما انحز العصف بن القيعري الى ابن الاشعث ، وكانت

أول المعارضين للعباس كبريت في خصبته ، حمد هذا في القريض عليه ، إلى أن تمكن من امره ، فخرج به قول له :

أنت صاحب الكفة التي يعني أنك قاتلهم ، واعتوا بالخروج قبل أن ينشئ بكهنة ، فواته وأجبتك عن توسده ، ولأنك أنت عن الجيد ، ولأنك في البلاد .

الآن أيا الأمر فواته ما خربت من حيث فيه ، ولا نعت من حيث له .

- أم أهل لك : كافي بصوتك يوحس في قهري هذا ؟
وامر الخراسان مسافره في السجن .

ونك في أكثر حكاياته عند الحكماء المؤرخين ... وبلغ من طغيانه عند الهيراقية في العراق أن خلق جونا من العرب يشوبه النمل ، فكان الناس إذا دلفوا في الغور والنواصي والمساجد والأشواق يتحدثون عن قتل من ، ويستمعون عن يعلب اليوم ، وبروز موقف ثلاث الذي أجده ، وموهبه ذلك الذي ذبح ، كان هذه الحوادث وأما ما أشبه عادية متعارفة يتناقلونها دون أن تدرك فيهم الغمة التي كانت تعثر من قبل ... بل دون أن تهزم إلى التفكير في الخلاص منها .

ويحكى أنه ركب يوماً يريد الجمعة ، فسمع ضجة اضطرب لها فقال :

- ما هذا ؟

أجابه بعض المارة في الطريق :

- المهوسون يضحون ويشكون ، هم فيه من البلاد .
فالتفت نحوهم وقال :

- يا هؤلاء منكم ولا تكلمون .

على ان هذا الجو الرائع على العراق . يمكن ليعرف الحجاج ،
فهو الوحيد الذي كان يعرف انه جو مشمس ، وهو الوحيد الذي
كان يحس رمق المذمومة يودد في انفس بعض المؤمنين الذين آمنوا
سيفه ان اعلمهم .

من هؤلاء حميد بن جبير الذي كان موضع عجب الحجاج ،
وتكريم العامة لرهده ونقواه وصلاحه ، قبض عليه بعد الجبازة ان
ثورة ان الاثمت ، ووضعه في السجن اعواماً ، حتى خضر له ان
يتحدث اليه مرة فامر بحضاره ، وقال له :

- ما اخرجك علي وانا الذي اتركك في الولاية ؟

- انا كنت بيعة لابن الاثمت في عفي .

وهنا دار بينهما حوار طويل كان به سعيد من اجل الجرافة ،
انتهى بمقدور الامر المعتاد : يا حربي ... اصرب عنقه !

وحل مرة فلكمة الامر ، فقدم اليه رجل منهم ، فقال له :

- علي دين من انت ؟

- علي دين ابراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين .

فأمر ان تضرب عنقه . ثم قدم آخر ، فآله :

- علي دين من انت ؟

- علي دين ابيك الشيخ يوسف .

... آه والله لقد كان صوتاً قوياً ! خلى عنه يا غلام .

فلما خلى عنه ، تقدم اليه هذا الاسير وقال :

هذه آية فرقة قيت في شأن امر النار .

- يا حجاج ! أنت صحتي - على دين من أنت ؟ فقال : على دين ابراهيم خليفاً ... فأمرت به فقتل . وسألتني : على دين من أنت ، فقلت : على دين ابيك الشيخ يوسف ، فأمرت بتغية سبيي . والله لو لم يكن لابيك من الميذات ، لا انه والله مشيت لكف . هنا غضب الحجاج وأمر به فقتل ...

لم نجد المقاومة الفكرية اذن . والحجاج كان على انه المعرفة بها ، اذ لم ينوان الاغراض عن المغربة منه ، وامره به ، والتسكبت عليه ، وكان يشعر ان إيمده في العصف والارهاق لا يقابل بشيء من الاهتمام . ولذا قضى ايامه دائم العبوس ، شديد التقطيب ، قلق الخاطر ، يحسب لكل حركة حساباً ويحاذي على النظرة والاشارة والحركة ...

وكأنني به وقد أحس المراع من حوله ، وانصراف الناس عنه ، وإهمالهم لكل ما من شأنه ان يحرك شره فيهم ، اذ اخذ المرافقون يهاجرون الى الحجاز - وكان واليا يومئذ عمر بن عبد العزيز - ويضربون في الارض هاتين على وجوههم ، كأنني به اراد ان ينس نفسه ، وينس من يحيط به ، فاتجه نحو الشؤون العمرانية والادارية ، واستقل بنفسه مع خاصته من اهل الشام في مدينة انشأها لنفسه ، وحظر على احد دخولها ...

٣ - عمران وإدارة

عندما ولّي زياد بن ابيه المرافق (البصرة والكوفة) ، بعد وفاة المنيرة بن شعبة ، رأى ان يقيم سنة اشهر في الكوفة ، وسنة

في البصرة ، حفظاً للأمن ، وقديماً بما يقنصبه حسن الإدارة لشؤون
الرعية ، وضبطاً للموقف السياسي العام في أرض لم يرقها استيلاء
معاوية على مقدرات الخلافة .

وكان الحجاج يتأثر خطى السائفين من ولاية الأمويين ومخاضهم ،
ويستمد بسيرة زباد خاصة . بيد أن الأوضاع السياسية المختلفة
في عهده مما كانت عليه عهد معاوية ، وذاق الأمرين من البصريين
والكوفيين على السواء ، ونهددت حياته في البلدين ، وأصبح لا
يأمن أن يغتالوه بين وقت وآخر ، ولا يضمن إلى أحد منهم في
القيام على شؤونه الخاصة . فما كاد ينتهي من الدين والتوراة وما
جرت وراءها من حواشٍ وذبول ، حتى فتن في إنشاء مدينة
جديدة تقع في نقطة جغرافية متوسطة بين البصرة والكوفة ، ويأثر
العمل في أواخر عام ٨٣ هـ . (٧٠٣ م) فاستغرق انشؤها ثلاث
سنوات سخر بها العرافين ، وانفق على إنشاء المسجد والقصر
والسور ٤٠٠٠٠٠٠ درهم ، وسجدوا وسطاً إشارة إلى توسعها
وكان موقعها على جاني دجلة ، غير أن الجانب الشرقي منها كان
قبل الحجاج عارياً ، تقوم فيه بلدة ساسانية بمسكنها الأوالي من
الفرس وغيرهم ، وتدعى كسكر ، وانحدر له فيها قصرًا ذا فية
خضراء أطلق عليه اسم الخضراء ، وهو اسم قصر الخليفة معاوية
الأول الذي أصبح فيما بعد بلاط الخلافة الأموية .

« وقد أظهرت تنقيبات مدونة الآثار العامة العراقية ، التي
استمرت ستة مواسم منذ سنة ١٩٣٦ ، جامع الحجاج وقصره ذا
القبة الخضراء التي كانت ترى من قم الخليج ، على سبعة فراسخ
من تنافس ، أي ٣٥ كيلومتراً ، وغرباً فوق هذا الجامع على ثلاثة

من جدران جامعة أخرى ، ومن يبق من الأول والقصر غير بقايا الأسس
والسوراري وأجزاء صغيرة من الجدران ، إذ يظهر أن من شيدوا
الجامع التي أغلقت استعملوا في بنائها نفس الجامع الذي قبله .
وكانت البقايا المكتشفة كافية للاستدلال بها على أبعاد الجامع وعدد
بلاطاته وأروقته . فالجامع مربع الشكل درجه ١٠٣ : ١٠٣ من
الآثار ، وجدرانه ضخمة تظهر المقرب ونصف القوس ، وشبهه ببعض
وأجر قصر البون ، بحكم الشكل . وفي مصلى الجامع خمسة أروقة
بألف كل منها من تسع عشرة بلاطة ، وفي مؤخره رواق من
تسع عشرة بلاطة أيضاً ، وفي كل من جانبيه رواق واحد به
ثلاث عشرة بلاطة . ويلاصق الجامع في جهته الغربية قصر الخوجاج
الذي أظهرت الحفريات قسمه القريب من الجامع بواسطة انفاق
بثنت في النقص إلى المحق ثمانية أمتار . وكان يقوم عند تقاطع
الأسس الثلاث مع أسس أروقة المصلى ، حوار مؤخره من
فصص الجورة الرملية . ويلاحظ فيها هو موجود أن قطع السابرة
الواحدة كانت موضوعة قطعة على قطعة تعمل بنهب اصابع
الحديد . . .

أقدم الخوجاج أدن في هذه المدينة المسحوقة ، وعني بسورها
عناية فائقة ، بحيث لم يكن ينح العراق في دغورها ، ولا يقدر العدو
على مهاجمتها . . . فكانت نكتة حامية ، بها تجمع جند الشام ، وقلة
الحصن بها الواقي ، ومركزاً نذار منه بلاد العراق وما يليها .

١ من محاضرة المداهم الأستاذ شجر بوسمة فوسيس في مؤثر الآثار العربية المخطف
في دمشق صيف ١٩٤٧ عن مداهم العربية في عواصم العراق الحديثة .

ثم انصرف بعد انشائه الى اجراء اصلاحات عمرانية مختلفة ،
 فعمّر السدود في السواد وهي المنطقة الزراعية الخصبة الواقعة بين
 العرات ودجلة ، بقية رعي الاراضي ، وحضر الترع وبحري المياه
 كالواب ، والتيل الذي دعه هذا الاسم تيسراً لبني مصر . وقامت
 فيها بعد ، على جانبه ، بلدة تخدمت اسمه وازدهرت فيها الزراعة ،
 وبعض الصناعات الزراعية .

وكان يكتفي بهذه الاعمال العمرانية التي نشط معها اقتصاد البلاد ،
 واتماهد الى بناء السفن ، فكان اول من سبّر السفن المدهونة
 المستمرة في البحر ، وانشأ المزارع المائية الضخمة بين واسط
 وفرون ، ترى نديها ليلاً ، ودخان مزارعها المبخرة .

ورأى ان الخلاط العرب بالاعجم اقصى الى بلبة اللسان
 العربي فامر بوضع الاعجام والشكل في المعاجف ، وكانت
 الحروف من قبله مهله اي لا تنقطع فـ . وقام بهذه العملية
 رجلان هما : نصر بن عاصم وبجبي بن يعمر فلبذا الى الاسود
 الدولي ، فبصر الحروف المتشابهة بتوك الاول منها دون نقط ،
 ووضع عدد من النقاط ثنائي اقلها واحدة ، واكثرها ثلاثة .

ثم عني بتقضية العملة العربية ، اذ كان العرب ايام الجاهلية
 وصدر الاسلام يتداولون العمتين : الفارسية واليونانية ، وكان عمر
 قد امر بسك العملة الفضية ، ونبعه معاوية . ولما جسد مصعب
 ابن الزبير الى العراق ، امر بضرب النقود ونقل بعض الآيات
 القرآنية عليها . ولكن الحاجة انشأ داراً خاصة لضرب العملة جمع
 فيها الطبايعين وختم ايديهم ، وحملهم على سك نقود باسمه . ويقول
 المستشرق دبيريه : ان قطعاً نقدية عرضت في قاعة المتاحف ، في

بدریس ، و قتل عظیم اسم ، الخراج بن یوسف ، و شئی الوجه الذي
نقلت الآية : قال هو الله احد ، الله احد .

وعني الخراج ايضا تنظيم حوز لادري في الدولة الاموية ،
وكان هم الاملاحيات التي اوجبت على الدواوين في العربية ،
والتوسع فيها ، ان كانت من جهة مصيرية مشوشة يستلزم ملاحظتها
اللغة الفارسية في العراق ودرس ، والقبض في مصر ، واليوقة
في بلاد الشام ، ووجي الخراج امر صالح بن عبدالرحمن ابن
ينظم جميع الدواوين ، وديوان الجيش ، والذي تسجل فيه أسماء الجنود
وانسبهم ، واعصيتهم ، وديوان الخراج ، وسجل النعميلات ، وديوان
الحكم ، وديوان الخدمة ، وكل ما يتعلق من مقادير
الوالي ، وديوان الرسائل ، سجلات المراسلات والقرارات بين الوالي
والموظفين .

ثم راجع يشتمل بالمفاوضات بعد ان هدأ واستقر ، موثق فتية
ان من خراسان ، ومدة بالجنود ، فاحتل القسم الاكبر من بلاد
العميم التي لم تكن خاضعة الا لاسماء ، ونوع في تركستان واحتل
بخاري وسمرقند ، والقلب الى التركستان الصيني ففتح عاصمته . بيد
انه لم يتدخل في الصين ، وغفل الى بلاد فارس .

ووفق ابن اخيه محمد بن القاسم بن محمد الثقفي قيادة جيش عظيم ،
ووجه لاجلال احمد ، فاضح بنو خندان والسند وموالتان ، وزحف
على البندوب ، فجمع قسماً منها .

وبقي الخراج مشغلاً مية ولأيت جهته الزخوف والتجهيزات
والامدادات ، متبعا حركات الطيوش ، متصرفاً اليها بروحه وعقله
وفكره ...

ولكن هذه الاعمال العمرانية والادارية لم تكن اكثرو من وسائل إعمار لمراقبين وغيرهم ، فهو لم ينصرف اليها ، في الواقع ، إلا ليصرف الوعية عن التفكير فيه وفي مظهره ، وليحوطها عن البحث في قضية الخلاه ، وممثل السياسة من جهة ، ثم ليحتفظ بمنزلته في نفس الخليفة ، ومنصبه في الدولة الذي ارفع والسم وزاد مع الزمان بسطة وارفعاً ، من جهة ثانية .

وبلث ظاهرة رورة في سيرة كل طغية ، اعني هذا ، الامم ، للناس في تحويل النظر عن طغيانه الى الميران ، الى الفتح ، الى ما اشبه ذلك مما تستغرق فيه الجماعات استغرافاً تاماً ، وينتقل الحاكم نفسه ، في غفوة استغراف دائم ، ثانياً العمل ويجد الانحدار ... هدي هي سيرة نابوليون يوم اوقع فرنسا ثم دولته اوروبا ، وهدي هي سيرة موسوليني يوم حلف على ايطاليا ثم اشبح الخليفة ، وهدي هي سيرة هتلر وغيره وغيره .

اما تعلقه بالحكم ، او شدة وحمه بشخصه ، ولا اضيق ان في حاجة بعد الى اقامة الدليل عليه ، بيد اننا ظهرت حين استلب الامن وحاد اعدوه على اعف . - يمكن ان يظهر ، فكانت لولب محرر كانه الادارية كلها ، ومصدر عبقريته في تشييد الاعداء ، وتقريب الحلفاء ، وانقاذ الاصفياء ، ذاهبك بما كانت فوحي اليه من افكار ، وترين له من اعمال .

كان من امر هذه الشهرة للحكم في نفسه ان اوجت اليه فكرة ايلاء الخلافة لتوليد بن عبدالملك من بعد ابيه ، لانه كانا على يقين من العزل اذا خرج الامر عن يد الوليد ، ففعل عين ما فعله المغيرة ابن شعبه حاكم الكوفة يوم زيتن معاوية ان يدعو الناس الى

مبايعة ابنه يزيد في حرمه ، فكذب ابو عبد الله بشعره على بني
 العكره ، وبسط ابره في حرمه وفيه . ولكن عبد الله كان يحشى
 انفس حبه عبد العزيز وحي معمره وروي في قرية حسه ان
 احد ما يكون مراداً الى هذه الحصة ، ويحسب ان ربه انزلت
 الكواكب على نحو ما الشعب حصوة معروية ، ولكن الخراج
 من في شجبه وحي من ذلك ان يطمع الله من الحيله
 واحبه ، لان عبد العزيز ان يوقفه ، وكانت الامارات نور لولا
 ان تلتفت اليك وان حل حالي ، فكذب عبد العزيز الى ابيه :
 واني وبك يا موي مؤمن وقد يهدى لك من اهل من اهل
 بينك الا كان يؤمنه فبلا ، ولا يدرى اين يذهب الموت اولاً ،
 فان وابت ان لا يهدى بني فقه محرمي ومن ،

ولقد المصروفات ان لا يحب من الخراج ، وان لا يحسن
 عليه ندمه في الخراج ، فقد لمي عبد العزيز الى حبه بعبد الله
 فلبلة من هذه الامرة ، وههنا انهم امير المؤمنين من قبل
 التغاري من امر الناس عريضة ولد ، فويج دون ادى معرفة ،
 على ان يكون ولاية العهد لاحبه سيان .

احيان الخراج والراجح ، فقد انزلت ما اقل ، ولما هلك
 عبد الله ولوى الوليد - وذلك عام ٥٨٦ - كذب الخليفة الى
 عامله على العراق بسأله عن السونة في الخراج ومدهج ادارته ،
 فكذب الخراج بصف سيوان .

و اني ايقظت رأبي وأمنت هواي ، وادبنت السيد المطاع في
 قومه ، ووليت الحرب الخرد في امره ، وفقدت الخراج الموقر
 لاماته ، وقسمت لكل ختم من نفسي قسماً واعطيت حظاً من

التي هي عذري . وحرم السيف في حروبهم . والثواب الى
الحسن البري . فذو اريب حوثة عقيب ، وشئت الحسن بحظه
من ثواب .

اواقع ان الخراج يصف هذا النوع في الادارة كما نراه
ان يكون ، لا كما كان . وهذا يضاف من ظواهر الحجة القوية
الحجة التي بحجة الصفة ولا بحجة غيره . وهم يدركون الحقائق ،
ويؤمنون دلائل اواقع المسؤولين عنه وعن سببانه ، ويعرفون كل
ما يصلحهم ويخرج عن سواكهم ، حتى اذا سمعوا على وصف
انفسهم ، او استعملوا من موقعتهم وانهم في الدروة من احكام
البري وسداد المطلق والملافة الحجة . ان كان العامة لا تشير في كثير
ولا قبل اني اعقدتهم بصفة من يقولون ، ولا اني اطلق بين
الافكارهم وانهم وانهم ، ولا اني استعملهم بين انفسهم وما انفسه .
فليس صحيحاً ان الخراج المقطع رايه وانه هو ، فقد رايه انفسه
لا هو انه واستمره مع اخذه . وليس صحيحاً انه صرف السيف
ان اريب المس . والثواب الى الحسن البري . فتورات المراق ،
ودلائل الجدار ، واعتزله رجسته في مدينة خوجة به . ونحشيه ،
ان كان كما ان م يوفق الى رضاه احد فقد . وبذلك انه لم يسلط
السوك الذي وصفه ! الصحيح انه استغفر الخلاف وجهات النظر
بين المرافيين والشاميين والخجريين في قضية الامامة ، واداد من
معتقدات هذه البيئات الثلاثة ادق الافادة في بناء شخصيته ، وتحميل
مركزه ، ونوطين نفوذه ، فوفق الى احتلال المكانة التي احتلها ، ولم
يكن له من هدف يرمي اليه غير الاستيعاب بظانته الحكيم والتقلب
في حبه .

ذلك هي عقيدة الخبيج . وهذا هو سر نجاحه في الإدارة من ناحية عامة . أما مواهبة الشخصية ، فقد كانت في -- رى المنصب الذي يتلقاه ، وانهم ، غلب كعبه في الأدب والخدمة

٢ - ادب وخطابه

الخبيج ادب من الضرار الاول .
 اريد ان اقول انه كان يملك من القدرة على التعبير ، والبراعة في تهريف الكلام ، والذمر في بين افكاره وبجانبه حواضره وانغراسه ، ما لا يحده امرؤ إلا ان يكون ، وهو من الناحية الادبية ، وليس الادب ، في السطح الاخير ، غير انه اميزة التي تجعل الانسان يعبر حيث يقف الآخرون عاجزين حائمين . . .
 ولا عرامة ان يكون الخبيج ادبياً ، وهو الذي راول الثعالب ، وحبر قلوب الكلام ، وعلى كسبة الوسائل ، والاعود ، فيها بعد ، على السار .
 غير ان الحياة السياسية وما تقضيها من انصاف بالخير ، واحتكاك بالعامية من الناس ، جعلت ادب ذلك العصر خطيباً في الدرجة الاولى ، حتى تنجد على الشعر ، شعر هذيك الأيام ، مسحة خطابية واضحة الاشارات . ولو لم يوفق الخبيج الى تولى المنصب الذي شغله ، أي لو لم يلق بها نظمي به من الخيال الادوية ومهام هراوية وعسكرة ، لبغ في دنيا الادب ، وكان له فيها شأن لا يقف عن شأنه في عالم السياسة .
 واذا انت دقت النظر في سيرة الخبيج ادركت انه كان

وإن السبب في ذلك هو أن روح أدب ، أو روح شعر ، يقيم للكلمة وزناً لا يخف عن وزن العلم ، ويحدد مصادق ذلك في كل ما انتهى اليها من أحباره .

ولكن الخلل كان أيضاً وتنبأ بكون ما في الوثنية من فكر وروح . كان الشخص الأوربي في الحضارة الوثنية القديمة ، الموعظة في بعض التاريخ العربي القديم من تقديس المادة ، وعبادة سلطة ، وعرف عن السمل العربي والأشعراف الفلسفي ، إلى نوع شديد بحدود القوة وروح المقصد ، والذكاء ، دقيق لاسرار السوك العربي ، وعرامة بآله في الأخلاق والله ما ، إلى أثر عميق . ولكن آتي - بحال المرأة والنفس ، إلى السبق القوي مع التيار العكري العلم ، فهو يشهد ، في عصر من شخصيته ، منسقة الوثنية العربية التي طواها الإسلام ، وكانت عذبة عيب ، شديداً في عاداتها . . .

وأعرب مسألي في الوثنية العربية من ظواهر ، هو ذلك الشعب ، البيان الذي لا يجد له مثيلاً عند لغة من الأمم ، ولا في لغة من اللغات . وحديث دليل على قيمة البيان في نفس العربي ، لم يغفل من الوثنية إلا حين قرئ عليه القرآن ، وأخذ ما فيه من روعة البيان وسحر البلاغة ، فمن أن يؤخذ بما يحمل إليه من تعاليم وأفكار ، فكانت اللغة السحرية تعطي السبيل أكثر منه للبيئة لشعور ديني عبث له القرآن عنه . فمن أقوال العرب القديمة التي تصور عقليتهم أفضل تصوير قوهم : « أفند من الرميثة كلمة فصيحة » .

وجاء الإسلام فصحا كل ما يمت إلى الوثنية بنسب ، ولكنه لم يبع هذه العقلية البيئية التي لا تتأثر إلا بالكلمة الفصيحة ، بل

فعل عكس ذلك تماماً ، أي زاد العرب تعقلاً ، واكثر ، واني على
هذا الاساس بنائه الشائع في حياتهم وكتبهم ومجتمعاتهم .
ثم جاء الحجاج الوثني بروحه ، الوثني سكيته ، الاخلاقي ، الوثني
يشظونه الاحمالية ثابته ، فكانت تحكم وثيقته هذه عدداً من اعلام
اليمن والقصاحة ، وما كان استشهاده الشكورة بآيات القرآن
عن اذن ، وإنما هي توكيد لجذب الوثني من وثيقته ، لأنه استشهد
الولاية بالقرآن في عهده كان « موصيه » يقرضون به ، ووصيه قوله
قاعدة للتأشير في نفوس السامعين ، ان لم تكن أقوى الوسائل
واقدها ، وذلك لاختلاف أي ان وثني العرب لم ينكروا عني
القرآن بلاغة ، ولا رأوا فيه إلا كل ما يدعوهم الى الاعتدال
ويحملهم على الادعاء ، فكيف به وفقد اتحدوا الاسلام وحملوا
لوائمه وجعلوا من انفسهم اولياء المؤمنين ، وأئمة المهديين ؟
نأمل ان الوليد بن عبد الملك دعم الحجاج ، في وحدة وهدى
عليه بعد استخلافه ، أي الاول شيء من آخره ، وكان الحجاج
يمنع عن الشراب ، فقال له : « يا امير المؤمنين ! ليس بحرام ما
أحدنا ، ولكني امسح اهل عمي عن آخره ، واكره ان احالف قور
العبد الصالح : وما أريد ان احلفكم الى ما اتواكم به . »
ونأمل انه كتب الى عبد الملك مرة يقول له : « ان خليفة الله
في ارضه اكرم عليه من رسوله اليهم ... »
لم يكن الحجاج ، اذن ، في قرارة نفسه ، غير وثني ، ولكنه وثني
مكبوت ، لا يستطيع ان يظهر لنفس حقيقته ، ففي حقيقته هلاكه .
ومن المحقق هذه الوثنية كان ينضج اذنه ، اذ نشأ في نفسه صراع
امسك فيما بعد الى خارج النفس ، فتعزل صراعاً مع الناس ،

وانقلب على عمر الأديم أي فلق داخلي لا يشفيه إلا التعبير ، ولا
يخفف من حدته غير الكلام ، ولا يروح معه إلا للتحدث والمطارحة
والجدال ، وذلك هي حال الأدب عينا وتاماً .

والك انقلب حتى لا ينهي تعجبك حين تلاحظ ان الحجاج لم
يكن مرة ، انساناً ، الا مع الادباء الذين يخلعون اليه ، او يسترون
انقضاء سكرة بدير منهم ، او كفة بليغة يدافعون بها عن انفسهم ،
او فكرة جديدة لم تخضر له على بال .

ويلاحظ كل من ينتبع موافقه او يستقري . نفسيته خلال تصرفاته
ان دعه ملي . علامات الاستفهام والاشك عن الرجال وطباعهم ،
والنساء ، واحرارهم ، والاعمى وكيف يكون ، والعظمة وكيف يفهمها
الآخرون اذا كان يستجوب الادباء والفقهاء والبلغاء من الاسرى
والمحكومين استجوانات تدل على نوع المشاكل التي يفكر فيها ،
وهي مشاكل انسانية عامة اولها الادباء والشعراء كل جهودهم ،
وكانت مدار آثرهم ، ومحور افكارهم . وليس تفكير الحجاج بها
فذلك التفكير المتصل الا نو كيداً لأصالة النزعة الادبية في نفسه .
وهذه النزعة لا تتأكد في ما كان يعاني من تفكير وحسب ،
وانما تجدها واضحة في ما انتج من رسائل وديع من خطب ،
وانتقد من شعر ، ونظم من قصائد ، لانه كان ينظم بعض الاحيان
وينتقد الشعراء .

اما أسلوبه فقد كان عبقاً ، صاخباً ، عذاراً ، يلجأ فيه الى
الكلمات الضخمة ، والصور القوية البساروة ، والعبارات الموجزة ،
الجزلة ، الشديدة في وقعها . ولا غرابة في ذلك ، فالاسلوب هو
الرجل .

وقد يكون في ذلك كرم من نفسه ورسمه وكهانه الاصلية التامة
على منهج حياته وطريقه أدائه وفي الخشب في هذه الرسة
القصيرة ، التي بعث بها الى قوم من الغرباء ، وفلسد بعده لهم
يقطعون الطريق ، مثلاً بحسن صورة عمته عن ادب الحجاج كونه
في فيه من حداث فكريه وبديهة كذب الهم بقوله : « وما
بهم ، ولكنكم قد استغفركم العلة » ولا عن حق القديس ، ولا عن
شكرهم ، وفي احدى اقسامه قد غلبت في حينه بعض الصفوف
والثالث ، ونقد العلة ايضاً ، والاولى : « من ، والتدبير حريصاً ... »
فلم اذم كذبه كتموا عن قطع الطريق

هذا ما كان من امر رسالته وانجزها في موس قطع الفرق !
وذلك هو تأثير الخطبة في موس العامة والخاصة على السواء .
وكان يفتوح الادباء والشعراء ويصدق عليهم العناء ، ويوضح الى
مسايرتهم واجتهادهم ويشار إليهم في آرائهم الادبية ، ويسوقهم للشعر
والعناء ، حتى لينسأله المرء ، حين يراه في جلسة ادبية ، قائلاً :
« اصحيح ان هذا ... هذا الذي ينقل الشعر به الخاسة والاريجية ،
هو الحجاج هو ... وليس امرأ غيره ؟ »

ولكن الحجاج ! يكن ليهوي الادب والادباء تلك العصابة ،
او يستغرق في سماع العناء ذلك الاستمراق ، الا ابتعاداً عن نفسه
وتهرباً من حياته الشخصية .

٥ - حياته الشخصية

...والخدم حيوان صبياني .

تتعلق حيوانيته بعينيك في انكسر ما رشح اليك من احواله
الشخصية وذهنك سواك الخاضع مما يدعوك الى التفكير في ان
الحيوانية العامة لم يكن لها من حركات اولية او رواعث
خاصة غير الحصول على اكبر كمية ممكنة من وسائل الشبع والذائد
الارزاقية في ذات شأن كل رتي وروحه وعقائده . وهذا ...
اي ان لم يتوصل هذا الافواص فيعبر عن عيذك بهم سواك ،
وستقع في مأرق دقيق حين تحول تفسير تلك السلسلة من الظواهر
الشدة في رجاها النفس .

لكن نعم انه لا يمكن ان يمشى الى الجحيم ، ويجهد في الوصول اليه ، اي انه لا يمشى الى الحكم او السعادة خدمة مذهب اجتماعي معين ، او فكرة مثلية معينة ، او مذهب روحي معين على نحو ما فعل اي خارجي في عهده . وهم انه فلك بلا لاف ، ان لا يمكن عشرات الآلاف دون ان يقدم لك عذرا يجبهه هو معقولا . يوربه ذلك . كل ما يمكن ان يقال في امره انه وضع نفسه ، من تلقاء نفسه ، تحت تصرف عبد الملك ، وتقدم في خدمته وارضائه . ولكن "ماذا" وما كانت غايته ؟ ذلك هو السؤال ...

لقد اجاب الحجاج عليه عملياً بما كان من امره بعد ان حكم ،
وبعد ان تغلب على الخصمه ، وبعد ان اتسع سلطانه . اجاب عليه
بما اخطت نفسه من مناهج طبها في مباحثه العامة وحياته الشخصية ،
فاذا هو لا ينبغي اكثر من ان يعيش آمراً ذهباً متيناً باكثر

فقط من الرغد والراحة ، محضاً ، وهو عدد مسكن هذه واقاربته ،
متوسلاً مع غرائزه وشهواته .

لذلك ... لذلك اعتزل أهل العراق ، وأهل مدينة خاصة به
وبحره . وأقام في قصر كلف بيت المال ملايين الدراهم ، وحشد فيه
النواميس الفيلة من الجوارى ، والأطباء من المال . وراح يقرب
من شاء من الرعية ، ويعد من شاء ، ويوظف اقربيه ، ويعطي من
شاهه ، وينتلق الخليفة وأهله ، فوق هذه اليمن ، ورواح اخيه زينب
من الحكم بن ايوب وولاه البصرة ، ثم فوق شحنة البصرة
مكاري زينب الذي نقى من اخيه اي التزم عندما كانت عروساً ،
وعين قريبه محمد بن القاسم القتيبي فنادا على الجيوش التي وجهها
أفرو احمد ، وروج ابنة اخيه من يزيد بن عبد الملك . ولم يتوك
كبيراً او صغيراً من بني ثقف لا واكرمهم واعقد عليه عطاياه .
اما غرامه بالنساء فلم يكن غراماً ، بل معنى الشاع المعروف ،
كان يسمع امرأة او بالغة فيخطبها ويتزوج ، حتى اذا قضى منها
لبائته خلفها واستعاض عنها بغيرها ، ولكن بينه لم يخل ، بعد ان اقام
في واسط ، من ثلاث نساء على الاقل . وهكذا ... عاش حياته
يتزوج ويطلق . تزوج ابنتي النعمان بن بشير وطلقها . وتزوج هند
بنت المهلب بن ابي صفرة وطلقها . وتزوج هند بنت اسماء بن
خارجة وطلقها . وتزوج بنت عبد الله بن اسيد اخن خالد الذي
ولي الكوفة في أيام بشر بن مروان وطلقها . وهناك امرأة اسمها
« الفارسة » لا يذكر التاريخ من امرها سوى انه تزوجها كعادته
وطلقها كعادته .

ولم يكن الحجاج يصدراً في ريجته هذه عن حب أو تعاضف

أو تشتم محقق ، وإنما كان الجانب السياسي يلعب دوره في كل منها . وأعني بالجانب السياسي ، في زواج رجل كالحجاج ، ذلك العنصر بين القبائل والحزبات بعد الأسر . فهو لم يخطب روجه عبد الله بن الزبير بعد أن صلبه إلا من قبيل السكبة والنسفي ، فأحقق . وكانت أخفاقه هذا عاملاً كبيراً في حياته مع المرأة ، وعظمه إلى المرأة . وهو لم يتزوج من عند بنت اسمه بن خارجة الذي سجنه فيها بعد وعده عذاباً بصكراً ، إلا انتقاماً من بني هزارة وهم أهل امرأة ابن الزبير التي رفضت يده بكبر وإباء .

وعلى هذا الأساس خطب ابنة عبد الله بن جعفر بن أبي طالب . فقد كان يود التباهي بعلو المنزلة التي بلغها ، إذ يقول الناس عنه أنه أصبح صهر المشيخين في جانب ، وليدول المشيخين حين بكرهم على تزوجه في جانب آخر . ولكن عبد الله بن جعفر استهل صهره الجديد سنة في نقل ابنته فأمهله . ثم اتصل بعبد الملك ، عن طريق خالد بن يزيد ، معلناً سخطه وسخط ابنته على هذه النهاية المحزنة التي انتهت إليها بنو هاشم على يد الأمويين . فما كان من عبد الملك إلا أن أمر الحجاج بتطليقها فطلقها .

إزاء هذه الحياة المتزلية المضطربة ، كانت حركاته العامة في المجتمع تخلق له الوساوس والاضطراب ، فعاش أيامه عابساً ، قلق الحاطر ، ضئيل الاحساس بالسعادة ، رغم أن وسائل الرفاهية توافرت لديه على أحسن ما يمكن أن تتوافر لأفسان . وقد رزق أربعة أولاد وابنة زوجهما فيما بعد من مروان بن الوليد بن عبد الملك . ولكن ابنه أبان هلك في حياته . أما ابنته عبد العزيز فقد قتله مروان ابن محمد بن مروان في أولخر الدولة الأموية .

بيد ان البلاء الذي كان يعالجه الحجاج ، والذي جعله دائم الهم والصبر ، لم ينشأ عن ظروف العائلة ، ولا عن التكتيات التي نزلت به ، وانما هو وجدانه الذي كان يستيقظ في فترات يعيش بعدها في جميع ما ينهال على ذهنه وخياله من خواطر مقلقة ، وصور مفزعة ، ونهاريل مصبوعة بالدم ، فائرة كالشور . فكان يطلتق نساءه نتيجة عدم رآه ، ويأمر الناس بخلق حاتم ، ويمافب من يخالفه بتسميره في الحائط نتيجة تخوفه من شخص استشعر له هبة في نفسه حين رأى لحينه ، ويقدم على اجمال لا يمكن اعتباره معها موزوناً بحال من الاحوال .

وبلغ به الشاؤم في اواخر أيامه درجة كان يحذي معها بالموت ، اذ مرض واشتد عليه المرض . فتسنى اهل الكوفة الصعداء ، وايقنوا ان نهايته دنت . ومنهم من نشر في البلاد خبر موته قبل اوانه حتى بلغ مسامعه . فتعامل على نفسه ، وتجلد ، وخرج الى المسجد ، وخطب : ... ان اهل الشقاق والنفاق نفخ الشيطان في مناخرهم فقالوا : مات الحجاج ، ومات الحجاج ، والله ما ارجو الخير كله الا بعد الموت ...

واكبر الظن ان الحجاج مرض لاسرافه في تناول المأكول . فقد حدث عنه الرواة انه كان اكلوا نهياً ، ينفق من الاموال على ولاته ما لا يكاد يصدق ، اذ كان يصنع في كل يوم الف خوان في رمضان ، وفي سائر الايام خمسةة خوان ، على كل خوان عشر انفس وعشرة ألوات وسمكة مشوية وأور بسكر . ولم يكن يسبح لعراقي بمؤاكلته . فاعل الشام دون حوام كانوا مناديه ومعاشريه . ولأهل الشام ارتياحه ، وفي مييلهم بذلك وإنفاقه .

في أوائل شهر رمضان عام ٩٥ هـ. طلب الحاج سعيد بن
جبير لمقابلته ، فجيء به من السجن ودارت بين الرجلين محاوراة
أبدى بها سعيد - وكان معروفاً بالقوى والصلاح - جرأة بالغة
وإيماناً رائعاً ، فلم يتألك الحاج أن يضحك منه ، وأمر بضرب
عنقه ...

وفي العشرين من رمضان استند المرض على حاكم المراقين ،
وطيف سعيد بلاحقه ، وندمه على فعله يقوى وبشنته ، فلا يجلس
للمائدة إلا وينسئ امامه ، ولا ينام إلا ويواه في حله ، ولا
يتحدث اليه عواده الا وينس وجوده بينهم ، ولا يسمع صوتاً
الا ويحبه صوت سعيد .

وفي الخامس والعشرين من رمضان تقدم منه حيله «نودوكوس»
الذي كان يسهر على صحة كسرى من قبل ، وجلس نبحه ، فاذا هو
امام جنة هامة .

وذاعت البشري ، فتأفكها الناس ساجدين له في الشوارع
متسائلين :

- ما الخبر ؟

.. مات الحاج ...

- شكراً لله !

بعد الحجاج

١ - نعمة وملل

لم تكن سيرة الحجاج الشير ، في نفوس العامة والخاصة على السواء ، غير السخط والبؤس ولأنهم ، على الرغم من كل ما أنشأ وأصلح وفتح في أواخر عهده ،
صحيح أنه وفق إلى ضبط الأمن ، وصحيح أنه وحد أجزاء الامم الوطنية العربية آنذاك ، وصحيح أنه استطاع ان يخضع الأثرن على السلطة الأموية من كل جنس ولاد ، ولكنه عطل القيم الروحية في الأمة ، وأساء إلى المجموعة العربية إساءات لا تزال تعاني آثارها وتكبد أوجاعها إلى يومنا هذا ...
وهو هو الذي غداى العنصرية الأفريقية في نفوس الشامي والعراقي والحجاريين ، وجعلها بركاناً يتفجر بلاذى والصينة .
وهو الذي مهد الأجانب سبل الانتفاص على السلطات العربية بما أظهر محوهم من دراسة ، وعمل على إذلالهم وتهميمهم .
وهو الذي قبض عليه الأجانب حجة في أيديهم لليل من صلاح المرقي للحكم ، والغرض من شأنه في مراس الاستقلال .
وهو الذي بث السخا ، وعمم روح الندي بين أبناء البلد الواحد ، والفكرة الواحدة ، والروح الواحدة .

فعل كل ذلك ليعلم عبد الملك أولاً ، وابنه الوليد ثانياً ،
وليزيح من طريقها كل من تحته نفسه بالحكم ، وكل ما يمكن ان
يزعزع سلطانها . وهدفه الحقيقي الابد ان يكون هو نفسه ، اي
الحجاج ، والياً خليفة حياته .

هذا الاخلاص للخليفة المشروب بالشفقة الشخصية ، هذه الحماسة لابلاء
الوليد ادارة المؤمنين بعد ابيه ، هذا الطغيان في القسوة على
المخدولين المنكسرين من اخصامه ، هذا الفتنك العنيف بالايدياء
والعصاة على السواء ، هذا الافذاع في لسانه ، هذه الهرة في معاملة
اهل الشام ، هذه الحبة الشخصية الخافقة بالتظاهر الزائف والبدع
الارعن والتجبر البغيض والاستهانة بالناس - هذه الاحوان والمظاهر
كأها جماب العامة في حانة من اثلل حلقها على ازدياء كل شيء .
حتى وجودها - فلم يبق للناس مثل اعلى يخدمونه ، ويجهدون في
النصيحة من اجله ، وارندوا الى حيوانية جامدة يتقلبون منها في
بلاء ناه ، لا لذة في منادته ، ولا مجد في الانتصار عليه ، ولا
طاقة لاحد بحبه . فكان هم الرجل ان يؤمن قوته ، او يخلص
من وشاية ، او يحبط سعاية ، او يبعد عن ابن الجواسيس ، او
يفتر من وجه الشرطة ليعيش في امان . وكان هم المرأة ان لا
يشارك زوجها او اخوها او قريبها او حبيبها في الحياة العامة
كي لا يضرب الحرسى عنقه ، او كي لا يزوج ابد حياته في غياهب
السجن .

اما الفقهاء والقراء والشعراء ورجال العلم والادب فقد تفرقوا
في البلاد بين مهاجر ضرب في الارض لا يرجو غير رحمة ربه ،
وخائف الخلق لسانه في مدح الامويين وعلق ولانهم ، وتأثر بحقه

القيف أو حجه السجى . وملك انطوى على نفسه في صومعة
منعزلة يستجدي الاكف مخبئة ورقة . ويمشد الموت في اقرب مهلة .
تلك كانت حلة السواد الأعظم من ابناء الوعية
الثقة في وسط الحجة كانت تلبس يوماً بعد يوم ، وكنياً ما
اظهر امرها فملها . وحضرت في حفلات حافنة ، وتنتهت عامرة لا
تكد ان يسمع امرؤ التي حمرها الخبيج بين الرائي والوعية .

وكان سببان بن عبد الملك اول السفيين على تلك السياسة التي
ابنما جباراً قياف . وكان اول من تجرأ على معاوخته ، اذ كتب
اليه مرة يقول : بسم الله الرحمن الرحيم . من سببان بن عبد الملك
الى الخبيج بن يوسف . سلام على اهل الطاعة من عباد الله .
اما بعد ، يا ك امرؤ ، هتوك عنك حجاب الحق ، مولع بما لك لا
عليك ، مصرف عني مذهبك ، ذرك طغتك ، مستخف بحق الله
وحن اولائه ، لا . ساف اليك من خير يعظفك ، ولا ما عليك ،
نصره . في مهمة من امرئ ، لا تسكت عن قبيح ، ولا تؤعوي
عن حماة ، ولا توجر له وقراً حتى دعيت فاحشاً سبياً . فقس
شورك بعثوك . واهم الله لئن امهكني الله منك لأدرستك
دوسة بلقي منه فرائعك ، ولا جعفتك شريداً في الجبال ، للوذ
باطراف النجا ، ولا علقن الرومية اخرا . بنديها . علم الله ذلك
مني ، فقدماً غرمت العافية وانصبت اعراض الرجال ، فالك قدورت

١ . قال شيرة خنزة : من يفل ان يصح فنه في مقامها ولا يتجوز .

٢ . يعرف رجب بن يوسف حث خبيج ، وانما عير عنها بالرومية اخرا . لانها
كانت ظفراء بضا . الله باب الروم . وعرب يملكون به . اخرا . على امرؤ ذات
جنان عجمي .

فبطلت ، وظفرت فتعديت ، فزويدك حتى انظر كيف يكون
مصيبك ، انت كالت في وبتك مدة العنق بها ، وان لك الاخرى
فارجو ان توؤل الى مدة شايمة ، وخربة طويلة ، ويجعل مصيبك
في الآخرة شر مصيب .

ويشبه في هذه النقة عمر بن عبد العزيز ، ولكن على مصيد
احسن والبرف ، وما الفلك يشكرك عيد التثبث مساوي الخراج ومطامه ،
ويميل قل في وسعه لتخفيف من وطأه .

وما ولي الوليد بن عبد الملك استعمل عمر بن عبد الله ، وكان
يوثي الهجرين العراقيين الهريصين من الظلم ، ويوحى رساله الى
الطبعة في دمشق بخبره بظلم الخراج وجوره ، ولكن الخراج
معنى الى بعاثه ، وبذل جهده في تجميعه ، فبطل الوليد ، ومنه
امر عزاء له ، ولو جاءت امة عذيقه ، رجلا بالخراج وحده
لفعل ما .

ويحكى عنه انه ذكر لديه الموقف السياسي العام بعد عزله ،
فصرخ من العنق قائلاً : « الخراج ، العراق ، والوليد ، الشام ، وبنان
بالدنية ، وقرية بصر ، وخالد بنك » . فقامت الاممات الدنيا كلها
وجوراً ، فأرجح الدماء .

ولم تكن تلك النقة مقصورة على ارجل دول الامم ، ويلي
الطبعة الحكمة دون الحكومة ، وانما كانت شامة عرمة . فاعلم
هذه الحكاية :

فدام الخراج على الوليد بن عبد الملك ، وسحق وعيبه ، وبع
وعامة سوداء وفوس عربية وكسنة ، ففشت اليه (الى الوليد)

ثم السيف بنات مر بن عبد العزيز ، فذات :
- من هذا الاخراني المستقيم في السراج عندك ، وانت في
غلاة .

واحد الرسول : والله الطبع ، ثم قل لي ما فعله ام
البنين ، فقل هذا .

مع ذلك هو كفة الفداء بخلاف القول . ولا فطنت علي
مرتك ومكبدة عدوك . هذا امره ربحه ولبست بقهر مائة .

فمن دخل نزلت امره بقاء الطبع ، فقل :
- يا امير المؤمنين احبني انك ان احببني عندك يا امير
مستائمه .

وجاء الطبع في اليوم الذي فحبه ، ثم ادخله ولم يزل له
بالقوة ، فله قول وثنا ، ثم قال له :

- اية يا حبيب انت المدين علي امير المؤمنين قل ان نوري
وان الاشعث امام . ومنه قولنا ان الله عز وجل خلقه ما
ابلاك برمي الكعبة الحرام . ولا قل ان ذات الضيفين
اول مولود في الاسلام . وامام نيك امير المؤمنين عن صف كفة
العداء . ويطلع اوطارهم ميهن ، وان تكن ريدان ذات في اسفه

١ استلام : انس الامة وهي اذرع وحواشيها من نعم الخرب : روح ونسبة
(جود) ودهر وسيف ومن .

٢ شعر تحت النور .

٣ المهرمان : جود وواجب احضان تحت يده .

٤ ذات الطفيل : جودت في شهر . وسيد من الزير . ومهد الخلق

البي على هذا المقام .

القبول منك ! وان كنت يلدن مثله فهو غير قابل لقولك ! اما
 والله لقد نفضت نساء امير المؤمنين الطيب من غدارهن ، واحلني
 من ايديهن وارجلهن وبعث في اعلى اهل الشام حيث كنت في
 اخفق من القرآن ، وقد اخذتكم رماحهم وانجلك كفاحهم ، وحي
 كان امير المؤمنين احب اليهم من آلهم ، ونجوا انه ممن عدو
 امير المؤمنين بحجم يده . فقل انه انقضى حين نظر اليك وسمان
 غزاله . كذبتك :

أنت عني ، وفي الحروب العامة . فخذوا نفر من صغير العاصم
 هلا . كذبت عني غزاله في الوحي . بل كان عليك في جناحي ضائر
 وحي عني الوليد ، بعد تركه ، والله :

— كنت فيه يا حجاج !

— يا امير المؤمنين ! ما سكنت حتى ظلمت نفسي فدعيت .
 وحتى كان بطن الارض احب الي من ظهرها !

وروي احد الاسرى الحديث الذي : دكت في حبس الحجاج ،
 فطيس معا رجل ، فقام حبسا لا ينكم بكلمة حتى كان في اليوم
 الذي مات الحجاج في السنة التي تليه . اقل غراب في عشية ذلك
 اليوم ، فوقع على حائط السجن فوقع . فقال الرجل :

— ومن يقدر ما تقدر عليه يا غراب !

وتم الحق الثانية فقال :

١ القرآن : النسخة من الجود تكون مشقوفة ، ثم تحرر .

٢ غزالة : هي امرأة شيب بن يزيد الشيباني وقد ابنت يده رائحة في الحرب الى
 جانب زوجها .

٣ الغصاة : الناقة ارتفعت الحلال في بطنها ، وهو مسوم .

« — من بك من بشر بخير يا غراب !

« ثم نطق الثالثة ، فقال :

« — من بك الى السماء يا غراب !

« فقلت له : ما سمعناك تكلمت منذ أصبحت الى الساعة ، فما دعاك

الى ما قلت ؟

« — نطق الغراب في الاولى فقال : الى وقعت على سحر الحجاج

فأجبت : ومن يقدر على ما تقدر عليه .

« وفسان في النقطة الثانية : ان الحجاج اصابه وجع ، فأجبت :

« من بك بخير . وفل في الثالثة : التبت يموت . فكان

جوابي : من بك الى السماء .

« ثم تابع السجين العاصم حديثه :

« — ان اتبع الصبح قبل ان اخرج فليس عليّ بأس . وان

دعيت قبل الصبح فستعرب عني ، ثم انشئون ثقتي لا يدخل عليكم ،

ثم ندمون في اليوم الرابع ، فينف على رؤوسكم الكلمة ، فمن وجد

له كفيلًا حتى يبيله ، ومن لم يجد له كفيلًا فويل له ظويلاً .

« وكان كما قل ... »

وجرت للحجاج مع عمارة بن غيم النخعي ، الذي حمله حصن

الجهاد في ثورة ابن الاشعث ، فقة نزل على النقرة التي بها لدى

الاشخاص الذين اعانوه ونصروه ، بله الذين حاربوه .

عزم الحجاج على انضي الى عبد الملك فخرج عمارة معه ، فلم

يؤن يلطف الحجاج في مسيره وبمظله حتى قدموا على الخليفة . فلما

قام الخطباء بين يديه ، وأثنوا على الحجاج ، قام عمارة فقال :

« يا امير المؤمنين ! سل الحجاج عن طاعتي ومناصحتي ودلائمي !

فقل الخواج :

- يا امير المؤمنين ! سمع كذا ، وسمع كذا ... ومن بدأه
كذا ... ومن أخذته كذا ... هو عين الناس نقيبة ، وأعلمهم
بتدبير ومصلحة .

فقل محبرة :

- أرخصت يا امير المؤمنين ؟

- نعم ! رضي الله عنه .

وكرر محبرة - مرة ثانية ثلاث مرات ، وكرر امير المؤمنين
حرفه ثلاث ، فقل محبرة :

لا رضي الله عن الخواج يا امير المؤمنين ! ولا حفظه ولا
عنده ! فهو - والله - السريه الذي قد قد عليك اهل
العراق ، واليب عليك الناس ، وقد أتيتك بلا من فله عقاله ،
وصعب رايه ، وفلة بخره بالحيله ، وانك والله اعلم ان لم
تقره .

فقل له الخواج ، وقد اصر وجهه ، وجبت ريفه في فيه :

- مع يا محبرة !

لا والله ولا كرامه ...

ورث عن السيرة ، ولم يذهب الى العراق الا بعد وفاة الخواج .
وشبهه بهذه النقيبة التي تجلت في سلوك الاعوان وابتناء البيوت
المناك والافارب والاصطفاء ، شبيهه - خروج اولاد المهلب بن ابي
صفرة عليه ، والمهلب هو الذي اتهمه من الخوارج وحرهم ببراغته
وسهره واجتهده ، وانتفض اكثر العرب والولاء والقادة والجنود
والنقبه .

ولم تطل أرمه الوليد بعد هلاك الخجاج اكنوا من أشهر ،
 فتمسك الهوش سليمان بن عبد الملك ، وراح يامر الناس بشتم الخجاج
 علناً ، ويذيع فيهم مثاله ، ويحذيه على شره ، والتبوء منه ومهـ .
 وما كان سليمان يملك هذا المسلك السجدة خلفه شخصي احد في
 نفسه على الخجاج فحسب ، وبما كان يتقرب الى رعيه . المعرض
 له والشهير به ، حتى بلغ في ذلك درجة كانت اصحك الناس ،
 وسبيل الولاة . فقد حمده خالد بن عبد الله القسري المرو في يوم
 جمعة ، وهو ان ذاك على مكة ، فذكر الخجاج وحده فذممه ،
 واثنى عليه .

وما كان في الجمعة الثانية ورد عليه كتاب سليمان بن عبد الملك يأمره
 به بشتم الخجاج ، ونشر عيوبه ، واظهار البراءة منه . فعهد اليه
 فهداه الله وأحسن عليه . ثم قال : وان ابنس كان ملكاً من الملائكة
 وكان يظهر من طاعة الله ما كانت الملائكة ترى له به فضلاً ،
 وكان الله قد علم من غشه وخبئه ما خفي على ملائكته ، وما اراد
 الله فضيحه امره بالسجود لأدم . فظهر لهم ما كان يخفيه عنهم ،
 فلعنوه . وان الخجاج كان يظهر من طاعة امير المؤمنين ما كنا
 نرى له به فضلاً . وكان الله افنع امير المؤمنين من غشه وخبئه
 على ما خفي عنا . فلما اراد الله فضيحه ، اجري ذلك على يدي
 امير المؤمنين فلعنه . قالوا : لعنه الله ! ثم نزل .

وعندما قدمت وفود العراق على سليمان بن عبد الملك لتهنئته
 بالخلافة امرهم بشتم الخجاج ، فاحذوا يتباركوا في شتمه . وروى
 احمد فقال : ان عدو الله كان عبداً زليماً ، قنوتور بن قنوتور ،

لا سب له في العرب . . وفهم ابن أبي موسى الأشعري ، فقال :
 « كان عدد الله يتزين تزينا المومنة ، ويصعد المبر ، وينكلم بكلام
 الاخبار ، وإذا نزل عمن عمن الفراغة ، وكان اكذب في حديثه
 من الدجال . »

ثم تم يكف بشنه والتشهير بعبويته ، وإثنا أوغل بعد ذلك في
 الانقصاص من اصفياته ومريديه ، واممن في التشكيل بهم ، اد
 امر يزيد بن مسلم ، مولى الحجاج ، فجيء به مقبداً . وكان دميماً ،
 خثيل اميكن ، زوي المظهر ، فلما رآه سليمان قال له :

— لعن الله امرأ اجرتك وسنك ، وولئ مثلك .

— يا امير المؤمنين ! انك رأيتني والامر عني مدي ، ولو رأيتني
 والامر عني مقبل لاستعظمت من امري ما استصغرت ، ولا استجللت
 ما استعقرت .

— ابن ترى صاحبك الحجاج ؟ أهوي في النار أم استقر في
 قعرها ؟

— يا امير المؤمنين ! لا تقل هذا ! ان الحجاج قسح اصكم
 الاعداء ، وولم لك الشار ، وذرع لكم الهبة في قلوب الناس ...
 وبعد ، فانه يأتي يوم القيامة عن بين ايديك عبد الملك وشمال اخيك
 الوليد ، فضعه من النار حيث شئت .

فصاح به سليمان :

— أخرج الى لعنة الله !

ثم التفت الى جلسائه :

« اجروه وسنه : تركه يصنع ما يشاء . »

— فتبعه انه ما كان احسن تربية لهفه ولصاحبه .
 ولكن ثقة سليمان بن عبد الملك على الحجاج تأثرت خطي
 الحجاج نفسه في ثقته ، فراح يصفك دماء الأبرياء من انصار عدوه ،
 ويوفي من الشكرات والفضائع ما لا يختلف في شيء البعداء عن
 فقطع ذلك الذي يحمل عبه ويندد بسوكره ، فقتل صبر بن قتيبة
 رافع الصبي ، وقتل محمد بن القاسم فجع لهده ، ونعتبها حتى
 الثارين عليه بوحشية وضراوة ، فكان سليمان اول العهد الخريج
 مدرسة الحجاج في الضيق ، وان عداه وازر في وجهه .
 ومرة هذه العداوة يكمن في موقف الحجاج من ولاية العهد
 في زمن الوليد ، اد احمد جبار ثقبت بعمل ايام الوليد على جعل
 ولاية العهد لعبد العزيز بن الوليد ، محاولاً بذلك إقصاء سليمان عن
 الخلافة ، على نحو ما فعل ايام عبد الملك وأغراء بنسحب ابنه
 الوليد ، وخلق ملك الامة في قلب البيت امالك .

وإذا كانت ثقة سليمان على الحجاج مشوبة بمحقد شخصي محبق ،
 وإذا كانت قد انتجت من الجراحات والمساوي ما لا يقل عن
 مآسي الحجاج نفسه ، فإن ثقة عمر بن عبد العزيز الذي اختلف
 بعد سليمان ، خالصة من كل شائبة ، وليس الباعث عليها او المحرك
 الاساسي في انبثاقها غير صلاح ابن عبد العزيز وفحامد ابن يوسف ،
 بمحدثنا ابن عبد الحكم^١ ان عمر دخل على الوليد فقال له :
 — ان عندي نصيحة ، فإذا خلا لك عقلك ، واجتمع فهلك

١ . انظر صلي و ادارة وعمران ٥٠٤ ص ١٨٤ .

٢ . سيرة عمر بن عبد العزيز ، ص ١٣٩ .

فلني عنها .

- ما يبعث الزنث ؟

- انت امر اذا اجتمع لك ما اقول ، فانك الحق ان تفهم .

فكنت ايماءاً ثم دوى الحبيب

- يا غلام ! من باب ؟

- من و... ثم مر به عبد العزيز .

ادخل وحده .

فدخل عليه ، فبذره الوليد :

عبيدك يا ابن حفص !

- ان ليس بعد الشر انما اعظم عند الله من اندم . وان

عزلك يقتلون ويكتلون لك : ان ذب القنول كذا وكذا ...

وانت المسؤول عنه ، وان اخذ به ، فاكتب اليهم : لا يقتل احد

منهم احداً حتى يكتب اليك بديه ، ثم يشهر عليه . وبعد ذا

اامر بامرك على امر قد وضع لك .

- بارك الله فيك يا ابن حفص .

وكتب الوليد الى الامصار ، فخرج من ذلك الا الحجاج ،

فانه امضى^١ وشق عليه رفض مصعبه ورضى انه لم يكتب الى

احد غيره ، وراح ينسأل ويسأل : من اين ادبعت^٢ ومن اشار على

امير المؤمنين بهذا^٣ فاجاب ان عمر بن عبد العزيز هو الذي فعل ذلك !

وكانت من عمر حين اتى اليه الحكم ان راح يعمل على

١ خرج : مضى .

٢ امضى : آله واوصيه .

جميع الجراح ووجهه الحار والبرق والبرق والبرق والبرق
 انما في المصروف والذات والذات والذات والذات والذات
 وفيما في كل شدة ووردة وحسن العبد عن العبد والبرق
 السجين والبرق والبرق من البرق والبرق والبرق والبرق
 في حدة الجرح والبرق والبرق والبرق والبرق والبرق
 البرق والبرق والبرق والبرق والبرق والبرق والبرق
 الجرح والبرق والبرق والبرق والبرق والبرق والبرق
 في رسول الحرب والبرق والبرق والبرق والبرق والبرق
 يذاهب مع البرق والبرق والبرق والبرق والبرق والبرق
 كما من البرق والبرق والبرق والبرق والبرق والبرق
 السجين والبرق والبرق والبرق والبرق والبرق والبرق
 معبره والبرق والبرق والبرق والبرق والبرق والبرق
 ولكن البرق والبرق والبرق والبرق والبرق والبرق
 وهو البرق والبرق والبرق والبرق والبرق والبرق
 من الداخل والبرق والبرق والبرق والبرق والبرق والبرق
 الميثاق والبرق والبرق والبرق والبرق والبرق والبرق
 وعصمت مريته والبرق والبرق والبرق والبرق والبرق
 العدل والبرق والبرق والبرق والبرق والبرق والبرق

كانت الامة تسير في مفسدات وتكون اعداء ولازم فيه بخل
 من الاحوال لان الرتبة حقت في قسوس سنة من ولاية الحاج
 انصار مدحا لا ينفذ معه بعض ما كان ولا يخلل سداك
 والاس مستواه ولا يريسون كثر من ان يعيشوا وان كثرهم
 العيش كرامتهم وحريتهم ودينهم ومم فيه من اعداء

٢ - في المنعذر

البك حكاية قاضي الحجاز في عهد عمر بن عبد العزيز :
 كانت رجلاً من أهل العراق أتى المدينة في حب جارية .
 ومذ وصل سأل عنها فوجدتها عند قاضي المدينة .
 وذهب يزور القاضي . فما إن قرأ به المقام حتى سألته
 يعرض الجارية عليه ، فجابه :
 - يا عبدالله ، لقد امتدت الثقة في طلب هذه الجارية ، فما
 رغبتك فيها ؟

- إنها نعتي فتعبد .

- ما علمت بهذا قط !

فالتج العراقي في مرضها ، وأصر أن يراها . فجماعات ، فقال
 لها الفتى ، على مرأى ومسمع من مولانا القاضي .
 - هات !

فاندفعت نعتي :

إلى خالد ، حتى اتحن بخالد فدعم الفتى برجى ، ونعم المؤمل
 ففرح القاضي بجوارته وسر بها ، وعشبه من الطرب أمر
 عظيم حتى أقعدها على نعله ، وقال : هات صوتاً غيره ، بأي انت !
 فغنت :

أروح إلى القصة كل عشية أرجي ثواب الله في عدد الخطى
 فزاد الطرب على القاضي ، ولم يدبر ما يصنع ، فأخذ نعله
 فعلقها في أذنه ، وجنا على ركبتيه ، وجعل يأخذ بطرف أذنه ،
 والنعل معلقة فيها ويقول : « اهدوني إلى البيت الحرام » ، واستمر

عنى هذه الحال ، فى شبه غيبوبة من مشوئه ، حتى اذمى اذنه .
فلما أمسكت عن الغناء أقبل على العرافى فقال له :
- يا حبيبي ! انصرف ! قد كذا فيها راغبين قبل ان تعلم انها
تفنى ، فمنع الان فيها ارغب .

ومد عرف عمر بخبره عزلة . ولكنه ما أصرع ما اعاده الى
عمه ، بعد ان سمع غناء الجارية الفتاة .

تلك صورة واضحة من صور الحياة الاجتماعية فى آخر القرن
الاول للهجرة . ففيها مثل تطرد على قياسه الامثلة للاجواء التى
ختلفها الحجاج ، وساق اليها حتى القصة والغزل والصالحين ...
أيا كان شأنهم ، وأية كانت منزلتهم .

ولكن الانحلال اخذ يظهر بعد عمر بن عبد العزيز بشكل
سافر يدق عن الوصف ، اذ ولى من بعده يزيد بن عبد الملك ،
عصرى همه ، كل همه ، فى الجوارى والشراب .

نعلق اول ما نعلق بسلامة القس حتى ملكت عليه لبة
واستأثرت بأوقاته ، فلم يهر الدولة اذن اهتمام ، ولا فكر معها
بنظام ولا امن ولا شريعة ولا جيش .

ولم يرق هذا العرام بسلامة احدى نساء القصر - وهي جنة الخليفة -
فاحتالت بشراء جارية تدعى حيازة ، كان يزيد قد اعتلقها فيها
مضى من ايامه . فأولع بحبازة على نحو ما اولع فدمماً بسلامة ،
وبالغ فى اكرامها ومحبتها واقتناء النفائس من اجلها ، حتى سخر
بيت المال وكل ما فى الدولة لرضاها والحظوة لديها .

ولما طفق الكبل جاءه اخوه مسلمة وقال له : انما مات عمر
امس ، وكان من عدله ما قد علمت ، فينبغي ان تظهر للناس

عندئذ من يدعيه ورواه عن أبيه وقال

من ادعى ذلك النسيح ورواه عن أبيه

من ادعى ذلك النسيح ورواه عن أبيه

وقال من ادعى ذلك النسيح ورواه عن أبيه ورواه عن أبيه
 يومئذ من ادعى ذلك النسيح ورواه عن أبيه ورواه عن أبيه
 من ادعى ذلك النسيح ورواه عن أبيه ورواه عن أبيه
 من ادعى ذلك النسيح ورواه عن أبيه ورواه عن أبيه

وقال من ادعى ذلك النسيح ورواه عن أبيه ورواه عن أبيه
 من ادعى ذلك النسيح ورواه عن أبيه ورواه عن أبيه
 من ادعى ذلك النسيح ورواه عن أبيه ورواه عن أبيه

وقال من ادعى ذلك النسيح ورواه عن أبيه ورواه عن أبيه
 من ادعى ذلك النسيح ورواه عن أبيه ورواه عن أبيه
 من ادعى ذلك النسيح ورواه عن أبيه ورواه عن أبيه
 من ادعى ذلك النسيح ورواه عن أبيه ورواه عن أبيه
 من ادعى ذلك النسيح ورواه عن أبيه ورواه عن أبيه
 من ادعى ذلك النسيح ورواه عن أبيه ورواه عن أبيه

وجرت بين هاشم وزييد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب
 معركة انتهت بقتل زييد وكان يغود الجيش الأموي في هذه المرة
 أيضاً رجل من ثقيف اسمه يوسف بن عمرو الثقفي. وإلى زييد هذا
 يرجع الزيديون اليوم ثمة اليمن.

م يكنف يوسف الثقفي بحاربة زييد والفضاء عنه ، وأما بدش

قبره واستخرج جثته وفعل الرأس عن الجسد وبعث به إلى هشام .
فكتب إليه هشام يأمره أن يصبه عربياً . فطلبه وبنى تحت خشيته
مخوداً . ثم كتب هشام ثانية يأمره بحرقه وذود رماده في الرياح .
وكان هشام ، بالإضافة إلى هذه القسوة الجعاجية ، بخيلاً مقترناً
على الرعية ، تهرها في جباية الأموال ، حريصاً على اختزانها ، ولكنه
كان مع ذلك ذا رأي وفطنة في أدولة البلاد جعله يومئذ ملكاً
وغم الزعازع التي عنت عليه .

بيد أن العاصفة أخذت تهب ، ولاحق رؤسها في الأفق ، إمام
الوليد بن يزيد الذي جاء بعد هشام ، إذ دب الانقسام في الأسرة
المالكة ، وانشأت العصبية بين الوزارة واليهودية ، وضعف عنصر
العربي ، وقويت شوكة أهل حران ، بعد أن نزع إليها أكثر
المعارضين .

أما سيرة الوليد هذا ، فم تكن غير نسخة طبق الأصل عمن
سيرة أبيه يزيد بن عبد الملك ، ولكن على شكل أصغر وأضعف
وآلم . فمن عهده خرج يحيى بن يزيد بن عبي بن الحسين بن علي
ابن أبي طالب ، فبشر إليه نصر بن سياراً سم بن أخور ، فقتل
يحيى في المعركة بسهم أصابه في صدغه ، فوق أصغره عنه يومئذ ،
وأحتر رأسه ففعل إلى الوليد . وصلب جده بأجوزجان ، ثم بزل
مصلوباً إلى أن خرج أبو مسلم الخراساني صاحب الدولة العربية ،
فقتل أبو مسلم بن أخور وأبزل جثة يحيى ففعل عليها ودفنت هناك .
نلك هي أبرز الحوادث السياسية التي أتت فيها خطى الجعاج .

غير ان يكون الوليد، وحبه لهنو والغدا، ونعته بالشراب والطواري،
 وولعه بالجن الشيد سقى به الأولي والآخريين جميع هذه الاشياء.
 الى اية ذلك وترق السعة، ولكن اي روح شعيرة تجعله من
 ألمع شعراء العرب، ذا شعيرة من الدرجة الأولى.

حاشا البشير بوفاء هشام، وسيم عليه بالخلافة، فقال:

اني سمعت خبيبي	نحو الرصافة رنة
افلت السحب ذيلي	اقول ما يحافنه
اذا بدت هشام	يندبن والذمت
يدعون وبلا وعولا	والويل حل بيته
ان المثلث حقا	ان لم

بعد البيت من نسبه العرش ارق جعل بشرى ويقول:
 طال ليبي وبنت اسقى السلام، واتاني نعي من بالوصافة
 واتاني بريدة، وفطيم، واتاني بحشام للخلافة
 وحدث له مرة ان فتح السحب فوقعت عينه على الآية الكريمة:
 «واستفتحوا واذب كل جبار عبيد، من ورائه جهنم ويسقى من
 ماء حديد»، فنصب القرآن غرضا للشباب واقبل يرميه وهو يقول:
 انوعد كل جبار عبيد فما انا ذاك جبار عبيد
 اذا ما جئت ذلك يوم حشر فقل يا رب خرفني الوليد
 وذكر، غير مؤرخ البيتين التاليين في ذكر النبي محمد، ينكر
 عليه الوحي:

١ ردة النبي كانت بيضا خطا.

٢ ردة السحب التي التي كانت يس ماء.

نصب بالخلافة هـ - شمي بلا وحي الله ولا كتاب
 فقل له : يعني طعامي وقل لله : يعني مبرائي
 وكان في امطيه الف فارح من الخيل ، عني بما عتبه جعلها
 تسقى حائر الخيول . وكان ينظم الشعر في مدح اعراسه المنيعة ،
 ويقدم الف آخر لشربها على مرأى من المعين والندامى زيادة في
 اعظامها وتكررها هـ .

كانت ام هذا الخليفة العربي الاطوار يست محمد بن يوسف
 الثقفي اخ الخدمج ، وكان له ربه وسبه طريق الشاعر بن اسماعيل
 الثقفي . فهو اوز وجه واني من ابناء الدولة الاموية .

رأى الامويون ان يعود الوليد هذا لندم مع كل دعة ، وانها
 اصبحت الى الجميع اصابات لا يسيل الى المكتوت عيب ، وروا
 من القلاء والموبقات والمضايح هـ من الضاميين منهم . حكم على
 نديير مؤامرة اودي به ، فانفق يزيد بن الوليد بن عبد الملك مع
 جماعة من العقلة وانهم داروا ونفروا في دمشق ، وعلوه ، واستولى
 يزيد هذا على مقدرات الخلافة .

ولكن مدة ولايته لم تزد على خمسة اشهر اذ اقم حلفه في
 سن مبكرة ، فنصب اخوه ابراهيم بن الوليد الذي معه الناس
 بدمشق ، وكانت امامه عجيبة الشان من كثرة الفرج والاختلاف
 واختلاف الكفة وسقوط امية .

واستغل مروان بن محمد بن مروان الفوضى ، فاقبل من الجزيرة
 على رأس عصابة ، ودخل دمشق في جيش كبير ، وهرب ابراهيم ،
 ولكن مروان جد في طلبه الى ان قتله وحلبه ، وقتل معه عبد

العزيم بن الحجاج ، ويزيد بن خالد القسري ، والي حسان بن عبد
المالك بنى المراق وخجرا .

٣ - أنهار

كان لأشواق الأمويين من بينهم ، وشعوب الفرق البسيطة من
معتزة وراوند ، وغيرهم ، وانشر الروح الوثني في سواد الناس
وابد الأسرة المالكة ، وانقد العرب الى توارية ودابة ، واستعمال
السيف والعصا والهدريق لدى كل مناسبة ، وفهم الحكماء في
دمشق - كان هذه العوامل عذمة ، وكان من مكنونات الحجاج ،
كل البد في ثورة الزند على الدولة واثاب الأعجم على العرب ،
في هذه الاثناء ، اي بين حسان بن عبد الملك ومروان بن
محمد ، راحت العناصر المذمومة المموية ، سواء في الداخل والخارج ،
تتكاثف وتندب عد ، وكان العرب الحجاج الذي اتبع في غير
الحكماء هو السائد على الحكماء والعمال والفواد ، فيه قضى على
اولاد المهلب ، وعنى يزيد بن غي بن الحسين وابنه يحيى ، واليه
انتمى الأمويون فيما بينهم من اعداء يعزاهون .

وفي هذه الاثناء ايضا نشأت الفرقة الراوندية التي نقول : ان
الحق الناس بالامامة بعد النبي هو العباس بن عبد المطلب لانه
عمه وواوئه ، وان الناس انصروه حقه وحكمه أمره .

وعنى هذا العباس نورا الزوانديون من بني بكر وعمر ،
واجزوا بيعة علي بن ابي طالب ، وما انتهت الاحداث الى ايام
مروان على ذلك الشكل الذي وصفه ، كان الزوانديون قد قرروا

الأممة على الوجه الثاني . ١ - علي بن أبي طالب . ٢ - محمد بن
الحنفية . ابن الإمام علي . ٣ - أبو هاشم بن محمد بن الحنفية .
٤ - علي بن عبد الله بن الحسن بن عبد المطلب . ٥ - محمد بن
علي . ٦ - إبراهيم بن محمد الفيل الذي قتل في حران . ٧ -
أبو هاشم بن الطرثبة المقتول .

وكان أبو عبد الله الخراساني ردياً شاعراً عبداً عجباً - ومنهم
من يقول مروية - وأصح على بحر الأيام فهو ما لا لأدريس بن
إبراهيم الجعفي ثم آل عمره إلى الاتصال بتعبد بن علي ، ثم إبراهيم
ابن محمد الأموي - على الطريقة الرواندية - فأرسله هذا إلى خراسان ،
وأمر أتباعه هناك بطاعته والافتدائه . وكان دافعاً فاضلاً من
صفة الأرقع وسبحر .

كان وأبي خراسان من قبل الأمويين يومئذ ، نصر بن ميثاق ،
فكتب إلى مروان بن محمد ، خليفة دمشق ، يهمله بخرج الموقف ،
ويستعمله المدد ، ويختار كدبه الأبيات التالية :

أرى حال الرمد وميض حمر	وبوشك أن يكون له فرام
فإن الدار تاحيدان ماضي	وإن الحرب أولها كلام
فإن ما تشقوها نجح حمر	مشيرة يشيب لها القلام
أقول من النعجب لبيت شعري	ألفاظ أعية أم نيام ؟
فإن يك قوماً أضحووا نياماً	فقل : وقوموا فقد حان القيام ،
فصرى عن رحالك ثم قومي .	وعلى الإسلام والعرب السلام ؟

وحمل رسول نصر إلى مروان فوجده في أمر بلاء : الخوارج
 يملكون عليه الطرق ، ويرزعون في وجهه المصاعب ، فلا يخلص من
 فتنة حتى يقع في فتنة ، ولا ينسحب من معركة حتى يبدأ معركة
 غيرها ، وكتب إلى عامله : ... ان الشهد يرى ما لا يرى الغائب ،
 واستنجد نصر بيزيد بن عمرو بن هيرة الفزاري عامل مروان
 على العراق ، فمر بجه بيزيد لاستئصال ثورات العراق القائم القاعد .
 ثم اضطربت اليمن ورجعت من جموع الخوارج من اليمانيين
 على مكة والمدينة فاحتلواهم . فنهز مروان ومشي فحاربهم ، ولكن
 جهة حراسان ضعفت ، ولم يبق الحرس أدنى مذقة على المقاومة ،
 ففادر حراسان حتى إلى الزبي ، وخرج عنها إلى مساوة ، حيث
 مات أمداداً .

ومشي أبو مسلم من ظفر إلى ظفر ، ومروان يخطب ويستغل
 من بلد إلى بلد مناصراً مرة ، مهزماً أخرى ، متطعفاً في المنابر .
 وانزاهه على السواء ، حتى بلغ النوح عنده أهلها من الدمار .
 وحقق عبدالله بن علي يعيش حراساً في طيب ، فاستنصب إلى أن
 سقطت دمشق في يد عبدالله بعد حصار قصير ، ففر إلى مصر ، وبعثه
 صالح بن علي فملك من قتله ، واستولى على الآثار التي يختص
 بها الخليفة كبرودة النبي وغيرها . وهكذا انهارت السلطة العربية .
 هذا ما أفضت إليه سياسة الخجاج : اعاد الوثنية إلى سابق أحوالها
 وزرع الاحقاد في نفوس الناس على العرب ، ولم يجد فكاه
 بالخوارج وقشيعه والزبيريين ولا بغيرهم .

فصلى على العرب وبحق سلطانهم وهو يفتخر بالعرب !

٤ - درس وعبرة

كانت النتائج التي انتهت اليها سياسة الخراج عامخة الدلالة ،
مغلقة على أكثر الأذهان ، حتى صعدت عما الأجيال ، ولا تزال
صاعدة عنها الى يومك هذا .

كثيرون هم الذين يعتقدون ان الخراج فضل من اطفال العروبة
ويدهون الآخرين - بكل بساطة وهدوء وارتياح - بما حقق
من فروع ، وابتدى من بواقي في قلب التورين ، والقصة على
عصاف الحركات الفكرية التي شلت في عروبة .

وأحسب ان الذين أعجبوا الخراج ، وأجدوا بها اضر من
عنف يدهو ، وحزماً ، وثباتاً يحدونهم ، فورة ، - أحسب ان
هؤلاء رامتهم ان يوقفوا امدان تكون فكرة فوجئة واضحة عن
الحرية وهما في هذه الآلة ، ان ادعيت ان العبد من ذلك ،
وارى ان هؤلاء الذين يؤيدون اسلوب الخراج في الحكم والادارة
اذا يرمون شايدهم هذا على انهم مسمون على انفسهم في
النصر الاشبه والخواتم . فينبذوا ان الخراج يحكمهم اليوم
ولننظر كيف يقولون . . . ولكن احدهم لا يفر الخراج على اعماله
الا اذا كان هو في مكانه وفصره وسحبه .

لقد كان يلاء هذه المجموعة من البشر الذين يسمون انفسهم
« عرباً » انهم يخربون صفحة عن قيمة الانسان ، فالكان الانساني
عندهم شيء حبيب ثاق ، لا وزن له بلقاء ما يقع من العلم والاخلاق
والفض والمواعب الفكرية او الادبية او الفنية او الروحية .
هذا هو عيب تعريب قديماً وحديثاً ، وهذا هو سر بطلانه ومصدر

كوارثه ويسوع آلامهم . وسوف تبقى حياتهم على ما هي عليه
من نعمتك وبيع وبشعة واضطراب وبؤس ونعاسة ، ما داموا
يجهلون «قصة الفرد» ، ويعتدون الكيان الشخصي لكل احاد .
يجب ان يطلع العربي على «الجانب المجهي» من شعبه .
ومحنة العربي ، كل عربي في كل عصر ومصر تلخص في موقفه
الحي من عبوه اياً كان هذا «الغير» .

أمل هذه الازمة التي لا تفرق لسان الخجاج منه قدر على
استنهاها الى يوم هلاكه : «يا حرمي !» اضرب عنقه . نأملها
نجد ان هذا الحد لم يكن يفكر بحياة الآخرين ولا كان يهم ما
يصيبهم بحال من الاحوال ، فسواء اذيه مات الناس او عاشوا ،
امسقوا او اغشوا ، سعدوا او شقوا . المهم ان يكون هو مريح البال ،
مستم العيش ، مرهتاً في قيامه وقعوده ، ولو كلفت هذه الازمة هلاك
الجموع . على ان هذه الظاهرة في الخلق العربي التي جعلته «مجهياً»
حتى في ارفع اطواره الحضارية ، لم تقف عند دور من ادوار
التاريخ ، ولا تحته كارثة ، ولا حطبها عذاب ، ولا هتافاً ، فهي
لا تزال كعهدك بها تفرق بين العربي والجهل ، وتترك السباب
منوحاً لكل اجني طامع ، وانفس امة في مجال الدس والظلم
وتعريه باستعباد العرب واستنثار منازعاتهم وتلاقاتهم ومصائبهم ،
حتى اذا انفلت في حنايا وجودهم ، وعرفل اسباب تقدمهم ، وحطم
مقدرة الاحرار منهم ، رجعوا الى «لازمتهم» السياسية المعروفة
الا وهي لوم الاجني ، والتعامل عليه ، وجعله مسؤولاً عن كل ما
اصبهم وما يصيبهم ، وفي ذلك من المغالطة والشطط وموه الفهم
ما لا حاجة الى تبليانه .

وإذا أنت أعدت النظر في سيرة الحجاج نجد مصداق هذا الحديث ، فقد أوغل ذلك الحاكما في القتل والفتك حتى انى على زهرة الشباب العربي . وجاء من بعده خصامه يدمون ما بنى ، ويحصدون الدين ابدوه وصروه حتى انوا على البقية الباقية من العرب . فكان من الطيبي ان تخسر السلطة العربية المعركة مع اهل حراسان ، وكان من الطيبي ان تسقط دمشق في يد جماعة المبرسين ، اي في يد الاحباب .

وجاء المبرسون فكان سلوكهم كسلوك اسلافهم الامويين ، اي انهم استهدفوا القضاء على خصامهم من العرب ، تساندم في ذلك عناصر الفرس اولاً ، ثم الاتراك ، حتى اقبل المتوكل على انه وليس حوله غير الاحباب ، اذ انحدرت الجماعات العربية نحو النذل والتخاذل ، وانتقلت السيادة منهم الى غيوم عليهم بصورة تدريجية اقصا الى استيلاء الغنمانيين على كل بلد يتكلم اهل كلاماً عربياً . تلك هي مأساة العرب : لا ينسكن واحدهم من القوة الا ويسندهم قوه في محاربة اهل ، وادلال خصامه ، والفتك بشيخته . وتلك هي رواية الحجاج من اوجه الى آخرها .

وكان من العباسيين بعد ان استولوا على دمشق ان اسرعوا الى قبور الامويين فنبشوها واحرقوها ما وجدوا من جثة هشام ابن عبد الملك ، وجثة سليمان اخيه ، ثم استخرجوا بقايا الوليد وعبد الملك ويزيد ومعاوية واحرقوها ، حتى انتهوا الى جثة الحجاج في واسط فاحرقوا القبر كله . رأيت الى هذه الاحقاد التي كانت تنتقل من جبل الى جبل ؟ رأيت الى ذلك العنف في الخصومة ؟ رأيت الى الطغيان ونتائجه ؟

تسوية

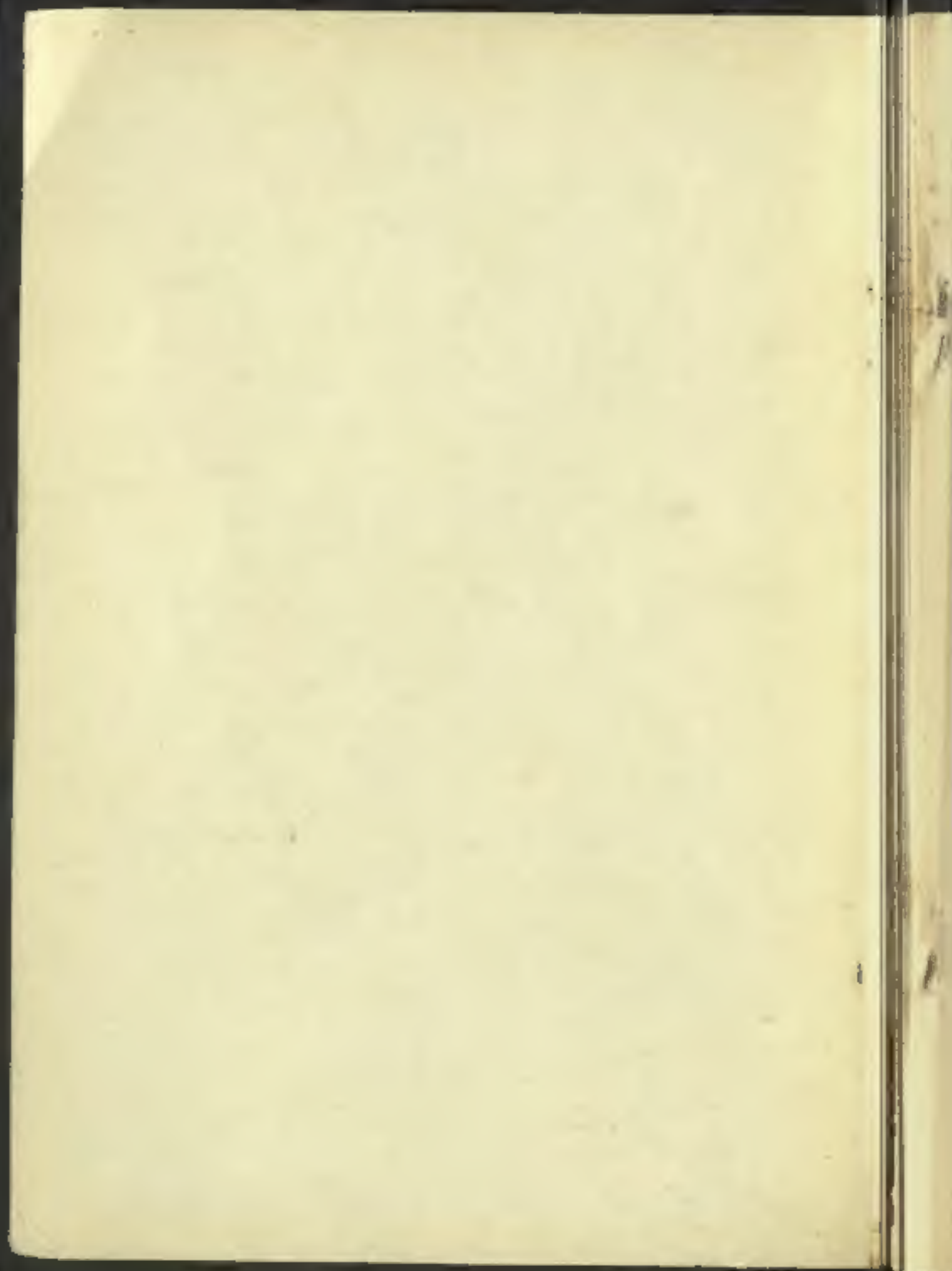
الصفحة	الحرف	الحرف	الصفحة
٧	٢٠	٢٠	٧
٨	٨	٨	٨
١٣	١	١	١٣
٢٣	٣	٣	٢٣
٢٤	٢٣	٢٣	٢٤
٢٢	٢٢	٢٢	٢٢
٤٠	٢٠	٢٠	٤٠
٤٤	٧	٧	٤٤
٤٥	١٦	١٦	٤٥
١٢٨	١٠	١٠	١٢٨
١٧٤	٣	٣	١٧٤
١٧٥	٩	٩	١٧٥
١٩٤	١٨	١٨	١٩٤
١٩٥	١٨	١٨	١٩٥
١٩٩	٢	٢	١٩٩
٢٠٠	١٩	١٩	٢٠٠
٢٠٢	١٠	١٠	٢٠٢

تصحيح: ما ذكر في الصفحة ١٨ على ذكر خلاصة بعد التي انما الشجة بدكرين
في روايات متعددة ان التي نص بصراحة على خلاصة الاصل على ان لا طالب .

فهرس

مقدمة	٥	١١٦
نحو الحجاج		مع الحجاج
١ - ملقى المتاع	١٥	١ - فن وثورات
٢ - احاس الدولة الاموية	٢١	٢ - طفيان
٣ - ارض الواقع	٣١	٣ - عمران وادارة
٤ - ارض التمرد	٣٩	٤ - ادب وخطابة
٥ - ارض الاربحية	٤٤	٥ - حيان الشخصية
٦ - ميدان الاستبداد	٥١	بعد الحجاج
من هو الحجاج		١ - نمة وملل
١ - الطائف	٦٢	٢ - في المنعبر
٢ - بنو اميف	٦٧	٣ - انهار
٣ - حدانة بانة	٧٨	٤ - درس وعبرة
٤ - مع الخليفة	٩٢	

اننى طبع هذا الكتاب بحى مطابع نزار
في اليوم الخامس والعشرين من آذار ١٩٤٠ .



A.U.B. LIBRARY

DATE DUE

[illegible]

A.U.B. LIBRARY

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



00375367

